الدفاع عن الأدب

الدفاع عن الأدب

جورج ديهاميل

ترجمة وتعليق: د.مُحَمَّد مندور

الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

جميع الحقوق النشر محفوظة: لا يحق إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأيّ شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

بطاقة فهرسة أثناء النشر

ديهاميل ، جورج - ترجمة وتعليق: د.محمد مندور - الدفاع عن الأدب

– الجيزة – أزهى ،٢٠٢٢

٢١٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ١ – ٨٦٢٨٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٩٨٠٧ / ٢٠٢٢

الدفاع عن الأدب

تأليف

جورج ديهاميل

عضو الأكاديمية الفرنسية

ترجمة وتعليق

د.محمد مندور

جورج ديهاميل

والأدب الفرنسي المعاصر

جورج ديهاميل مؤلف هذا الكتاب أحد كبار كتاب فرنسا المعاصرين ولد في باريس سنة ١٨٨٤ ودرس الطب كأبيه وانتهي منه سنة ١٩٠٩، ولكنه أولع بالأدب صغيرا، ولم يزاول الطب إلا منذ الحرب العظمى وإن ظل عبد ذلك يجمع بين المهنتين: الطب والأدب.

ونحن لا يعنينا من دراسته للطب ومزاولته له إلا الأثر الذي تركه ذلك في أدبه، وهو ما يمكن ان نلمحه في أمرين: دقة تفكيره، ثم اتجاهه الإنساني.

والذي لا ريب فيه أن دراسة العلوم الرياضية عقلية تغرس في صاحبها روح الملاحظة والميل إلى التفكير والدقة في العبارة، وهذه كلها صفات واضحة عند ديهاميل نستطيع أن نلمحها في بناء جمله، فهي عادة طويلة متداخلة، كثيرة القيود والاعتراضات، رغم تملكه للفكرة ولطرق الأداء تملكا رائعا، وسبب ذلك هو أنه لا يرى الأشياء في خطوط مستوية، بل يمتد بصره إلى خفايا فيحاول أن يحمل جمله على تصوير كل ما في الواقع المادي أو العقلي من تعاريج وظلال، وهو من الدقة بحيث لا تأتيه الفكرة مطلقة، بل حبيسة في طائفة من الملابسات والحدود يحرص على التعبير عنها.

ومع ذلك فقد كان لمزاولته مهنة الطب ولمسة بؤس الحياة عن قرب، سواء عند المرضى أيام السلم، أو في جروح الجند وآلامهم أيام الحرب العظمى، التي عمل بمستشفياتها أربع سنوات متواليات (١٩١٤-١٩١٨) ما حمله على الإيمان بأنه لا الملاحظة ولا العلوم ولا الحضارة المؤسسة على تقدم العلوم تستطيع أن تكشف عن سر العالم وعن السعادة، إنما السرور والسعادة مختبئان في تملك العالم بالقلب، باتحاد

شعري، بهبة النفس للغير، للروح العميقة في الكائنات، وهو القائل (إن الحضارة إذا لم تكن في قلب الإنسان فإنها لن تكون في أي مكان).

ديهاميل مزيج من العقل والتصوف، من الملاحظة الدقيقة ونظرات القلب التي تشق الحجب، وهذا هو سر المكانة التي احتلها، لا في فرنسا فحسب، بل في العالم الغربي كله، حيث ترجمت مؤلفاته التي تتجاوز الخمسين مجلدا، وقد بلغ من الخصب أن ساهم في كافة مظاهر الثقافة الأدبية الحديثة من شعر إلى مسرح إلى نقد إلى قصص إلى تفكير، واسمه مرتبط بالكثير من تيارات النشاط الروحي، وإن لم ينضم إلى أي منها، بحيث لا بد لمن يريد أن يتحدث عنه من مواجهة الحركة الأدبية في فرنسا المعاصرة كلها، وهذا ما سنحاوله في إيجاز لنستطيع فهم الكتاب الذين بين إيدينا فهما تاما.

ديهاميل ودير كرتيل

لم يأت ديهاميل إلى الأدب كما أتى إليه غيره فرارا من الواقع أو لفشله فيما عداه، وهو لا يرى في الفنان إنسانا شاذا أو خارجا على أوضاع الحياة كما كان يفعل الرومانتيكيون والرمزيون من بعدهم، وفي كتابه الذي ستقرؤه ما يدل على أنه رجل متزن حكيم سليم النظرة إلى الحياة، يعتز بمبادئ الخلق ولا يرى في العبقرية ذاتها ما يبرر الانحلال أو يدعو إليه، وأشد ما يغتبط به أن يعزز الخلق المواهب، وعنده أن الرجل العبقرى الذي لا مبادئ له أشبه ما يكون بالعاهرة الجميلة التي يتمتع بها الرجال دون أن يمنعهم ذلك من احتقارها.

ولقد كتب مقالين في مجلة "المركيز دي فرانس" عن مشكلة الهرب من الحياة والالتجاء إلى الفن، وهو يقول في أحدهما: يلوح لي أن الرجل الذي يقبل الحياة يستطيع أن يكون شاعرا على نحو ألزم واكثر استمرارا، وهو لا شك واجد في كل حدث من أحداث حياته موضوعا، وفي كل لحظة من لحظاتها إيقاعا، وأكثر الشعراء إخلاصا لواجبهم اليومي قد برهنوا على أنه باستطاعتهم أن يغيروا معالم الأشياء

العادية التي يفكرون فيها دون أن يتوانوا عن أداء عملهم الذي تعهدوا به. وهم بذلك لا يفرون من الواقع، بل يفرون إلى قلبه، وفي الفصل الذي كتبه عن فن القصص من دفاع الأدب ما يؤيد هذه النظرة.

أولا تراه يقرر أن في الأشياء المألوفة الدارجة ما يستطيع أن يمد أكبر الروائيين بعناصر لا تنفد وإن لم تكن سهلة الإدراك، عاود البصر فيما يقوله عن روائيه المألوف لتدرك إلى أي حد كان هذا الطبيب سليم النظرة إلى الأدب، بل إلى الحياة التي يخدمها ذلك الأدب.

وهو يقول للشاعر: غنِ غنِ ولكن لا تلو بصرك عنا، وما دام قد قدر لك أن تكون إنسانا فلا تتخل عن واجبات مهنتك الجميلة الخطرة، واذكر أن الشعر ليس الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يوحي بالكبرياء، لا تمكن أحدا من أن يقول أنك لم تصبح شاعرا إلا لعجزك عن كل مصير آخر.

وفي هذا تأييد لما قاله في أحد فصول هذا الكتاب عندما دعا من يريد أن يشتغل بالأدب إلى أن يستوثق أولا من مهنة تضمن له حياته، فيتحرر أدبه من رق المادة ويستطيع أن ينضج بعيدا عن كل ضرورة قاسية، وديهاميل نفسه خير مثل لهذا النوع من الاتجاه.

وهكذا نفهم لم حرص على أن يدرس الطب حتى إذا كانت سنة ١٩٠٦ وهو في الثانية والعشرين من عمره، وقد استوثق من أنه يسير في دراسته سيرا منظما أخذ يعمل في الأدب، ولقد ابتدأ إذ ذاك كما يبتدئ الكثيرون من الأدباء بقرض الشعر، وذلك على حد قوله: لأن الشعر لا يحتاج إلى خبرة بالحياة، بل ربما احتاج إلى جهل بها، بينما المسرحية تحتاج إلى تجارب، وأما القصة فعمل النضوج. وفي الحق أن قيمة شعره ليست كبيرة، وإنما يرتبط اسمه بالشعر المعاصر في فرنسا بسبب حركة قوية قام بها هو وبعض أصدقائه الشبان؛ فكان لها أثر واضح في الأدب كما أثرت في حياته وأفكاره أعمق تأثير.

ونحن وإن لم نكن في سبيل التأريخ العلمي الدقيق لتلك الحركة التي لم تدرس بعد ولم تجمع وثائقها والتي نرى النقاد المعاصرين لا يمسونها إلا في رفق وكأنهم يخشون المساس بهؤلاء الأدباء الكبار الذين قاموا بها والذين لا يزالون كلهم تقريبا أحياء مما نحس معه أن في الأمر عناصر شخصية، أقول أننا برغم كل ذلك نحرص على أن نترجم وثيقة مهمة طلب "لالو" مؤلف (تاريخ الأدب الفرنسي المعاصر) إلى رينيه أركوس أحد من قاموا بالحركة أن يكتبها، فأجابه إلى ما صلب وأدرجها "لالو" كملحق لكتابه.

وتعرف هذه الحركة في الأدب الفرنسي المعاصر باسم "دير كرتيل" وهو اسم أطلقته الجماعة على منزل استأجروه بجوار باريس، وأنشأوا به مطبعة ودارا للنشر، بل وسكنه بعضهم، ومنهم من كان متزوجا، وبالدير يتصل مذهب الكلية الذي نادى به جل رومان كما سنرى، ولنترك الحديث أولا لرينيه أركوس نفسه.

كنا في أوائل خريف سنة ١٩٠٦ في يوم أحد مطير عندما اكتشفنا فلدراك وزوجته وأنا الدار التي أصبحت الدير، دارا ممحوة الطلاء لم يسكنها أحد من سنين ولكنها جليلة المظهر بشرفاتها ووجهتها ذات الطوب الأحمر ونوافذها الخضراء.كانت محاطة ببستان أشعث جمع أشجارا من كافة العناصر، وبأقصى البستان حديقة فواكه بها عدد كبير من الأشجار (لقد اتخذنا من الفواكه غذاءنا صيفا بأكلمه) ثم حشائش وكوخ، وطرق عمت مسالكها الأعشاب المسرفة، وكانت مئات من الطيور قد آوت إلى هذا المنزل المهجور منذ زمن طويل، وبعد هذه الزيارة بخمسة عشر يوما كان عقد الإيجار الذي جعلنا سادة الدير قد وقع.

وهذه الوثيقة الحزينة التي لا تزال بين يدي تحمل خمسة إمضاءات: إمضاءات مؤسسي الدير: رينيه أركوسى، جورج ديهاميل، ألبير جليز، هنري مارتان، شارل فلدراك"، ولقد أضفنا في قلوبنا اسم لينار الطباع الذي علمنا مهنتنا، والذي قاسمنا حتى النهاية أيام نعيمنا وأيام بؤسنا. وكان أول ما حرصنا عليه أن سمرنا على المدخل

لافتة كان المارون يستطيعون أن يقرءوا فيها أبيات ربليه:

هنا ادخلوا ادخلوا على الرحب والسعة.

ادخلوا تجدون مأوى وحصنا.

يقي من الخطأ الأثيم الذي طالما احتال.

بأسلوبه الكاذب فسمم العالم.

ادخلوا لندعم هنا الإيمان العميق.

وتحت هذه:

هنا لا تدخلوا أيها المتزمتون

أيها القرود العتاق

أيها الأقذار المنبعجون

وهنرى مارتان، السياسي الشاب الذي كنا قد تعرفنا إليه والذي أعجبته مشاريعنا، هو الذي حصل لنا على أدوات الطباعة ووضعها تحت تصرفنا، وفلدراك الذي كان متزوجا وأبا لأسرة أتى بعائلته كلها، ووضع كل منا في غرفة الانتظار التي كانت غرفتنا المشتركة أعز ما يملك من أثاث.

ثم تعلمنا مهنتنا مهنة الطباعة في سرعة أدهشت لينار، والمجلدان الأولان اللذان حملا شارتنا "كانا أساطير ومعارك" لجورج ديهاميل، و"مأساة الأمكنة" لرينيه أركوس، ولقد نشر الدير ما يقرب من عشرين مجلدا، ثم أن روبير دي مونتسكيو لكي يظهر لنا عطفه، عهد إلينا بديوان شعر له (بارسيفلوا) لنطبعه، ولكنه طلب إلينا الكثير. إذ حملنا على إعادة طبعه أكثر من مرة، وفي النهاية ظهر أن هذه الصفقة كانت من أسوا الصفقات التي عقدناها.

وكان الكثير من الفنانين الشبان يأتون إلى الدير ضيوفا كانوا يأتون يوم الأحد

جماعات، لقد أصبحت دارنا هدفا للنزهة، وكان يزورنا أيضا أشخاص عجيبون، كان من بينهم رجال ذوو قمصان حمراء وأخرى سوداء (منذ ذلك الحين)، ونباتيو وفوريون وكائنات من هنا وهناك، ونساء دميمات دربات اللسان يدعوننا إلى أن نعيش وفقا للمذهب، أي مذهب؟ ذلك ما لم نعلمه قط على وجه التحقيق.

وأراد أحد الإشراقيين أن يحملنا على بناء عدة أكواخ خشبية ببستاننا، بلا ريب لكي نربي فيها جيلا من التلاميذ، وذات صباح أتانا على دراجة شاب قوي عضلات الأرجل ذو عينين في لون السماء، هو جل رومان الذي كان إذ ذاك طالبا بمدرسة المعلمين النورمال، أتى حاملا مخطوطة (الحياة الكلية) التي قرأناها في نفس المساء بصوت مرتفع، يا لها من حماسة وإن تكن الصياغة ونثرية الديوان قد حملتا بعضنا، من لحظة إلى لحظة على أن يقطب حاجبيه، إلا أننا أحسسنا جميعا أن شاعرا قوي الأصالة نادرة البكورة قد ولد.

وحمل الربيع إلى الدير مستأجرين جددا: مرسيرو وزوجته أتيا من موسكو حيث تزوجا، وبرتولدمان، ودوتمار، وألبير دويان وزوجته، وبعض الأصدقاء الآخرين، وكان الموسيقيون يأتون ليلعبوا فيه موسيقاهم، والمصورون ليعرضوا لوحاتهم، والشعراء ليسمعوا شعرهم ينشده ممثلون وممثلات، ولقد أصبحت إحداهن فيما بعد (بلانش ألبان) زوجة لديهاميل، ودامت المغامرة أربعة عشر شهرا، وبعد شتاء آخر قاس اضطررنا إلى أن نفترق وأن نترك الدير الذي لم نعد نستطيع أن نعيش فيه.

يجب أن يعزى الفشل إلى حداثتنا قبل كل شيء، لقد كان ينقصنا النظام، إذ كنا لا ننصت لغير هوانا، ثم أننا كنا نتابع غايات مختلفة، غايات لم نكن قد انتهينا كلنا إلى تحديدها على وجه دقيق.

بقيت لدي كلمات قليلة هي: أن الدير لم يكن قط مدرسة شعرية، لقد كان مجرد جماعة من الرجال يريدون بعملهم أن يعيشوا سويا في حياة حرة، وإذا كنا قد أظهرنا عندئذ عطفا نحو كل الشعراء والكتاب الذين لاحوا لنا موهوبين، فإن ذلك لم

يكن لغرض خفي في أن نجندهم تحت راية ما، لم يكن لنا مذهب مشترك، بل لقد كان يتفق لنا أحيانا أن يسخر بعضنا من بعض، بل أستطيع أن أقول مع فلدراك أو ديهاميل أنه قد لاح لنا أن فلانا من رفاقنا كان يتكلم ويكتب بلغة عربية عن لغتنا.

لقد أظهر النقاد كثيرا من القرابات الدقيقة بين فلدراك وروماں وديهاميل وبيني، ولن يخطر ببال أحد منا أن ينكرها، بل أنها بلا ريب قد امتدت إلى شعراء آخرين: جوف وشنفيير وديرتان.. إلخ، لكنه لم تكن هناك مدرسة أصلا، لقد كنا جميعا نبغض أشد البغض روح التجنيد.

وفي هذه الوثيقة الفريدة ما يحدثنا عن نشأة حركة أدبية كبيرة في الأدب المعاصر، كما أنها عظيمة الأهمية في فهمنا لأدب ديهاميل وجل رومان وفلدراك وأركوس وغيرهم من المعاصرين، والذي يهمنا منهم اليوم هو ديهاميل، وأما الأخرون فلا شأن لنا بهم إلا أن يكون ذلك لازما لفهم رجلنا.

والذي لا شك فيه أن حياة الدير كانت من الاضطراب بحيث لم يكن من الممكن أن تروق لرجل أخلاقي كديهاميل، ونحن بعد لا نعلم على وجه اليقين شيئاً عما كان جل رومان يقصد إليه من هذا المذهب الغامض (مذهب الكلية) وبخاصة في الحياة وفي العلاقة بين الرجل والمرأة، ولكننا نعلم أن ديهاميل، وإن يكن قد تزوج من إحدى الممثلات اللائي كن تأتين إلى الدير، إلا أنه قد نفر من هذه الحياة المشتركة نفورا قوياً.

بحيث يخيل إلينا أنه كان ينظر إلى هذه الشركة نظرة تغاير نظرة بعض من رفاقه الآخرين، والذي نحسه في أقوال هؤلاء الكتاب وأقوال النقاد أن جماعة الدير قد تشتت بعد مغامرة لم تترك في نفوسهم جميعا آثارا طيبة، بل أن منهم أمثال ديهاميل من لا يذكرها إلا في سخط، فهو يقول في مقال له عن جل رومان (وأنا أعترف عن نفسي أنني لا أسعى إلا إلى الوحدة، وأنني لم أجن من مذهب الكلية غير الحذر والأسف أو الاشمئزاز).

ولهذا رأينا مشكلة الصداقة يعني جماعة الدير، حتى لنرى رينيه أركوس في "الآخرون" يقص مأساة الصداقات التي تنسف، وجورج ديهاميل في كتابه "رجلان" يعرض نفس المحنة في قصة تمر من المرح إلى الاستجمام، ومن المرض إلى الصحة في غير ضجيج ولا تكلف، وفي أمانة على صدق تتابع الأحداث، وفيها يركز كل تجاربه منذ ظاهرة التبلور إلى انفصام العرى، مارا بتفاصيل الحياة التي تقع كل يوم من زيارات وولائم، إلى نزهات واعترافات، ولقد كان التصادم أولا كامنا، ثم انفجر فجأة، وانفجر في عنف.

وسيظل سلفان، وهو أكبر شخصية روائية خلقها ديهاميل في صداقته للوازيل شخصيته الروائية الأخرى مثلا حيا لتلك المغامرة الجميلة المؤلمة مغامرة الصداقة كما نجدها في "رجلان". ولقد تحدث جل رومان عن الصداقة في ديوانه "الرفاق" ثم عن أهيا في "الدكتاتور".

وكذلك أيضا فعل ديهاميل في ديوانه المسمى "وفقا لقانوني" الذي اتخذ له عنوانا آخر (الاسترقاق) فهو تاريخ صداقة منذ نشأتها إلى احتضارها، متنقلة بين الخيبة والعذوبة، بين الأمل والخيانة، حتى لقد قال في ذلك جان رتشارد بلوك سنة ١٩١٢:

(إن ديهاميل قد أضاف إلى قسمات الرجل الحديث قسمة، هي الظمأ إلى صداقة الرجولة التي رفعتها صعوبات حياتنا المادية اليوم إلى قمة لعلها لم تصل إليها قط فيما مضى)، والقصيدة الأولى من ديوانه المسمى "الرفاق" هي الأخرى عن الصداقة، وفيها يقول:

(وأنا أعلم أنه باستطاعتنا أن نلمح في ماء حدقة العين المقوس ذي المعجزات قدرا من السماء أكبر مما نلمح من بين المنازل).

ومما يدعو إلى العجب أن تكون أشد قصائد ديهاميل تأثيرا هي (عودة المسافر) وفيها يعلن العائد غبطته لخلاصه من الماضي.

(إنه النصر أن رغبتي تملك إذن القدرة على أن تملأني وأن تطرد إلى الخارج كل ما يوقف ويقعد).

وفي آخر (الاسترقاق) الذي ينتهي بالقطيعة، نرانا في ذلك الهواء القوي البارد هواء الوحدة، كما أن في الرفاق وداعا لرفيق السفر، يتركه الشاعر قائلا (سيكون كل منا وحدة).

والذي يبدو لنا هو أن التصادم كان بين جل رومان وجماعة من رفاقه، من بينهم جورج ديهاميل بدليل قول أركوس:

(بل أستطيع أن أقول مع فلدراك أو ديهاميل أنه، قد لاح لنا أن فلانا من رفقائنا أكان يتكلم ويكتب بلغة غريبة عن لغتنا، وهذا الفلان هو بلا ريب جل رومان).

وفي الحق أن بين جل رومان وديهاميل من الاختلاف في المزاج وفي النظرة إلى الحياة ما لم يكن معه بد من أن يتصادما، ورومان ذو طبيعة آمرة تجنح إلى السيطرة، وهو فيما يظهر أكثر استخفافا بمبادئ الأخلاق من رجل متزن، رجل استجمام داخلي كديهاميل، أحدهما يستطيع أن يعيش في الخارج، وأن يتبدد بين الغير في حياة كلية، والآخر أحرص ما يكون على الوحدة وحياة الروح التي لا تجد نفسها إلا إذا اعتزلت.

ديهاميل والشعر:

ابتدأ ديهاميل إذن حياته الأدبية بالشعر، فنشر (الدير) أول ديوان له سنة ١٩٠٧ وهو "أساطير ومعارك"، وفي سنة ١٩٠٩ نشر قصيدة (الرجل الذي على الرأس) وفي نفس العام أصدر بالاشتراك مع فلدراك (مذكرات عن فن الشعر)، ثم نشر ديوانين آخرين هما: (وفقا لقانوني) سنة ١٩١٠، و(الرفقاء) سنة ١٩١٢، وأخيراً مجموعة قصائده المسماة (مراثي) وهذه كتبها عند الحرب العظمى سنة ١٩٢٠.

لديهاميل مقال نشره سنة ١٩١٣ بعنوان (لوحة صغيرة لمدارس الشعر) وفيه يعلق على كلمة قالها مورياس، وهو على فراش الموت (إن المدارس لا وجود لها)، وهو يوصي في هذا المقال بأن ننسى التقاسيم، وألا نتعلق ألا بحقيقة واحدة هي وجود (رجال).

وقبل ذلك بسنتين أي سنة ١٩١١ كتب جل رومان يقول: (ليست لنا قواعد داخلية أو خارجية، ولا مبادئ نهائية مقررة، وإنما يتبع كل منا منهجه الخاص وفقا لطبيعة وحيه)، وكذلك قال أركوس: (إن جماعة الدير لم يكونوا مدرسة).

ومع ذلك فإن معظم نقاد الشعر المعاصر يدرجون ديهاميل وفلدراك ورومان وأركوس وشنفيير ودرتان وجوف تحت مذهب واحد في الشعر هو مذهب الكلية، الذي صاغه جل رومان كما قلنا.

وفي الحق أن شخصية رومان من القوة بحيث لم يكن من الممكن أن يفلت أصدقاؤه من تأثيره مهما كانوا مختلفين في نظرتهم إلى الفن وإلى الحياة، وبهذا أقر أركوس نفسه.

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن ندرك أثر تلك الكلية في العلاقات التي كانت بين هذه الجماعة من ناحية الحياة وتطور الصداقة بينهم، إلا أن يكون ذلك عن طريق الفروض التي لا تغني عن اليقين لنقص الوثائق، إلا أننا نستطيع بالنظر في دواوين في الجماعة أن نوضح مبادئها في الشعر، وبذلك نتمكن من الحكم على صدور هؤلاء الشعراء عنها في الواقع أو عدم صدورهم، وقد كان من سوء الطالع ان أتلفت العوامل الشخصية وحدة الحركة مما اضطر النقاد إلى أن يكشفوا عن أوجه شبه يحرص هؤلاء الشعراء أنفسهم على إنكارها.

لقد كتب رومان أكثر من كتاب وديوان ليعرف (الكلية)، والذي نلحظه عنده هو أنه قد حاول أن يزج في الشعر والأدب بأفكار كانت مدرسة علم الاجتماع في فرنسا قد طبلت لها ونفخت في الأبواق. ومردها فكرة الوعي الجماعي وفناء الفرد في

محيطه، وهذه لسوء الحظ فكرة مصطنعة بالغ فيها (دوركايم، ولفي بريل، وجوستاف لبون)، وحاولوا أن يجعلوا منها مذهبا فلسفيا، فعمموا بعض الأفكار المعروفة وبالغوا فيها ظانين أنهم قد أتوا بجديد، وفي الحق أنه لا جديد عندهم إلا قصر الفكرة وإفساد الحقائق، ومن المعروف أن رومان قد درس الفلسفة ونال فيها درجاته الجامعية، وكان هؤلاء الاجتماعيون من بين أساتذته.

يقول رومان في كتابه المسمى (مختصر التأليه): (إذا شككت في الكلية لم ينفذ بصرك خلال أخيك الإنسان)، ويقول (إذا رأيت في أحد الطرقات نفرا من الناس وقد أخذوا يجتمعون، سر اليهم وأضف جسمك إلى أجسامهم، اخترق في رفق كتلتهم واسأل الرجال: لماذا اجتمعوا؟. وحدثهم حديثا يثيرهم إلى الحياة، ضم موافقتك إليهم، وانفث في حنقهم أو رحمتهم، فكر بعقلهم جميعا)

وعنده أن المكان ليس ملكا لأحد، فالناس كافة يسكنون في أرض واحدة، يتلاقون فيها ويتداخلون ويتوافرون، والزمان أمر اعتبار تحكمي مرن، الخ من هذه السفسطة الجوفاء.

ورومان لا يقف عند هذا التفكير الفلسفي، بل يعدوه إلى الحياة، محاولا أن يشيع هذه الآراء بأسلوب خطابي عنيف منفر، فيقول: (لا بد لك من موافقة الناس أو خضوعهم).

ويبلغ به الإسراف أقصاه عندما يضيف: (ما أقوله الآن ربما لا يستمع إليه إلا عشرون شخصا ولا يفهمه إلا خمسة، ولكن ميلاد أقل الآلهة يكفي لمجد الأرض، والذي لا شك فيه أن مهاترة رومان هذه لم تصدر إلا عن وعي قبيح لقيمته الشخصية.

لقد كان لهذه النظرة الفاسدة آثارًا مدمرة في مجال الأخلاق، فصاحبها يقول: (لا تفر من المزاوجة، بل احذر أن تكون أحد اثنين على نحو دائم)، وعنده: (إن الأسرة والزواج أحجار عثرة تقوم في سبيل الكلية).

ومن سوء الطالع أن تكون هذه الفلسفة مدرسة شعرية لها حتى اليوم أنصارها من بين الشبان الفرنسيين أمثال جان بورتاي مؤلف (أفردويت)، وهنرى دالبري مؤلف (قصائد الحياة)، وأوديزيو مؤلف (رجال في الشمس)، ولكن الذي لا شك فيه أن نجاح هذا المذهب محدود، وأن شعر هؤلاء الشعراء كشعر رومان نفسه يغلب عليه التكلف والصياغة النثرية، فضلا عما في نغماته من مخالفة لطبائع البشر السليمة المألوفة.

وأما عن ديهاميل فقد أنكر هو نفسه أن يمت إلى هذا المذهب بأي سبب، والنقاد يكادون يجمعون على أن فلدراك وديهاميل ليسا كليين، وإذا كانا قد تأثرا بشيء من آراء رومان، فإن ذلك لم يكن إلا في الناحية السليمة من تلك الآراء، ففلدراك مثلا يدعو إلى حب الناس بعضهم لبعض، ويرى أن فقدان هذا الحب هو مصدر محننا، فالحرب إنكار للحب، وإنه ليأمل أن يأتي يوم تصبح فيه أوربا كرجل واحد تتجه جهوده وجهة واحدة بحيث يجمعها مصير واحد: حب شجرة)، وكذلك ديهاميل فشعره وإن يكن أغنية داخلية تسعى إلى أن تكون إنسانية شاملة، إلا أنه لا يتخذ إلى ذلك سبيل التركيب، سبيل الكلية، بل سلسلة من التحليلات، فوحدته ليست الجماعة بل الاثنين: الإنسان، والوسط الذي يعيش فيه، انظر إليه في إحدى مراثيه يقول:

(هذه السعادة التي تحتويها يداي المضمومتان في حرص، أهي إذن ما لا تستطيع أن تغتفرها لى أيها الاخ العجيب)، وفي موضع آخر: (ليست لي أية قوة اللهم إلا أن تكون الحب، وهذا القلب الذي يرتعد).

وفي إحدى قصائد المجموعة الأولى (أساطير ومعارك) سوناتا مهداة إلى امرأة، وفيها يقول الشاعر: (أنا الروح أنا الجمال الخالد، إذا كان الله موجوداً فهو ليس إلها إلا لأنه خلقني)، وهنا نلمس روحانية ديهاميل، وبعده عن استهتار الكلية وجنوحه إلى الاستجمام والسكون إلى الحياة الخليقة برجل مثله، تنطق كل مؤلفاته بصحة

الإحساس وصحة الخلق وصحة التفكير. وهكذا تنتهي بنا هذه المناقشة السريعة إلى أن الكلية لم تستطع أن تجمع مؤسسي الدير تحت مذهب واحد في الحياة أو في الأدب.

وإن جل رومان قد عجز عن أن يرغم إخوانه على الموافقة أو الخضوع، ومع ذلك فإن ثمة أمرا عاما يلوح أنهم قد اتفقوا عليه جميعا هو المذهب الشعري، أعني طريقة الصياغة كما عرضها جل رومان في عدة مقالات، فقد وضع ديهاميل نفسه بالاشتراك مع فلدراك (مذكرات عن فن الشعر) سنة ١٩٠٩ كما قلنا، وما هي في الواقع إلا تنمية وإيضاح لآراء رومان التي كانت فيما يظهر آراء الجماعة كلها.

ولقد أبت طبيعة رومان الآمرة المحبة للسيطرة إلا أن تدفعه إلى تنظيم سلسلة من الدروس عن هذا الفن في مدرسة مسرح الفييه كولمبيه، وأخيرا رأيناه يكتب مع أخلص تلاميذه شنفيير (موسوعة في العروض) سنة ١٩٢٣، وفيما يحاول ان يظهر أن مذهبهم الجديد في فن الشعر ليس إلا تفريعا من الفن الكلاسيكي الذي أخذ به القرن السابع عشر.

وخصائص هذا الفن الجديد تجتمع في أمرين: التحرر من القافية، والركون إلى الشعر المرسل، وهذا ما سبقهم إليه الرمزيون، ثم الانصراف عن الرمز إلى التعبير المباشر، وهذا رد فعل على الجيل السابق جيل الرمزيين، نريد شعرا مباشرا أى التعبير عما تستطيع النفس أن تدركه من الواقع تعبيرا لا طلاء فيه ولا تجميل، وعن هذا المذهب صدر كل جماعة الدير تقريبا.

ومع كل هذا فالنقاد مجمعون على أن الشعر لم يكن مصدر مجد ديهاميل ولا مجد رومان، وذلك لغلبة التفكير المجرد عليهما، وبخاصة عند رومان، ثم لفرط دقة ديهاميل وحذره من الإسراف حذرا قاسيا، وإنما كان مجد ديهاميل في القصة ومجد رومان في الكوميديا المسرحية..

من الدير إلى الحرب العظمى– ديهاميل والمسرح– بدؤه في النقد:

سبق أن أوردنا جملة من (الدفاع عن الأدب) يقول فيها المؤلف: (إن المسرح يحتاج إلى تجارب في الحياة)، وأن التأليف فيه يلي عادة مرحلة الشعر الذي هو في الغالب مرحلة الشباب، وهذا ما نجد فعلا في حياة ديهاميل الأدبية، فهو إذا كان قد نشر أول ديوان له سنة ١٩٠٧ فإنه لم يعرض على المسرح أولى رواياته إلا سنة ١٩١١ وهو في السابعة والعشرين من عمره، وهي "الضوء" التي مثلت بمسرح الأويون في ذلك العام مع أولى مسرحيات جل رومان، وقد أخرج الروايتين المخرج الكبير (أنتوان). ثم تتابعت مسرحياته كما تتابعت دواوين شعره التي سبق أن ذكرناها، وهكذا نراه يعرض سنة ١٩١٢ روايته الثالثة (نزال).

وفي نفس هذه المرحلة لم يمنعه قرض الشعر ولا التأليف المسرحي من الاشتغال بالنقد في المجالات، بل لقد نشر في سنة ١٩١٢ مجموعة من تلك الأبحاث بعنوان (أحاديث نقدية).

والناظر في تاريخه يرى أنه لم يقف قط في أي من هذه الاتجاهات، فله في التأليف المسرحي روايات أخرى منها (عمل المصارعين)، ثم (يوم الاعترافات)، وله في النقد (الشعر والشعراء)، كما أنه كتب كتابا عاما عن الشاعر كلوديل، وسنعود إلى هذا الكتاب فيما بعد، وأخيراً كتب (الدفاع عن الأدب) الذي هو في الحقيقة مزيج من النقد الأدبي ومن الدفاع عن القيم الثقافية.

وفي الحق أن مسرحياته لم تنل نجاحا كبيرا، وذلك لأنه لا يملك عبقرية الدراما، وهو بطبعه وثقافته أميل إلى الملاحظة والتحليل والدقة في التفكير منه إلى تصور المواقف وحبك المسرحيات، فهو بإجماع النقاد أصلح للقصة منه للرواية التمثيلية.

وأما نقده فمن النوع الذي لا يقارب في النفاذ وأصالة الفهم والحكم، ونحن في الحق نستطيع أن نهمل كتابه الأول (أحاديث نقدية) فهو عبارة عن سلسلة مقالات كتبها عن زملائه أيام حداثته الأولى، والزمن لم يثبت أنه كان على حق في تفاؤله بمستقبل جميع هؤلاء الزملاء، إذ الكثيرون منهم لم يثبتوا لطوفانه، كما أنه الناقد نفسه

كان لايزال محدود التجارب، والنقد لا بد له من نضج، وأما كتابه الثاني (الشعر والشعراء) فمجموعة مقالات رائعة نشرها بمجلة (المركيز دي فرانس) قبل أن يجمعها في كتاب، وهي لا تزال تعتبر بحق من خير ما كتب نقاد الشعر في العصر الحديث.

وخير من ذلك كله كتابه عن كلوديل (كلوديل الفيلسوف والشاعر والكاتب والمؤلف المسرحي) ومن العجيب أن يستطيع ديهاميل الذي فقد الإيمان بالدين الكاثوليكي منذ الخامسة عشرة من عمره أن يصل في فهم كلوديل الرجل الكاثوليكي الحار الإيمان إلى ما لم يصل إليه غيره، وتلك حقيقة لا يمكن فهمها إلا إذا نفذنا إلى روح ديهاميل نفسه لنرى في أعماقها ذلك التصوف الذي جعل منه تلميذا لكلوديل، رغم تنافرهما في الاعتقاد بالحقائق المنزلة، ولكن قبل الحديث عن هذا الكتاب دعنا ننظر أولا في أثر الحرب العظمى في نفسه وتوجيهها لملكاته، وإنماء ما بها من بذور.

ديهاميل والحرب العظمى: نضجه وتكوين فلسفته واتجاهه نحو القصة:

عندما نشبت الحرب سنة ١٩١٤ لم يكن ديهاميل مجهولا، ولا كان حديث عهد بالأدب، ومع ذلك فالذي لا شك فيه أن تلك المحنة كانت البوتقة التي انصهرت فيها عبقريته فأخذت شكلها النهائي.

ابتدأت الحرب وهو منصرف بكليته إلى الأدب، إذ لم يكن قد زاول بعد مهنة الطب، ولكنه لم يكد يدعوه داعي الوطن حتى لبى الدعاء، ولما كان في الثلاثين من عمره، وكان التجنيد قد ابتدأ بالأجيال الأصغر منه سنا فقد سارع إلى التطوع ليعمل في مستشفيات الجيش كطبيب.

وهنالك كانت تجاربه الحقيقية، فقد رأى من مناظر البؤس ما حمله على التفكير في الحياة، غاياتها ووسائلها، وهو يحدثنا أنه لم يكن يملك الذي فقده وهو في صدر شبابه، كما ذكرنا: (وبعد انقضاء السن التي نتعزى فيها بالكبرياء التي تضللنا، كثير ما أسفت، بل لقد أسفت كل يوم على ذلك الإيمان الذي نتعزى به عن كل شيء).

ومن ثم أخذ يتلمس له قيادة ذاتية في الحياة، وعن ذلك يحدثنا في (دفاعه عن

الأدب) ذاكرا كيف حاول أن يجد عند قادة الفكر إذ ذاك ما يستطيع أن يهتدي به، وكيف استقر به الرأي إلى أن خير قيادة هي ما نجده في أنفسنا بإمعان النظر فيها وتحليل دوافعها وتبين أهدافها.

ومما لا ريب فيه أن الكثير من رجال العلوم الذين ألفوا ملاحظة العالم المادي أو ملاحظة الغير، كثيرا ما يعملون نفس المملكة في أنفسهم فينتهي بهم الأمر إلى لون رائع من الإيمان أو التصوف، ولكم من عالم بالرياضيات أو الطبيعيات يحدثك عن ايمانه حديث المؤمنات من العجائز، ولكم منهم من يشع في نفسه ذلك التجرد وتلك الروحانية اللذين يكسبان نفوسهم جمال التصوف.

وديهاميل من هؤلاء الرجال، فقد انتهت آلام الجرحى والموتى التي ظل يشاهدهما كل يوم خلال أربع سنوات بأن صرفته إلى إطالة التفكير في حقائق الحياة، واستشعر الحاجة إلى الركون إلى مبادئ ثابتة، فخرج من الحرب بفلسفة عملية كساها طبعه الشعري بجماله.

في سنة ١٩١٧ نشر أول كتاب له عن الحرب بعنوان (حياة الشهداء) وهو لم ينشره أول مرة باسمه بل باسم مستعار هو دنيس تريفنان وفي سنة ١٩١٨ نشر كتابه الثاني عن الحرب أيضا (حضارة). نشره هذه المرة باسمه ونال من أجله جائزة جونكور الأدبية، وفي هذيين الكتابين مزيج من الوصف والقصص لما شاهد من ويلات، ونزعته فيها نزعة إنسانية خالصة، فهو يمقت الحرب ويعتقد أنها (ليست ممكنة إلا لأن كل إنسان لا يتألم إلا في جسده هو) وهذا الإحساس حق، فالذي لا ريب فيه أن من يدفع إلى الحرب هم عادة الشبان الذين لم تعضهم بعد بأنيابها السامة، وأما من سبق له أن خاض أهوالها فما نظنه يسارع إليها، وهؤلاء الأخيرون لا يستطيعون صد الأولين لأن الألم أمر لا يمكن أن ندرك وقعه باستماعنا للغير يقصون تجاربهم في هذه السبيل.

والأديب الصحفي وليم دريك يحدثنا في كتابه (الكتاب الأوربيون المعاصرون) عن اتهام ديهاميل في سنة ١٩١٨ بالنزوع إلى السلم والاتجاه نحو الروح الدولية، وهو

يقول أنه قد سرح من الجيش بسبب ذلك، وهذه تهمة لم أعثر في المراجع الفرنسة القليلة التي وجدتها في مكاتبنا العامة على خبر لها، ولكن في الواقع أن في قراءة كتابيه (حياة الشهداء) و(حضارة) ما يترك في النفس نفورا من الحرب لا شك فيه، ودعوة إلى المحبة بين الشعوب بحيث يبدو ممكنا أن يرى فيهما رجال الجيش أثناء الحرب ما قد يثبط من حماسة الجند، ومع ذلك فإننا نبادر- إنصافا للحق- فنقرر أن الكتابين وإن كانا يصدران عن نزعة إنسانية سامية، فهما بعيدان كل البعد عن روح التخاذل أو ضعف الوطنية، ولقد سار ديهاميل إلى الحرب متطوعا، ونحن نستطيع أن نبغض الحرب دون أن نحجم عن خوض غمارها عندما يدعونا الوطن إلى حمايته، وغفر الله لمن قال: (أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار).

وانتهت الحرب، وأخذ الناس ينسون آلامها شيئا فشيئا، ولكنهم لم ينسوا كتابي ديهاميل، وكل النقاد مجمعون على أن تلك الحرب قد أضافت إلى الأدب الفرنسي الخالد (حياة الشهداء) و(حضارة) كما أضافت (الصلبان الخشبية) لدورجليس فهذه الكتب الثلاثة فهي فيما أظن خير ما أنتج أدب الحرب، بل من خير ما أنتج الأدباء إطلاقا، وذلك لصدق نغماتها وصدورها عن الواقع القاسي الذي أثار القلوب وفتق الأذهان، في هذه الكتب صفحات ترتعد إحساسا، فيها ما يثير الرحمة، وفيها ما يحمل على احترام الألم وإعزاز التضحية.

وفي سنة ١٩١٩ أصدر كتابه الثالث عن الحرب (أحاديث وسط المعمعة)، وأخيراً وقد أصبح روائي الرحمة رأيناه يجمع آراءه في الحياة، بل فلسفته فيها في كتاب نبيل هو خلاصة تفكيره وصورة روحه، كتاب (تملك العالم).

ديهاميل وتملك العالم:

(إني على ثقة، إننا على ثقة.. من أن السعادة هي هدف حياتنا، ولنضف لفورنا أن أساس السعادة هو التملك، أو المعرفة التامة العميقة).

وعلى هذا النحو نرى الرجال الذين يتصورن السعادة في صورة رفيعة يهفون إلى المعرفة الكلية النهائية، معرفة الكمال المطلق الذي يسمونه الله، فالتعلق بالحياة الأخرى الخالدة أن هو ألا حاجة إلى التملك، حاجة نبيلة عنيفة.

ولا يقل عن هذا نبلا لهفة الآخرين إلى أن يعرفوا أنفسهم وأن يمتلكوها وأن تحصل لهم عن كيانهم الروحي والمادي فكرة دقيقة قاسية تمكنهم من نوع من السيطرة على أنفسهم. وإنه لمصير جميل أن نسعى إلى معرفة العالم الخارجي بفضل أسلحة وقضايا تستبعد نتائجه.

هذا عن أولئك الذين يمكن أن نسميهم المقسطين، وأما الآخرون فيريدون أن يملكوا منزلا، حقلا، قرطا لآذانهم، سيارة، وعندهم أن التملك ليس معرفه بل متعة، هي أولا بحتة شبه فريدة، ولكنهم مخدعون في حقيقة السعادة وحقيقة التملك مخدعون إلى حد الحرب والمذابح والتدمير.

ونحن إذا أردتم نملك العالم بأجمعه وفي هذا التملك سنجد خلاص أرواحنا، نحن نملك مثلا هذا الشخص المجهول الذي يسير في الطريق، نملك لون غابة الصنوبر التي تلوح كأشواك في الأفق الجنوبي، نملك فكرة بتهوفن وأحلام ليالينا، نملك صورة المكان وذكرياتنا ومستقبلنا ورائحة الأشياء ووزنها، نملك ألمنا في هذه اللحظة وآلافا من الأشياء الأخرى.

أن تكون روحي خالدة، واحسرتاه، هل عدت أستطيع أن أجد هذا الأمل الغوطي الساذج، إن أمثالي ممن لم يعودوا يستطيعون أن يجرءوا على التفكير في هذا الرضوان المستحيل دون أن يتناقضوا يعدون بالملايين ألا فليروا هنا أنفسهم.

وأما أن روحي كائنة فكرة تشهد بذلك بل تشهد به الحياة ذاتها، هذه الحياة المختلطة التي ترونها أمام أعينكم. عندما يتحدث المسيحيون عن نجاة الروح، إنما يقصدون إلى أنواع مختلفة من الضمانات والاحتياطات يتخذونها من أجل تلك الحياة المستقبلية التي ما فتئت أكثر تأكدا مغريات الدين كما أنها أقوى أسلحته.

ولكننا نستطيع أن نعطي هذا اللفظ معنى أكثر تواضعا وأمس بنا قربا: أولا ألا نجهل أرواحنا، أن نفكر في الروح، نفكر فيها وسط اضطراب يومنا الصاخب مرة على الأقل، وهذا في الحق بدء الخلاص. أن نفكر في الروح بمثابرة واحترام، وأن نزيدها غنى بلا انقطاع في هذا ستكون قداستنا.

بهذه النغمة الهامسة الأليفة يحدث ديهاميل قراءه فيكسب قلوبهم، انظر إليه كيف يبتدئ (بإني على ثقة) ثم يسرع فيستدرك (إننا على ثقة) وبذلك يشركنا جميعا في إحساسه حتى لكأنه يصدر عن نجوى نفوسنا التي اتحدت بنفسه، أين هذا من نغمات (رومان) المنفرة الآمرة الحمقاء، بل أين هذا من أدب الفكر البارد الذي لا يهز نفسا ولا يكسب قلبا؟.

ثم أي اتساع في الآفاق وأي تسامح وأي فهم لكل النزعات وكل النفوس، فهو يحيي الإيمان بالدين وإن يكن قد فقده، وهو يدعو إلى تملك النفس بالنظر فيها وتعمق فهمنها لها، وهو لا ينفر من العلم الذي يمكننا من السيطرة على الطبيعة، ولكنه يحتاط فيشترط (ألا تسترق العلم أسلابه) على نحو ما نرى نتائجه تستخدم اليوم في تدمير الإنسان لا في حمايته ونصره على عناصر المادة، وسوف نراه في هذا الكتاب (الدفاع عن الأدب) يفسر مأساة حياتنا بتقدم العلم وتخلف حالتنا الخلقية، فيقول: (إن مبادئنا الخلقية متأخرة لألف سنة عن تقدم علمائنا). ورحمته المشفقة تمتد فتشمل صغار النفوس الذين يرون السعادة ومعنى الحياة في تملك حقل أو قرط لآذانهم، إنهم مخدعون أو لا تحس أن الكاتب يود أن لو كسب حتى هؤلاء وسار بهم إلى فهم أصح وإحساس أنبل.

وأما ذوو النفوس النبيلة الذين لا يملكون من مادة الحياة شيئا، فهو إلى جوارهم، يده في أيديهم، وهو يبصرهم بكل ما يملكون من جمال الطبيعة وآيات الفكر والفن، بل أنهم يملكون أحلامهم وآمالهم، وتلك نزعة صوفية قد يسخر منها الحمقى، ولكنها نزعة إنسانية صادقة، فيها ما يجمل الحياة ويسمو بمعناه، وهي

مادامت موجودة ومادام ذووها ينعمون بها فماذا يضيرهم أن يسخر منها من يشاء ممن تنحط نفوسهم عن السمو إلى مستواها.

ثم أي أيمان وأي نبل يشع من حسرته لفقد الإيمان في خلود الروح، بل فقد إيمانه بذلك الدين الذي يسميه في سخرية خفيفة بالغوطي، وتلك المأساة ترجع فيما يقص الكاتب إلى كرهه لرجال الدين وجشعهم وشعوذتهم، فقد رأى وهو في الخامسة عشرة من عمره قسيسا يبيع خبز التناول بأثمان باهظة في حرص مادي ذميم. فنفر منهم بل نفر من الدين كله لأنه لم يستطع أن يفهم الاتجار بقوت الارواح، ومنذ ذلك الحين لم يستطع أن يعود إلى الكاثوليكية، وهو يقر بذلك في نبل، وقد أنفق حياته كلها في تعويض ما فقد، وها نحن في هذه الصفحة نراه يدعو إلى الإيمان بوجود الروح والاكتفاء بذلك دون التلهف على الاستيثاق من خلودها وهو يرى (قداستنا في أن نفكر في الروح بمثابرة واحترام وأن نزيدها غنى بلا انقطاع).

***

ديهاميل وكلوديل:

والآن نستطيع أن نفسهم كيف استطاع ديهاميل أن ينفذ إلى روح الشاعر المؤمن كلوديل فيضع عنه كتابا خالدا. ولد كلوديل سنة ١٨٦٨ واشتغل طول حياته بالسلك السياسي، فمثل فرنسا في الكثير من بلاد الشرق والغرب من أمريكا إلى أوروبا إلى اليابان، ولقد كان للأزمة الدينية التي انتابته وهو في الثامنة عشرة من عمره أي سنة ١٨٨٦ تأثير نهائي على حياته، فقد خرج منها مؤمنا إيمانا ثابتا شاملا، فجاء أدبه أغنية مستمرة لهذا الإيمان، بل لقد اخترع لشعره صيغة خاصة سماها الآية، وهي وحدة قصيدة. إذ أنه لم يكتب في أوزان الشعر الفرنسى التقليدية إلا القليل الذي لا يذكر، والآية هي وحدته الموسيقية، وهي تتكون من١٥ أو ١٨ أو ٢٢ مقطعا، بينما بيت الشعر الفرنسي التقليدي لا يعدو قط ١٢ مقطعا، وهو يستبدل التجنيس بالقوافي، ويعتمد على توافق جرس الحروف أكثر من اعتماده على تفاعيل الأوزان،

ولقد وضع في تفاصيل مذهبه الشعري كتابا مهما (فن الشعر) الطبعة السابعة سنة ١٩١٣ رصعه نثراً.

والشعر عنده وعاء لمذهب ميتافيزيقي كلي عن الوجود حتى لنراه يبدأ كتابه هذا بقوله: (ليست هناك ضرورة في أي شيء غير ضرورة وجوده، مناقشة الأزلية، حمق الحركة الدائمة التي ليست لها غاية خارجة عنها، الخلاصة ليس للموضع خطة في ذاته)، وهكذا يستمر في تفكيره الفلسفي وفي شعره ، فهو من معدن شعر فليري، وإن يكن أقرب منه إلى الإحساس المباشر وأكثر اعتمادا على الرمزية.

وهو في معناه أدنى إلى فلسفة القرون الوسطى والتصوف المسيحي منه إلى أفلاطون أو برجسون، ونحن نقرأ شعره فندهش لاجتماع التكلف والقوة في فنه، ولصدوره عن الواقعية والرمزية والتصوف طورا بعد طور، وأحيانا في الصفحة الواحدة، وفي هذا يملأ أقواله بالغموض ويدعو القارئ إلى النفور ومن ثم لم يصب في رأي النقاد ما يستحق من نجاح.

في سنة ١٩١١– ١٢ جمعت مسرحيات في أربعة مجلدات، وهي أصلح للقراءة منها للتمثيل، ولذلك لم يمثل إلا بعضها وكان نجاحها محدودا، ولعل خيرها المجموعة الثاثية المكونة من (رأس من ذهب) ١٨٩٠، (المدينة) ١٨٩٢، (الفتاة فيولين) ١٨٩٢ وهو في هذه الروايات الثلاث وفي غيرها يستقي عنصر الدراما من صميم المسيحية، تلك الديانة التي تدعو إلى مجالدة الجسم والتجرد من الحياة والعدول عنها والنظر إلى المتع في حذر ونفور، وعند كلوديل (إن المرء لا يستطيع أن يجد حريته إلا في رق الإيمان) وهو يدعونا إلى ألا نقول مع سقراط (اعرف نفسك)، بل نقول مع المسيحية: (انس نفسك كي لا تعوق موسيقاها، انسها كي تتذوق العالم، قف من مجموع المخلوقات موقف الناقد من شعر الشاعر).

ولكلوديل غير المسرح عدة مجموعات من الشعر الغنائي منها (الخمس قصائد الكبيرة) ١٩١١، (قصيدتا الصيف، الأغنية الثلاثية الأصوات) ١٩١٤، كما أن له

عدة كتب عن الشرق الأقصى وخصوصا اليابان التي أقام فيها زمنا طويلا، نذكر منها (معرفة الشرق)، (نظرة في الروح اليابانية) وأخيراً (خلال المدينة وهي تحترق).

والناظر في أدب كلوديل رغم صدوره عن مذهب ميتافيزيقي بعينه لن يعدم أن يقع أحيانا، وخصوصا في بعض مسرحياته على مشاعر انسانية تمسنا جميعا، وذلك لأنه قد وفق غير مرة إلى أن يمر بشخصياته الروائية خلال حالات بؤسنا المعهودة قبل أن يصل بها إلى ذلك السكون والتجرد الإلهي الذي تدعو إلى المسيحية، وهكذا نراها تمر بالحب والرحمة والغيرة والرقة والبغض، بل واليأس في بعض اللحظات.

وفي الحق أن ديهاميل لم يفهم كلوديل بمجهود إرادي ولا لنزعة انسانية تدعوه إلى محاولة فهم كل نفس، بل لأن بين الرجلين، رغم الظواهر تشابها حقيقيا في الروح، فديهاميل رغم فقده الإيمان بالكاثوليكية روحاني عميق.

وهو إذا كان يدعونا إلى فهم نفوسنا لنملكها ونسيطر عليها، بينما كلوديل يوصينا بنسيان تلك النفس حتى لا نعوق موسيقاها وحتى نستطيع أن نتذوق العالم، فكلا الرجلين لابد منته بنا إلى التحرر من عبودية المادة والسمو الى تأمل المتع الرفيعة التي لا يتلفها نشاز أجسامنا.

ونحن بعد لا نستطيع أن نحصر الكتاب والشعراء الذين تأثر بهم ديهاميل، وفي كتابه هذا (الدفاع عن الأدب) ما يدل على اتساع قراءاته اتساعا لا حد له، ولكن النقاد يكادون يجمعون على أنه قد تأثر بكلوديل، وثمة في الصياغة الشعرية أمر لا شك فيه يجمع بين الرجلين وهو التحلل من الموسيقى الظاهرة لالتماس الموسيقى العميقة إلى تماشي الفكرة وتجري في أنحائها كما تجري الروح في الجسد، كلاهما أنصار الترسل في الشعر.

ونحن لا ندهش من أن نرى ديهاميل يجيد النقد حتى يصبح من رجاله مع أنه أديب منشيء قبل كل شيء، فتلك ظاهرة عامة، وكلنا يذكر أن كبار الكتاب كانوا خير النقاد، فشكسبير في هملت وجيته في (الشعر والحقيقة) وموليير في (نقد مدرسة

النساء) وكورنيل في (مقالاته السبع عن التراجيديا) وبودليير في (الفن الرومانتيكي) وشيلي في (الدفاع عن الشعر) وورد زورث في (مقدمته) وفيلري في (متفرقاته) وأندريه جيد في كتابه عن (تورجنيف) وفي مقالاته المتعددة في النقد. بل وفكتور هيجو في (مقدمة كرومول)، وغيرهم كثيرون قد أثبتوا أنهم أنفذ النقاد بصيرة وأصدقهم خبرة وأفهمهم لحقيقة الشعر أو الأدب عامة، بل الذي يمكن أن يدعو إلى الدهشة هو أن يستطيع أحد أن ينشئ أدبا قويا خالدا دون أن يكون قادرا على النقد عالما بأصول الأدب، فالأدب ليس طبعا غفلا بل طبعا مستتنيرا مثقفا مسددا، بصيرا بمناهج الفن ووسائله.

ديهاميل والنماذج البشرية:

وبعد الحرب العظمى تطورت عبقرية ديهاميل تطورا كان فيه مجده الحقيقي، فقد انصرف عن الملاحظة الإنسانية العامة إلى دراسة الحالات الخاصة، فاستطاع أن يخلق في رواياته نماذج بشرية خالدة، هو يحلل تلك الشخصيات ببصيرة حادة، ويختارها إما من بين (المهملين) سنة **١٩٢٣** حيث يعرض سلسلة من ثماني حالات لشخصيات تتحطم تحت ضغط الهيئة الاجتماعية، أو من بين أولئك الذين تفترسهم غرائزهم الفطرية فيعجزون عن أن يسيطروا على اضطراب نفوسهم. وقد تملكتهم نزعات قلقة متناقضة تسوقهم حركات نفسية فيسيرون دون أن يفهموا شيئا، وهو يصورهم في عطف ورحمة مؤثرين، ويرى في تخطبهم بؤسا يحنو عليه، وموضع الإعجاز في منحاه النفسي هو أنه لا يظهر هذا العطف في شعور دافق واضح مبتذل، بل بسخرية خفيفة، سخرية المشفق عن إحساس قلبي، وأخلد النموذج لذلك هو سلفان الذي أصبح اسمه على كل الألسن حتى لكأنه لفظ من ألفاظ اللغة الفرنسية.

سلفان موظف كتابي صغير تتبع المؤلف خطواته في خمس روايات (اعترافات نصف الليل، رجلان، يوميات سلفان، نادى الليويين، كما هو) ومند الرواية الأولى التي يقص فيها سلفان نفسه مغامراته البسيطة الساذجة نرى الشخصية التي تخضع

نفسيتها لنوع دقيق من الجبر يتكون من عدة عناصر غامضة نستطيع أن نحس بها دون أن نصل إلى تحديدها، ولديها مذهب خاص نلمحه في سلفان.

فهو يرى ويحس أن الشخصية لا تكمل عندما تضاف إليها قسمات أكثر وضوحا من القسمات الأخرى، بل عندما تأتي بعمل لم يكن متوقعا أن تدفعها طبيعتها إليه، وكل من قرأ (اعترافات سلفان) لا يمكن أن ينسى مغامرة طبيعتها إليه، وكل من قرأ (اعترافات سلفان) لا يمكن أن ينسى مغامرة عجيبة وقعت له لا نزال إلى اليوم نتحسس سرها، ذلك أنه عندما كان ذات يوم يعرض الأوراق على رئيسه المشرق المنبعج الراضي عن نفسه وعن الحياة، وقد وقف خلفه، إذ استقر بصره على أذن ذلك الرئيس وأطال التحديق فيها، فلاحت له حمراء لامعة وخصوصا شحمتها. وإذ به يستشعر برغبة لا تُدفع في أن يمس تلك الشحمة بأصابعه، وما أن أحس بتلك الرغبة حتى اضطرب وأخذ يضع الخطط لتنفيذها والرجل مستغرق في نظر الأوراق، وجمع سلفان قواه ويعود فيحاول ويحاول إلى أن ينجح، وإذا برئيسه المحترم ينهض منزعجا قابضا على مسدسه، وتنتهي تلك المأساة المضحكة بطرد المسكين سلفان وأمه وعائلته التي يعولها بمرتبه المتواضع.. تصيح صورهم برأسه عندما يرونه عائدا إلى المنزل مفصولا لأمر تافه كهذا، وتضيق به الحياة ويعضه البؤس.

وتأتي (رجلان) فتقص تاريخ صداقة سلفان للوازيل، وننتهي إلى يومياته فنرى السخرية من إيمان السذج والدفاع عن ذلك الإيمان، نرى مزيجا عجيبا من حماقة البشر وإشراقهم، وفي الحق أن في شخصية سلفان قداسة مؤثرة قداسة حمقاء ولكنها أخاذة لصدورها عن نفس بدائية، ولكم يروعنا أن نرى أحداث الحياة اليومية التافهة تلون الروح المسكينة بما يشبه الفيض الإلهي.

لمس أذن المسيو سيرو رئيس سلفان مثل يستحق أن ننظر فيه عن قرب أهو أمر معقول، أهو حقا يدل على شيء في أخلاق سلفان، والواقع أن هذا الموظف الكتابي رجل ساذج خجول محدود الأفق، وهو يعيش باستمرار في خوف وحذر من

هذا الرئيس الذي يلوح له إنسانا من نوع غير نوعه، وقد طال عمل هذا الإحساس بنفسه حينا أضناه على غير وعي منه، فكيف يستطيع المؤلف أن يدلنا على تلك الحالة النفسية المؤلمة، هل (يضيف إلى سلفان قسمات أكثر وضوحا من الأخرى) فيصف مظاهر هذه الحالة، أو يقص تصرفات تؤيدها وتنطق بها، أم يحمله كما فعل على أن يأتي عملا جريئا لم نكن نتوقعه من طبع كطبعه وحالة نفسية كحالته، وهذا الاتجاه الأخير هو الذي اختاره ديهاميل. فسلفان يقول أن نفسه حدثته بأن المسيو سيرو هذا له أولاد وله عشيقة هي فتاة كانت موظفة عنده، ولا شك أن ابن سيرو أو عشيقته قد مسا هذه الأذن: الطفل عندما يطوق أباه، ومدموزيل ديبر عندما تقبل سيرو في أذنه رغم ما في تلك الأذن من شعر ونقط كبقع النبيذ.

وهو يضيف مخاطبا نفسه أن هذه الأذن من لحم بشري كلحم جميع الناس، وهي كأذني أنا رغم كل شيء، ثم أنها شيء موجود غير محظور، واستشعر رجلنا الحاجة إلى أن يستوثق من كل ذلك، بل قل فاضت نفسه التي طال كبتها وألمها وخوفها، فامتدت يده إلى شحمة أذن سيرو، وكأن في هذه الحركة التافهة خلاصا من توتر نفسه وانطوائها.

ونحن نقرأ سلسلة سلفان فإذا بها كلها على هذا النحو من السذاجة المؤثرة هي أروع تطبيق (لروائية المألوف) التي يتحدث عنها الكاتب في (الدفاع عن الأدب) والمألوف عند ديهاميل ليس الواقع الفوتوغرافي الواقع الظاهر، بل ما خلفه: الواقع الحقيقي الواقع النفسي، وعنده أن الكاتب الواقعي العميق ليس هو من يسجل ما يرى، بل من ينفذ ببصره إلى أعماق النفوس، فيظهر دوافعها الخفية ويوضح ما تصدر عنه شخصياته من أفكار أو إحساسات لا تعرف تلك الشخصيات ذاتها أنها تفكر فيها أو تحس بها، هو من يعين الغير على أن يعرفوا نفوسهم، وفي مثل سلفان ما يدلنا بوضوح على أن ديهاميل أبعد بصرا من أن يقف عند رصد ما يحدث فعلا في الحياة.

فلمس أذن سيرو قد يكون أمرا بعيد الوقوع، ولكن هذا لا يخيف الكاتب، فما يريده هو ان يكشف عن نفس شخصيته الروائية، وهو لا يرى سبيل ذلك في أن يجمع تصرفاته التي حدثت فعلا، بل يتصور تصرفات أخرى يمكن أن تصدر عنها ويكون بينها وبين تلك النفسية روابط داخلية تحملنا على الاعتقاد بأنها قد تكون ممكنة الوقوع، وأن أصحابها لا يمكن أن يستنكروها وهو ينطقهم بأقوال قد لا يقولونها فعلا، ولكنهم إذا سمعوها أقروها كصورة لنفوسهم ونجوى لحديثها الغامض الدفين، وهذه هي الواقعية الإنسانية العميقة.

ولديهاميل غير ذلك مجموعة عن أسرة الباسكييه، وهي أحدث ما كتب، والمجموعة تتكون من عدة روايات يقص في كل منها بعض أحداث الأسرة، ويتخذ من كل فرد محورا لإحداها، ولعل أروع شخصية في تلك السلسلة هي شخصية سيسيل في الحلقة الأخيرة (سيسيل بيننا) وسيسيل هذه فتاة قدسية النزعة، موسيقية بارعة ذات قلب رحيم، وفي تصويرها نستطيع أن نلمح القمة التي وصل إليها الكاتب في روحانيته وعمق إحساسه، بل وتصوفه.

والذي يدهش القارئ في هذا الأديب الكبير هو قدرته على الجمع بين المثالية والواقعية: بين الإحساس المرهف والمحبة الشاملة، ثم السخرية الرقيقة التي تخفي هذا الإحساس وتلك المحبة، فتتأثر وأنت تبتسم، وسوف يرى القارئ الأهمية الكبيرة التي يعلقها ديهاميل الناقد (في دفاعه عن الأدب) على (الهيومر) روح الدعابة، حيث يرى في اجتماعها إلى النزعة الشعرية أمارة العبقرية عند الكتتاب وسر تفوقهم، وهو يعتقد أن الكاتب الذي يحرم من كليهما لا يمكن أن يكون كاتبا ممتازاً.

وثمة روايات أخرى غير سلفان والباسكييه تجمع تلك الصفات، وأجملها فيما أحسب (خطابات إلى باتاجون) وهي عبارة عن ستة خطابات يرسلها الكاتب إلى صديق خرافي في من بلاد الخيال، وفيها وصف دقيق للحياة في باريس، وصفه فيه التسامح وفيه الدقة، فيه الانفعال وفيه السخرية فيه الشعر وفيه التحليل، أنموذج

رائع للأدب الإنساني الذي يحرك النفس ويرنح الخيال.

***

ديهاميل ووصف الرحلات:

لا شك أن القارئ عندما يقرأ "الدفاع عن الأدب" يدرك أن ثقافة ديهاميل لم تقف عند القراءة، بل عدتها إلى الرحلات وأنه قد أفاد الكثير من ملاحظاته أثناء سفره، ولقد حرص الكاتب على أن يقص نتائج تجاربه في هذا السبيل، فكتب (رحلة إلى موسكو) وفيها يصور لوحة دقيقة شاملة مشروحة لروسيا كما رآها رجل أخلاقي متأمل كديهاميل، ثم (الأمير جعفر) وفيه يصف تونس وأخلاق التونسيين أثناء سرده لبعض أساطيرهم في عطف وفهم لا شك فيهما، وأخيرا (مناظر من العالم المستقبل) وهو كتاب عن رحلة له في الولايات المتحدة، وهو في كل تلك الكتب يمزج بين القصص والحوار في أسلوب دقيق حي يغري بالقراءة.

ويطول بنا القول لو حاولنا أن نتحدث عن كل ما كتب، فنكتفي بأن نشير في النهاية إلى كتاب جميل كتبه عن أولاده ومسراته العائلية بعنوان (المسرات والألعاب) سنة ١٩٢٢، فهو كتاب فريد في بساطته ورقته.

***

ديهاميل و(الدفاع عن الأدب)

وأخيرا نصل إلى الكتاب الذي ترجمناه له، وأهم ما نحرص على إيضاحه فيه هو توزيع أجزائه، وكيفية الربط بينها ليخرج القارئ منه بفهم تام لما يريد الكاتب أن يقول، والذي لا شك فيه أن هذا الكتاب يتناول ثلاث مسائل كبيرة جديرة بأن توقفنا طويلا نمعن فيها النظر ونفحص الحلول التي يقترحها لكل منها:

مشكلة الثقافة: أما أولاها فهي مشكلة الثقافة التي يجب أن يحرص عليها البشر في تربية أجيالهم المتلاحقة، ولكي يلم القارئ بكل آراء الكاتب في هذا السبيل لا بد

له من أن يجمع في ذهنه بين الجزء الأول من الكتاب (الكتاب ووسائل حياتنا) وبين الصفحات الأخيرة من الجزء الرابع التي عنوانها (ملاحظات في الإنسانيات الحديثة) فعندئذ يستطيع بعد قراءة آراء المؤلف أن يناقش لنفسه وبنفسه تلك المشكلة الخطيرة.

ومحور الموضوع هو: هل يستطيع تيار الحضارة الآلية الحديث أن يحل محل التربية التقليدية التي ساعدت على ظهور العبقريات التي أكسبت حياتنا منذ البعث العلمي إلى اليوم ذلك النبل وتلك القوة اللذين ننعم بهما الآن، ومن الثابت أن أوربا مدينة بعبقرية رجالها إلى الثقافات القديمة: لاتينية ويونانية، كما يقول المؤلف في الجزء الأخير من كتابه؛ ففيها رياضة عقلية هي الهدف الأول لكل تربية صحيحة، كما أنها عميقة الفهم لكل ما يمس الإنسان وفهمنا لذلك الإنسان الذي هو أنا وأنت والجميع، لا يقل أهمية ولا نبلا عن فهم المادة وقوانينها، ولقد فطنت فرنسا بل فطنت أوربا كلها إلى قيمة تلك الثقافات فتلقتها كميراث ثمين، وانتهى بها الأمر إلى التخلي عن فتات حضارة الأجناس التي كانت تقطن كل تلك البلاد قبل أن ينقل إليها الرومان بغزوهم لها الحضارة اليونانية اللاتينية، فحضارات الكلتيين والغاليين ومن إليهم قد فنيت أمام حضارة أرسطو وشيشرون.. وديهاميل لا يندم على ما كان لأنه يفضل ما انتهت إليه بلاده من تراث روحي على ما كان يمكن أن تصل إليه لو أن غزو الرومان لم يحدث.

والآن نرى أن ثقافتنا الحديثة قد أخذت تتجه وجهة علمية؛ فالإنسانيات في تقهقر ودراسة العلوم الطبيعية في تقدم، وفي هذا ما يهول الكاتب، فهو يعلن أن الرياضة العقلية التي تحققها دراسة العلوم لم يثبت بعد انها تعادل تلك التي وجدها بسكال وديكارت وسرفنتيس في تحليل الجمل اليونانية واللاتينية، وهو بعد وجل إنساني روحي لا يعدل بمعرفتنا للإنسان وفهمنا له شيئا والعلوم تساعدنا على فهم المادة واستنباط قوانينها، ولكنها قليلة العناية بالإنسان، ثم أنها تسعى إلى أغراض مادية، بل كثيراً ما (تسترقها أسلابها) فتصبح أداة للتدمير بدلا من تجميل حياتنا والسمو بها إلى السعادة التي هي غاية الحياة ويجب أن تكون غايتها.

وتتصل بنفس هذه المشكلة، مشكلة طرق نشر الثقافة، فهو يلاحظ أن القراءة في تقهقر، وأن الكتاب قد أخذت منزلته في النفوس تضعف، وذلك لأن وسائل الحضارة المادية الأخرى قد أخذت تحل محله، فالراديو يزاحم الكتاب، والناس المرهقون بالجهد العصبي الذي تتطلبه حركة الحضارة الآلية يركنون إلى أقل الجهود، فيكتفون بأن يسمعوا دون أن يتعبوا أنفسهم في القراءة، وتأتي السينما فتعزز نفس الكسل، والمؤلف يرى في هذا محنة خطرة على مستقبل الإنسان وذلك لأمرين:

أولهما لأن كل ثقافة حقيقة هي (اختيار) (جهد) وأنت لا تختار ما تسمعه في الراديو ولا ما تراه بالسينما، كما أنك لا تستطيع أن تثقف ثقافة حقيقية خصبة عميقة ما لم تبذل جهدا فتصبر على قراءة الكتاب العميقين، وهؤلاء عادة لا تسلم الصفحة التي يكتبونها كل ما بها عند القراءة الأولى، فلا بد لك من معاودة قراءتها والنظر فيها بإمعان، وأنت عند كل قراءة جديدة تكتشف معان دفينة، وتستوحي آراءً جديدة تخصب نفسك وتفتح أمامك آفاقا لم تعهدها، وكل هذا غير ممكن باستماعك إلى الراديو الذي يتدفق كالسيل، حاملا إليك أخلاطا من كل شيء أو بمشاهدة السينما.

ثانيهما أن هذه الوسائل الآلية العامة ستنتهي بأن تقتل الفردية، فكل الناس يسمعون نفس الأحاديث بالراديو، ويشاهدون نفس الروايات بالسينما، والكاتب يرى أن هذه الحالة ستنتهي بهم إلى أن يصبحوا جميعا نسخا متشابهة لا أصالة لأي منها، فتصير عقليتهم عقلية القطيع، وهنا نلمس صراعا سياسيا عنيفا في أقوال المؤلف، فالاشتراكيون اليوم هم أحرص الناس على تعميم الراديو والسينما وإدخالها في المدارس، وذلك لكي يستخدموها كوسائل لنشر آرائهم وتلوين نفوس الشبان باللون الذي يريدونه.

وهذا ديهاميل، لا لأنه يخشى من استنارة الجماهير استنارة قد تدعوهم إلى التمرد، ولا لأنه يضن بانتشار المعرفة بين جميع طبقات الشعب، بل لأنه يود أن

يسمو بالثقافة عن الانحطاط إلى مستوى الدعاية لأي مذهب كان، فهو يريدها حرة، يريدها غاية مكتفية بذاتها وفي تكوينها لإدراك الإنسان من النبل ما يجب أن تكتفي به، وعندما يتكون إدراك الأفراد سيستطيعون أن يتحكموا كما يريدون في مصائرهم ومصائر وطنهم، فالثقافة عنده والأدب أشياء مقدسة لا يجوز أن نجرها في أوحال حياتنا الفانية العابرة.

مشكلة الخلق الفني: وثاني المسائل الكبرى التي يعالجها هي مشكلة الخلق الفني، وذلك في الجزء الثاني كله (الأساتذة والمتنبئون) ولقد عالج الكاتب في هذا الباب مسائل كثيرة يجدر بنا أن نطيل التفكير فيها، لأنه يتحدث عنها عن تجربة وفي إخلاص تام. فثمة العلاقة التي يجب أن تقوم بين الأجيال المتعاقبة في مجال الأدب والتفكير وحدود الواجبات المعلقة بضمائر كل جيل سابق نحو من يليهم ليستمر الانتاج ويتقدم.

وثمة وظيفة للأديب في الهيئة الاجتماعية وفكرته عن مهمته والنظرة التي يجب أن تكون له عن نفسه، وفي هذا يصدر الكاتب عن آراء أخلاقية نبيلة يجب أن تكون له عن نفسه، وفي هذا يصدر الكاتب عن آراء أخلاقية نبيلة يجب أن تردنا من تلك النزعة المسرفة التي كان ينزعها الرومانتيكيون والرمزيون، ولا يزال يأخذ بها نفر من رجال الفن عندما يرون في أنفسهم (أطفالا مدللين)، أو يحلو لهم أن يتظاهروا بالحياة على هامش الهيئة الاجتماعية التي يتبجحون باحتقارهم لها وعدم خضوعهم لمواضعاتها.

وهناك ما هو خير من كل ذلك لتعلقه بصميم الإنتاج العقلي والأدبي، وهو عدم الركون إلى غرور الشباب الذي يخيل للبعض أن الأمر أمر عبقرية تكفي من غير أي جهد ولا تحتاج إلى أي مران، فهؤلاء كما يقول الكاتب لا يملكون عادة عبقريات بل أشباح عبقريات أو إحساسا شخصيا بها، وديهاميل رغم ذلك من الرفق بحيث لا يقسو على هؤلاء الشبان بل يأخذهم باللين ويود أن يهديهم، ومن يدرينا لعل منهم

من يصدق إحساسه ويكون في قول كاتب كبير كهذا ما يدفعه إلى استغلال مواهبه بالعمل المنتج والجهد المتصل.

وكم في تلك الفصول من حقائق انظر إليها، يدعو الكتاب إلى أن يحذروا النجاح السهل، وأن يبعدوا عن السلطة الزمنية التي لا بد مفسدة أحكام الناس فيهم ومضللة لهم، بسبب ما بين أيديهم من نفوذ يصرف النفوس الضعيفة، وما أكثرها عن أن تنقدهم نقدا نزيها صادقا يبصرهم بمواقع قوتهم وضعفهم.

ثم تأمل في آرائه عن (وظيفة الكاتب الاجتماعية) وخدمته للمثل الأخلاقية، وبأي فهم عالج تلك المشكلة، إن الأدب لم تعد غايته الوعظ بل المعرفة، وإن تكن تلك المعرفة ستنتهي في النهاية إلى خدمة الأخلاق ورفع مستواها، وأخيرا تأمل الدور الذي لا يريد من زملائه أن يلعبوه في السياسة ليظلوا أحرارا طلقاء من كل الملابسات.

ونحن لا نستطيع أن نقف عند كل الموضوعات التي عالجتها هذه الفصول الرائعة من كتابه، وكل ما نود ألا يفوت القارئ هو طريقة عرض المؤلف للمشاكل وجمعه بين القصص والحوار، ثم النظر في صحة آرائه وصدورها عن إحساس مباشر قريب في غير تكلف ولا سفسطة، وكم له من لمحات أدل وأنفذ من موسوعات منطقية ينسجها غيره من أقيسة واهية باطلة، وديهاميل يلج النفس على أطراف أصابعه يلجها في رفق فيغزوها من حيث لا تدري.

نقد الأدب: والمشكلة الثالثة مشكلة أدبية فنية تجدها في الجزء الثالث (ملاحظات عن فن القصة) ثم في الباب الأول من الجزء الرابع (كنيسة فرنسا الأدبية) فهذان الجزءان يكمل أحدهما الآخر، وذلك لأنه في علاجه لفن القصة يخرج منه بأنه غاية القصة الجيدة هي فهم النفوس وتصوير نماذج بشرية، وعنده أن الأدب الفرنسي قد توفر خلال تاريخه الطويل على رسم (صورة للإنسان) وأن ما خلد منه هو المساهمات التي أضافت إلى تلك الصورة قسمة من القسمات.

وهكذا نخرج من هذا الباب بحقيقة يجب أن يضعها أدباؤنا نصب أعينهم وهي أن الأدب ليس صناعة لفظية، ولا التماسا لغريب المعاني وإنما هو نقد للحياة، ومراجعة للواقع، وفهم له هو تصوير للمألوف وجمع لعناصره في صورة يمكن أن تعيش بفضل صياغتها وصدقها، هو خلق نماذج بشرية نجد فيها أنفسنا.

وأكبر ما يمتاز به الكتاب الكبار أمثال ديهاميل هو تواضعهم وعدم إسرافهم، وخضوعهم للموضوع الذي يعالجونه، ثم قربهم المستمر من القارئ وهمسهم في أذنه، لا الطنطنة أو الإغراب أو إظهار المهارة في توليد أفكار لا يؤمن بها أحد، ولا يمكن أن تفيد أحدا بشيء، وإنما ندهش لها لحظة ثم ننساها لأنها لا تلاقي حقيقة في الواقع ولا حقيقة النفس، عند ديهاميل خطرات يقرها القارئ بمجرد أن يقع عليها بصره لأنها موجودة في كل نفس، وإنما استطاع هو أن يعبر عنها فينيرها في نفوسنا.

ترجمة الدفاع عن الأدب:

عندما طلبت إليّ (لجنة التأليف) ترجمة هذا الكتاب اتفق أنني كنت أراجع ترجمة (شاتوبريان) لـ (لفردوس المفقود) فرأيت المترجم الفرنسي يحرص على أن ينقل إلى لغته اصطلاحات إنجليزية كما هي، وهو يبرر اتجاهه هذا، في مقدمة قيمة عن الترجمة، بأنه يقصد من ذلك إلى أمرين: أولهما المحافظة على الروح الإنجليزية، روح ملتن نفسه التي كثيرا ما تتركز في طرق الأداء وتستقي عناصرها من الثقافة التاريخية الكامنة بألفاظ اللغة ذاتها، وفي هذا تتفاوت اللغات، فمن بين مفردات اللغة ما يعتبر وثائق تاريخية، ومنها ما ينطق أوضاع اجتماعية خاصة بكل شعب، كما أن منها ما يحمل شحنة عاطفية لا ندري عادة لماذا اختصت هذه الكلمة أو تلك بحمله، وهي في الغالب مجازات ميتة.

وثاني الأمرين هو رغبة شاتوبريان في أن ينقل إلى لغته طرقا جديدة في العبارة، بل طرقا جديدة في التفكير، وذلك لأنه يرى أن الترجمة ليست مجرد نقل للأفكار وبخاصة في الأدب حيث تلعب الصور والصياغة الدور الأول. وهذا هو المذهب

الذي أخذت به، وذلك لأننا لو حرصنا على أن نعطي كل جملة الصياغة العربية التقليدية لما حققت الترجمة إلا جانبا تافها مما يجب أن تحققه، فهي ستفقد الدقة التي هي أول واجبات المترجم، ثم أنها لن تحمل إلى لغتنا ثروة جديدة في وسائل العبارة، ولن تكسبها ما نبغي لها من مرونة ومقدرة على أداء كل معنى وتصوير كل إحساس.

وأنا بعد لا أجهل أن لكل لغة خصائصها وأنه لا ينبغى أن نخرج على تلك الخصائص، وهذا ما حاولت أن أتجنبه، ولكن الذي لا أريد أن أقبله هو أن يدفعنا الاعتياد، واكاد أقول التحجر، إلى رفض كل تعبير أو وسيلة من وسائل الأساليب التي لم نألفها، فهذه نظرية ضعيفة ضارة، وما دمنا لا نخرج على قواعد اللغة فيجب أن نتصرف في تلك الحدود كما نستطيع.

وأخيرا أحب أن ألفت النظر إلى أن اتجاهي هذا لم يكن مذهبا، وأنا أعلم أن كل مذهب خليق أن يفسد بتعميمه حقائق الأشياء، ولهذا لم أتردد في أن أعرب عندما اضطرتني إلى ذلك ضرورة المحافظة على قيمنا الثابتة، واضرب لذلك مثلا بجملة كان المؤلف يقول فيها: (أنه لا بد في الزرع من حرث وغرس وبذر) ومعناها هنا هو الثقافة، ولكنه لما كان معناها الحقيقى في الفرنسية هو الزرع فإن الكاتب قد لازم المعنى الحقيقي ليدل على ما تتطلب الثقافة من جهد. فتحدث عن الحرث والغرس والبذر، ونحن في السنوات الأخيرة قد استقر العرف عندنا على استعمال لفظة ثقافة في مقابله، والمعنى الحقيقي للتثقيف والثقافة في اللغة العربية هو تقويم السلاح، ولهذا عربت فلازمت المعنى الحقيقي للفظتنا، وقلت: (لا بد من الصهر والطرق والشحذ) مشيرا إلى هذا التعريب في أحد الهوامش، وأنا بعد أعتقد أن الكثير من الكتب التي ترجمت إلى لغتنا لم تتحقق فائدتها الكلية لكثرة التصرف والاكتفاء بترجمة الأفكار دون طرق الأداء التي كثيرا ما تفوق في أهميتها المعاني المعبر عنها.

ثم هل لي أن أقول أنني حاولت أن أترجم عن الفرنسية كما يترجم الأوربيون إلى لغاتهم عن اللاتينية أو اليونانية، وإنني لم أكتف بالترجمة بل أضفت الكثير من

التعليقات التي رأيتها لازمة لفهم النص، وأنا أرجو من القارئ الذي لا يرى أنه في حاجة إليها أن يغتفرها لي، فقد قصدت بها إلى نفسي وإلى غيري ممن هم في حاجة إليها ليتم لهم الفهم.

وأنا أحرص على أن تكون آخر كلمة لي وأعزها على نفسي: شكر أستاذي أحمد بك أمين إذ تفضل فراجع الترجمة، وقد بذل في ذلك جهدا يسرني أن أحمده له عن نفسي وعن القراء.

محمد مندور

مقدمة

يقوم نظام ثقافتنا على الطباعة، فهو إذن ليس بقديم، وتلك التجربة المدهشة التي قلبت أوضاع العالم لا ترجع إلى أبعد من خمسة قرون، نعم إن الكتاب قد وجد قبل اختراع الحروف المتحركة، ولكنه كان نادرا باهظ الثمن لا تصل إليه إلا نخبه محدودة، فإذا بالكتاب يتنقل بين الشعوب وإذا بالإنسانية تتغير معالمها وخطاها وأحاديثها وقواها.

لا يستطيع الإنسان الحر الواضح التفكير مهما حرص على حقه في نقد مصائر البشر وزوال هذا الحق بالفعل، إلا أن يعجب بوجه عام لما حقق الكتاب من نتائج في هذا الزمن القصير الذي لا يعدو خمسة قرون، فالكتاب أحد محركات الفردية الخالقة، تلك الفردية التي لا تزال حتى في عصر الاضطراب الذي نعيش فيه وروح الخير القوامة على جماعتنا البشرية.

وقد وجدت فيه النفوس المنعزلة خلال هذه الخمسمائة عام أداة لا مثيل لها للعمل والسمو والتحرر، وكنا لعشرات خلت من السنين نظن أن طبائع الجماهير ستنتهي بأن تستنير بفضل غزو الكتاب للأفراد، وأن الجماعات في تصرفها واستجابتها ستخضع لتأثير تلك القوانين الأخلاقية السامية التي تدفع الفرد أحيانا بما لها من سلطان إلى أن يكون دائما خير مما هو، نعم إن الكتاب ككل عمل إنساني يمكن أن تقرر وتؤيد أحد هذه المبدأين المتناقضين اللذين نتبسط في القول فنسميها: الخير والشر، ومع ذلك فقد كان لنا أن نأمل في أن نرى ممارسة الثقافة، من تأمل إلى بحث عن الحقيقة إلى معاشرة لكبار العقول، تنتهي شيئا فشيئا بتطهيرها للنفوس إلى الإسراغ في استحداث الحضارة الحقيقة.

ولكننا مع ذلك رأينا الإنسانية تحيد فجأة إلى إحدى تلك المعجزات التي نجد في التاريخ الكثير من أمثالها، حتى ليلوح أن منتجات الحضارة وآثارها وانصرفت بها إلى غير مصائرها، وفي مشاهداتنا في علم الحياة ما يطلعنا على شبيه لتلك الظاهرة

العجيبة، وإذا نرى فيما تفرزه أو تنتجه الكائنات العضوية الحية، إذا كانت في وسط مغلق، ما ينتهي بأن يقف نمو الحياة.

وهناك من الأمارات ما يحملنا على الاعتقاد بأن الدور الذي يلعبه الكتاب في تدعيم الأخلاق، وغرس المذاهب وتحقيق المتعة في نفوس الجماهير آخذ في التناقض، وإن ظل (طعام الملوك) أعني الغذاء الجوهري لنفوس أولئك الذين قدر لهم أن يكونوا أساتذة وقادة، وأنه وأن يكن علماء الإحصاء يجهدون أنفسهم ليثبتوا لنا بقوائم من الأرقام أن طبع الكتب مستمر كعادته فإنني رغم ذلك لا أستطيع أن أسكن إلى اطمئنان.

وكل من يتابع عن كثب سير تلك الظاهرة يعلم أن تجارة الكتب في ضيق شديد، حقا إن الكثير من الكتب لا يزال ينشر، ولكنها صحوة صناعة تحتضر فتجازف بكل ما لديها، لتوهم نفسها بأنها لم تزل في قوة الحياة، قد يتأخر إلى حين اختفاء الكتاب من حيث أنه مذيع قوي للمعرفة، كما قد تسرع به فجاة الاضطرابات الاجتماعية إلى ذلك الاختفاء، وفيما يختص بفرنسا يلوح أن نتائج الملاحظات متوافقة.

فالرجل المتوسط الثقافة لا يملك لوسائل تسليته غير ميزانية شديدة الضيق، وهو كثيرا ما يخصص جزءا منها لرياضته البدنية أو على الأصح لمشاهدة حفلاتها، وإذا استطاع أن يذهب إلى السينما كل أسبوع، أو أن يستمع إلى الراديو ساعة أو ساعتين في المساء أثناء فراغه من العمل فقد أعطى فيما يرى نشاطه العقلي حقه.

ثم أن قراءة الصحيفة اليومية كفيلة بأن تشغل فتراته الخاطفة، كدقائق المترو أو السيارات العامة أو القطار، وجدت الآن عند العامة وسائل للمعرفة والتسلية أرخص ثمنا فحلت محل الكتاب الذي لم يحسن الدفاع عنه.

إن ما يسميه رجال الاقتصاد في مصطلحهم بـ (السوق الداخلي) قد اضطرب وفقد اتزانه وتلف بالفعل، والسوق الخارجي مغلق تقريبا لأسباب سياسية وصعوبات في استبدال النقود لا يمكن أن نتوقع سرعة زوالها، وكل يوم يضيف إلى تلك

الصعوبات المخيفة صعوبات جديدة؛ فالضرائب والتشريعات الاجتماعية التي لا أنتقد هنا مبادئها ولا اتجاهها والمغامرات ووسائل العلاج الوقتي والاضطرابات الاجتماعية، كل هذا يلوح به وقد نضافر منذ بضع سنين على أن يسدد إلى صناعة الكتاب ضربات مميتة.

يعتقد بعض ذوي النظر ان الكتاب يستطيع أن ينتظر وأنه بعد أن ينقضي ذلك الاضطراب المفزع وينسى، ستعود كل القوى الصادقة إلى ميادينها المعهودة، ولكني لا أرى هذا الرأي إذا انصرفت الجماهير عن القراءة، فإنها لن تعود إليها، وبذا ندخل بلا رجعة في طور جديدة من أطوار تاريخنا، وإذا فقد الكتاب لعشرة او خمسة عشر عاما ما بقي له من خطوة قلقة نزلت به الهزيمة النهائية.

لقد رأى البعض وما يزال يرى أن يخطئني في احتقاري للوسائل الجديدة التي يستخدمها الناس للتثقيف والتسلية، ولكني في الحقيقة لا أحتقر تلك الوسائل بل أخشاها، وكيف أحط من قدرها وأنا أرى فيها القدرة على تغيير أوضاع العالم الذي نعيش فيه تغييرا تاما، كما أن لها القدرة على الذهاب بانسجام حياتنا، ومع ذلك هل لي أن اعترف بأني أعتقد في قرارة نفسي بأن السينما والراديو، إذا أحكمت قيادتهما (خليقان بأن ينجيا فريستهما) أعني الكتاب من الهلاك، ومن ثم أرجو ألا أعتبر عدوا لدودا للسينما والراديو، وأكبر خدمة يمكننا أن نقدمها لهما ولعشاقهما هي أن نقوم بنقد أعمالهما وتصرفاتهما في يقظة وهذا ما لا أتوانى عنه.

لقد همس بأذني فيلسوف متفائل: إن الكائن البشري سينتهي به الأمر إلى الخروج من تلك المحنة منتصرا كما خرج من غيرها، وفي الحق أنه لمن المحتمل أن يقاوم جنسنا أقسى أنواع البؤس وأشد ضروب الضلال، ولهذا قال فيلسوفنا مبتسما (أن الإنسانية الحديثة ستجد السبيل لتكون في مستوى الإنسانية القديمة، تلك التي تحبها وتعجب بها) وبودي أن أستطيع الركون إلى مثل هذا الاطمئنان، ولكني لا أفلت من الفزع كلما فكرت في التجارب الفاشلة، نعم إن قرنين أو ثلاثة من البربرية لا قيمة لها

وسط الأبدية، ومع ذلك فبودي أن لو جنبنا أبناء أبنائنا هذين القرنين أو الثلاثة من البؤس.

لو سارت الحوادث على هذا النحو من السرعة الذي يلوح أنها ستستمر فيه لانتهت مناهجنا واتجاهات تفكيرنا في مستقبل قريب إلى الاختفاء، وذلك يذهب بالتوازن الروحي الذي جهدنا في المحافظة عليه، ولهذا كنا الآن في أصلح وقت لتحديد الموقف، بل ولإعلان مبادئ إيماننا.

لقد ألفت هذا الكتاب لا لألفت نظر معاصري إلى بعض المشاكل المؤلفة فحسب بل لأقيم شاهدا على ما أقول، وبالرغم مما يلوح لي من أن نشر أمثال ذلك الشاهد بالكتابة أمر غامض المصير، فإنني قد أعددت هذه الوثيقة لذلك النفر من أحفادنا الذين لن يستنكفوا أن ينفضوا الغبار عن المكتبات القديمة.

وسيعلمون عندئذ أي المشاغل كانت تعني الأدباء الذين عاشوا بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ كما سيدركون معنى الخطورة التي نعلقها على بعض المسائل الروحية والفنية، بل والمهنية، وإن لم يكن من المستحيل أن تلوح لهم عندئذ أمثال تلك المسائل عارية تقريبا عن كل أهمية.

إن هذا الكتاب، وإن يكن ثمرة لتجربة طويلة، فإنه ليس جماعها، ولو امتدت بي الحياة لكتبت كتبا غيره عن عملي ومعاركي، وما أظن أنني سأستطيع يوما أن أقول كل ما يجب قوله، بل ولا كل ما أحب ان أقول مما أعرفه وأشعر به.

وهذا الكتاب من أربعة أجزاء خصصت الجزء الأول منه فقط لتلك التغيرات الخطيرة التي طرأت على ثقافتنا الحديثة وللقوى الجديدة التي تهدد حياة الكتاب، وسيطرة المطبوعات التي نرى فيها دلالة على تحقيق ما للفكر من أثر.

وقبل الانتقال من هذه المقدمة والفراغ منها، أريد مرة أخرى – وأخشى ألا تكون الأخيرة كما أتوقع مع الأسف الشديد – أن أنهض لدفع بعض اعتراضات يستطيع الرجال الصادق النظر، لو تفضلوا أن يعفوني منها في هذه المرحلة من

مشكلتنا، ولكنهم لا يفعلون ذلك دائما.

والنظر المدقق المستمر في تطورنا يجب أن يكون من بين أوائل مهام الروح، وبخاصة في عصور القلق، إذ لوضوح الطريق ولعجلة القيادة والفرامل في السيارة من الأهمية ما للمحرك، ومع ذلك نرى ما يأتي: نرى الكثيرين ممن لا نعتبرهم دائما أميين ينظرون إلى نقد المستقبل الذي نستطيع أن ندركه نقدا صريحا نظرهم إلى عمل بغيض ينال من قداسته، وفي كل مرة يتفق لي فيها أن أناقش هذه المشكلة العامة أرى رقباء متزمتين يخرجون من عدة أحجار، وفي أسلوب يجب أن أسميه انتخابا أسمع رقباءنا الكرام يعيبونني بالحط من قدر العلم، وقدر التقدم.

ولكني أميل إلى الاعتقاد بأن الرغبة التي يبديها بعضنا في الحكم على الطريق وسرعة السير والوسائل ستنظر إليها روح المستقبل، التي ستنتهي بالنجاة من تلك الخصومات، نظرة فخار وشرف لنا.

لقد أدلى لي منذ سنين المسيو أندريه مايير الأستاذ بالكوليج دي فرانس، والعالم الواسع الفضل باعتراف عجيب، قال: (أن المعامل تعمل اليوم في حماسة خصبة، ففي علمي الطبيعة والحياة مثلا نستطيع أن نتوقع اكتشافات جديدة، اكتشافات عظيمة الخطر، ولكن فيم تستخدم الإنسانية تلك القوة التي ستوضع عما قريب بين أيديها، وهي لم تعد بعد لتلقي تلك القوة، كما أنها ليست في حالة تحسن معها استخدامها.

إن في أحداث الساعة ما يدل على أنه لا ننتظر أن توضع في خدمة الإنسان تلك القوى التي لا نعلم عنها بعد إلا القليل والتي يحدثوننا عن اكتشافها على هذا النحو من التحفظ المصيب، والراجح أنها ستستخدم إن لم تغتصب لمصلحة الطموحين الوقحين المجانين.

ومصدر ما يقض مضجعي باستمرار هو ذلك التناقض الذي يزداد كل يوم وضوحا بين اكتشافات العقل وبين الحالة الأخلاقية، وسير الحياة الاجتماعية فعلماؤنا سابقون لنظمنا بألف سنة، حتى أن المشرع لتتقطع أنفاسه في تتبع المخترع.

أما عن نفسي فإن مظاهر العبقرية العلمية تملؤني دهشة وغبطة، ولكني أدعو الله ألا يزيد تطبيقها من فوضى حياتنا، وأنا لا أكتفي بالدعاء، بل أوضح وجهة نظري.

والجزء الثاني من كتابي مخصص لعلم الواجبات على أن لا ينظر إليه القارئ كموسوعة في المادة، بل كمجموعة من الخواطر المتدفقة عن حياة الكتاب وعن علاقات الكاتب بزمانه وبالجمهور وعلاقاته بكتبه ومهنته

والجزءان الأخيران يتعلقان من جهة بفن القصة في القرن العشرين، ومن جهة أخرى بخصائص أدبنا وبالإنسانيات الفرنسية.

لقد فكرت في ان أسمى هذا الكتاب (علم حياة مهنتي) إذ تناولت فيه حياة الكتاب، ونمو الآداب، ومصائر فننا، إلا أنه وإن يكن لهذا العنوان أشباه شهيرة لدى الجمهور فإن ألفريد فاليت نصحني بأن لا أضعه على الغلاف خوفا من أن لا يفهم على وجهه.

والعنوان الذي اخترته بلا ريب أبسط وأوضح، وهو يحكي في جزء منه على الأقل عنوان كتاب آخر شهري، وهذا ما أرجو أن يغتفر لي مادام من واجبنا أن نعمل على إنقاذ ما خلفه لنا أجدادنا الأمجاد مما أحسنوا خلقه.

الجزء الأول

الكتاب ووسائل الحياة

إلام يصير العالم لو علق فجأة بالورق مرض جديد يحيل كل المكتبات ترابا؟؟

هذا السؤال يمكن بلا ريب أن يزعج أحلامنا، وإلقاؤه ليس عبثا؛ فنحن نسمي عادة كل اضطراب يصيب الكائنات الحية: حيوانية كانت، أو نباتية.. مرضا، كما يمكن أننا نستخدم اللفظ نفسه للتعبير عن التغيرات التي تطرأ على البيرة أو النبيذ.

والواقع أنه كلما وجد كائن حي وسطا ملائما لحياته فعلق به، وغير من بنيته وتركيبه جاز استعمال لفظ المرض فيه، وعلى هذا النحو من التحديد نستطيع أن نعود إلى حديثنا فنقول: أن الورق عرضة لكافة العوامل الطبيعة، وأما العوامل الحية فيظهر أن خطورتها لم تهدد حتى اليوم الورق الجيد النوع.

والأمر يتوقف على نزوة من نزوات الطبيعة تبدل أو تغير فجأة من الخصائص، فتجعل نوعا من الحيوان أو النبات يعيش على الورق فيفنيه بسرعة، أو على الأقل يتلفه إتلافا لا صلاح له بعده، حتى لنتساءل: كيف إن فرضا كهذا لم يغر (ولز) أو كاتبا آخر من مقلديه؟

يخيل إليَّ أن الإنسانية بفقدان مكتباتها لن تفقد من كنوزها الفنية أو من تراثها الروحي فحسب بل ستفقد أيضا وبوجه خاص وسائل حياتها. هناك جماعات بدائية كل علمها في ذاكرة الرجال، فلقد رأيت في شمال إفريقيا تاجرا ملطيا أميا كل الأمية لا يمسك دفاتر، وقد نقش كل حساباته على ذاكرته، هي ذاكرة يقظة مدهشة الاتساع، لقد اخترع الإنسان الكتاب ليخفف الحمل عن الذاكرة. وهو يودع الكتاب

ما يريد أن يحتفظ به، والذاكرة عرضة للخطأ؛ فقد يثقلها الحمل، وقد تتعثر ثم أنها تنحط وفي النهاية تصير مع الإنسان إلى صمت الفناء، وكلما وجد الإنسان المجد طريقة لعمل شيء ما عملا صحيحا سارع إلى تقييد تلك الطريقة بكل دقة، معددا أسباب الخطأ ومواضع الصعوبات وطرق التغلب عليها مردفا مبادئ النجاح ببواعث الفشل؛ فهو بالاختصار يحدد وسائل الحياة.

كل مكتبة هي قبل كل شيء مجموعة وسائل ومناهج.. هي ذلك المكان الجليل الذي يحتفظ فيه الرجال بتاريخ تجاربهم وتحسساتهم واكتشافاتهم ومشروعاتهم، وأنا أقصد بذلك إلى تاريخ الشعوب حينا ومغامرات الأفراد حينا آخر، وإلى تاريخ أعمالنا طورا، وتاريخ أفكارنا طورا آخر، ففي الكتب أحيانا وصف لوسائل صنع آله بخارية، وأحيانا وصف لوسائل حياتنا اليومية، حياتنا المادية، ثم حياة الروح وحياة القلب.

فلو أننا فقدنا دفعة واحدة كل تلك الكتب التي ازدهرت في ظلالها حضارتنا المرهفة المعقدة لما استطعنا أن نعرف كيف نحضر بعض المنتجات الكيماوية، أو أن نبني طائرة، أو أن نربي حيوانات أو نزرع أرضا مواتا، أو أن نحل عددا لا حصر له من المشكلات، بل لما استطعنا عندئذ أن نطوا بعض المأكولات. وأضيف إلى ذلك أننا سنجد مشقة كبيرة في استخدام ملكاتنا، والرجوع إلى قواعد أخلاقنا والتغلب على شهوات نفوسنا، إذ لن تكون تصرفاتنا عندئذ إلا تصرفات متوحشين أو وحوش تعسة.

والمكتبات العامة لا تكفي حاجات الناس، ولذا يمتلك كل منهم، مهما كان فقيرا ومهما ضعف استقراره مكتبة صغيرة شخصية، هي كنزه الذي يعتز به، فكل إنسان يشعر بالحاجة إلى أن يجد في متناوله وتحت بصره وسائل حياته، فهو يقتنيها لا لأن الكتاب هو أخص زينات المنزل، ولا لأنه ينشر في الأماكن التي يحليها عبيرا أليفا نافذا من الروحية، بل لأنه يجد فيها ما يكون إليه في ساعة ضلال أو انحلال أو شك أو فراغ نفسي، ولتتصور ماذا تكون حياتك في مكان مريح ولكنه خال من الكتب،

فإنك لن تلبث حينئذ أن تحس بالنفرة وضيق الصدر.

وأنا أقدر أن هذه الخواطر ستثير معارضات، ولئن قيل لي مثلا: فليكن، ولتختف كل الكتب، وليتطهر العالم دفعة واحدة من العلم كله، ولتمح الذاكرة، لأجبت مسرعا أن في العالم الأن عدة فنون للتدمير والكثير من الوسائل للرجوع إلى السليم، بل أن اليأس نفسه ليتطلب للعبارة عنه قواعد وطرق أداء.

ومن الراجح أن يعترض عليّ بأن الخطر الذي أتحدث عنه خطر وهمي، وأن ضياع مكتباتنا احتمال بعيد، وإلى هذا أريد في الحقيقة أن أنتهي؛ فأنا لا أخشى على مكتباتنا من ميكروب خبيث، إذ يخيل إليّ أن الإنسان في حالته الراهنة سيبذل كل جهده ليحافظ على كنزه من التحطم، أو لينقل وسائل حياته الحيوية إلى مادة أخرى أقل عرضة للفناء، ولقد استعنت بهذا الفرض لألفت النظر إلى أهمية كارثة كبرى أحس أنها آتية، فالكتاب مهدد في مستقبله لا بالميكروب، بل بإنصراف جماهير البشر عنه.

فهل هذا لأن الجماهير الآن أقل حبا للاستطلاع منها في القرن الماضي، أم لأنها أقل تعطشا إلى المعرفة، لست أقول شيئا من ذلك، ولكني أقول أن الجماهير البشرية قد أخذت تشبع شيئا فشيئا حاجتها إلى المعرفة دون الرجوع إلى الكتاب، فالرجل المتوسط لا يجد في الأعم وقتا متسعا ولا مالا كثيرا. بل ولا عزما مثابرا ليرضي حاجاته إلى المعرفة دون الرجوع إلى الكتاب، بل ولا عزما مثابرا ليرضي حاجاته الروحية، فقدرته على الانتباه والاستطلاع والفراغ قد استغرقتها اليوم عدة آلات قوية الأثر، نافذة الاستهواء، فالراديو والسينما تشغل من يوم إلى يوم مكانا أكبر، لا في وسائل تسلية رجل القرن العشرين فحسب، بل وفي عناصر تكوينه الظاهرة، إذ تختلط الأخبار بالمعارف والتسلية بالعلم، اختلاطا مخيفا في نفس الرجل المتوسط

وقادة الفكر في عصرنا لم يعلنوا بعد في قوة أن هذه الظاهرة تبعث في نفوسهم القلق، ولعل البعض منهم يرى أن الوسائل تتغير، وأن الإنسانية ستحتفظ بتراثها لا

في المكتبات بل على أسطوانات من الباغ أو في أشرطة من الغراء، وهذا ليس موضع الإشكال إذ أنه لا يهمنا أن نعرف هل الباغ والغراء آمن على نقل معارفنا وأصلب مقاومة من الورق أم لا، بل ولا يهمنا أن نعلم إذا كان من الخير لمستقبل عبقرية البشر أن نحل محل الكتاب صديق الوحدة، عددا من الأدوات الصالحة صلاحا خطرا لأن تخلق عقلية القطيع، وإنما المسألة الأساسية هي هل من الممكن أن نخلق وأن نحافظ على ثقافة حقيقية ثقافة قوية خصبة بواسطة الصور (السينما)، الثقافة الروحية جهد ونتيجة لذلك الجهد على السواء، فكل نظام للحضارة يضعف من الجهد ويضعف أيضا من الثقافة.

وأنا إذ أقول ذلك لا أرى أن الحضارة الحديثة بالرغم من مظاهرها، وما توحي به من آمال، قد نقصت من مشقة الجهد في كل ميادين النشاط، وإنما هي غيرت من طبيعة ذلك الجهد، فعامل المصنع عندما ينتهي من عمله اليومي لا يشعر بأنه أقل تعبا مما كان من قبل، فالجهد العضلي الذي يبذل قد يكون – وإن لم يصدق ذلك في كل الصناعات – أقل طردا وأخف قسوة، ولكن جهده العصبي يزداد كل يوم بازدياد الآلات تعقيداً، كما يزداد بنمو قوتها نموا مخيفا؛ فسائق ما في حالة توتر عصبي لا تخففه العادة إلا تخفيفا غير محسوس، بحيث أعتقد أنه عند انتهاء عمله اليومى يحس من الإعياء قدر ما يحس الحاطب أو عامل الطرق، بل أنه بلا ريب ليجد نفسه عاجزا عن أن يهدأ أو يستريح أو ينام ليعوض من إجهاده.

ولهذا كنت بعيدا عن أن أرى أن حضارتنا الراهنة قد أعفتنا من الأعمال الشاقة، وإنما هي تجنبنا بعضا من المجهودات لتثقلنا بما هو أشق منها وأضنى، ثم أن رجل القرن العشرين مرهق بأعمال الدواوين، ومرغم على احتمال نيرها، وعلى النهوض بأعبائها، فحياة أكثر الناس تواضعا اليوم إدارة فعلية، بما يتبع هذه اللفظ من أكداس الورق والإعلانات وشبابيك التذاكر والإجراءات والانتظارات والمرافعات والخصومات والمضايقات والمفاجآت بكافة أنواعها.

وإنه حقا لمن دواعي الدهشة أن نرى تلك الحضارة التي لا تعرف رعاية لأعصابنا والتي تتقاضانا في كل تصرفات حياتنا جهدا يكاد يكون مؤلما، تصبح رفيقة كل الرفق عندما تعمل على تجنيب الجماهير الجهد العقلي الذي هو الكفيل الوحيد بكل ثقافة حقيقية، وكل جهد بلا ريب أمر شاق، ومشقة الجهد العقلي يضاعفها أن نفعه قلما يكون مباشرا، ومعظم ذوي النفوس الساذجة يرهبون الجهد العقلي، وهم يفضلون جهدا بدنيا طويلا عنيفا على تلك الرياضة العقلية التي لم يألفوها، والتي تلوح لهم ثمارها مرة غير موثوق بها، وإنه لمن اليسير أن ينصرف عن الجهد العقلي كل أولئك الرجال الذين أرهقتهم مطالب حضارة لم تعد تعرف النوع ولا المهادنة.

هذا والأمور تجري على نحو يخيل إلينا أن هناك روحا شريرة قد عقدت العزم على أن تنيم الإنسانية وتخدعها مع تملقها لكبريائها ولبعض من نزعات طموحها. وأنا أقول (يخيل إلينا) ولكني أبادر فأقرر أني لا أرى أشباحا، وأنا على يقين من أن تلك الروح الشريرة لا دخل لها بتطورنا الحديث، إذ من العجيب أن الأمور تسير على نحو لم يقصد إليه أحد، بل لم يدركه أحد إدراكا واضحا، ومع هذا يجب أن نعترف بأننا قد صرنا إلى هذه الحالة مساقين بما يشبه إرادة شريرة عنيدة.

فكل تلك الخوارق التي تجعل الفرد عضوا متضامنا مع المجموع، والتي توحي إليه بكل ما يرى الآخرون أو يقولون أو يفعلون، كل هذه الاختراعات العجيبة التي يبدو لأول نظرة أنها قد اخترعت لتزيد الإنسان ذكاءً، ولتفتح من أذنيه وعينيه ولتثير ملكاته وتنهض به فوق مستواه، نراها تعمل في دهاء واستتار على أن تنهيه وتخدعه وتحط من آماله وتوقف من قوته، وهذا تطور ربما كان شارل نيكول يستطيع أن يرى فيه مظهرا جديدا لذلك القانون، قانون التوازن الذي يحكم في نظره عالمنا العضوي كله.

وأنا لا أريد أن أعود فورا إلى الدور الذي يلعبه الراديو والسينما في إضعاف معنى الجهد الروحي، وإن كنت لم أفرغ بعد من الحديث في هذا الموضوع، ولكني أريد

أن ألفت النظر أولا إلى إحدى نواحي تلك الظاهرة.

تستطيع الصحافة أن تكون في أيامنا وسلية مدهشة للمعرفة، وذلك على فرض أنها – وأنا أعترف أنه فرض مسرف – تستطيع أن تتحرر من رق المادة ورق السياسة، وعلى فرض وهذا الفرض الآخر لا يقل هذيانا عن سابقه، ولكن لنفترضه مع ذلك، على فرض أن تتخلص من الأهواء الشخصية، وأن تخصص كل مجهوداتها لأداء واجبها الإخباري الثقافي، ولو صح ذلك لاستطاعت أن تلعب دورا مهما في تثقيف الجمهور، وهي تملك كل ما يمكن تصوره من وسائل للتنقيب والإذاعة، كما لاتزال تتمتع لدى الجمهور بثقة متينة، فهي إذن تستطيع أن تصوغه وأن تقوده وتسمو به، بل وأن تثقفه إلى حد ما، أو على الأقل أن تدفعه إلى الكتاب الذي هو أداة كل ثقافة حضارية.

هذا ونحن نلاحظ منذ عشرات السنين أن الصحافة ظاهرة طفيلية تلوح لأول وهلة قليلة الأهمية، ولكنها مع ذلك قد مست كل قيمة للصحف كوسيلة للتثقيف، وأقصد بذلك الإسراف في الصور. فالصور شيء طريف، وهي تقدم لنا بسرعة خير ما تحمل، كما أنها تساعدنا أحيانا على فهم أشياء لا تستطيع الألفاظ أن تعبر عنها بسهولة، ولو أنها دعمت بنصوص ممتازة جيدة التحرير لزادت فهمنا للعالم..

وفي المؤلفات المصحوبة بصور ما يشهد بذلك شهادة بينة، ولكن الصورة قد أخذت تحتل في جرائدنا اليومية مكانا مروعا، وقد قتلت النص، لا لأنها تستغرق جانبا من ميزانية الجريدة، أو لأنها تنحي وتطرد التحرير فحسب، بل لأنها توهم بأن النص لا فائدة فيه، إذ يقول رجل القرن العشرين لنفسه (ما الداعي لقراءة كل هذا المقال المكتوب بحروف صغيرة وأنا أدرك الموضوع بمجرد نظرة، القراءة متعبة وأنا منهمك بعد أن قضيت نهاري كله في المعمل أو في الديوان، ثم أنه لا فائدة من القراءة لا فائدة أصلا).

كما يفعل الطفل إذ يبلل أصابعه ليمر من صورة إلى صورة دون أن يقف ليقرا

النص لأنه لا يعرف القراءة، كذلك يفعل رجل القرن العشرين إذ يمر ببصره المجهد العابر الكليل على الصفحات المنشورة أمامه، وعنده أن أي مجهود مهما كان تافها أكبر مما يستطيع.

وأنا هنا لا أقدح في فن التصوير الفوتوغرافي الذي استطاع في السنوات الأخيرة أن يخطو إلى الإمام خطوات حقيقية، وقد تحلى بكل وسائل الإغراء فهو ينقل ويغير ويشوه ويجمل الواقع أحيانا كثيرة، فالفوتوغرافيا كسب علمي ثمين، ولكنها إذا حملت الرجل على الكسل رأيت فيها شرا مستطيرا وطلبت كبت جماحها.

ورجال الصحف قد وصلوا في هذا الطريق إلى مرحلة لا يستطيعون الآن الارتداء عنها، وهم يعلمون ذلك ويحسونه إذ تراهم يلجأون إلى ضروب من الحيل في الطبع كي يستهووا الجمهور، ويحتفظوا بانتباهه الشارد الضال المضنى، وذلك حتى لا تصبح جرائدهم مجرد مجموعات من الصور، ولكننا نعلم أن الحروف الكبيرة والعناوين الضخمة ليست الدواء الناجع، بل أنها لتساعد على استفحال تلك الظاهرة المدمرة عند الإنسانية الحديثة، وأعني بها انحلال القدرة على الانتباه.

– ٣

هل نستطيع أن نؤسس ثقافة قوية خصبة على الصور والأدوات الخطابية؟

هذا سؤال ألقيته عدة مرات على مثقفي العالم كله، ولم يبق السؤال دون جواب. فلقد تناول هذه الظاهرة عدد كبير من الباحثين، ورأوا فيها ما أرى من أن السينما والراديو لا يمكن أن يكفيا لبناء ثقافة حقيقة، ولكن هناك من يؤيد وجهة النظر الأخرى، وهؤلاء وإن يكونوا فيما أحسب أقل من الأولين عددا وأضعف جزما بما يرون، إلا أن رأيهم يستحق رغم ذلك أن نقف عنده وأن ننظر فيه بإمعان، ولقد أعلن المسيو لويس سيدانيه رأيه في هذا الصدد في مقال نشره بمجلة النقد الجديدة، ولقد أظهر هذا الكاتب أنه موهوب هبة حقيقية، وهو أحد أبناء ذلك الجيل الناشيء الذي يريد في شجاعة أن يقبل الحياة كما يهيئها له العالم الحديث، وتلك هي

النصيحة التي أقدمها إلى أبنائي رغم كل ما يبدو فيها. وعند المسيو سيدانيه: (أن عيب السينما والراديو آت من أن هاتين الوسيلتين لم يجدا بعد أساتذتهما)

وهو يتساءل في جوهر المقال عما إذا كانت الكتابة والطبع هما الأداة الوحيدة لنشر المعرفة، ثم يجيب بالنفي إذ يرى في قولنا بهذا الرأي ضربا من الغرور، فليس من حقنا أن نعيب السينما والراديو لمجرد أن كل ما يحملانه لنا اليوم تقريبا ردئ منحط.

يلوح أن المسيو سيدانيه يرى في النهاية أن انتقاد السينما والراديو كأداتين للثقافة مرده إلى ما في برامجها وطرقهما الفنية من رداءة مؤقتة، ولكن هذا ليس موضع الانتقاد إذ أني على تمام الثقة من أن السينما ستقدم، بل وقدمت بالفعل للجمهور، أشياء رائعة حقا فالعبقرية تنعكس على الشاشة عندما يختار رجل عبقرى السينما كرسول معبر، ولقد قدم لنا شارلي شابلن على ذلك أمارت دالة.

وكذلك أعتقد أن الراديو كأداة للإذاعة ليس غريبا عن العبقرية، فعندما يذيع موسيقى باخ تتردد العبقرية (في صندوق الضوضاء)، ولذا أراني من هذه الناحية على ثقة بالمستقبل ثقة لا حد لها، وإنما الذي يقلقني هو بعض من الملابسات الملازمة للراديو والسينما عندما يعتبران وسيلة للثقافة.

أساس الثقافة هو فهم الظواهر والكتب والكائنات، والنفوس حتى النافذ منها والموهوب عرضة دائما للتردد والذهول والإغماء العارض، وأقدرها على الانتباه في حاجة دائما إلى الرجوع إلى الموضوع والعناصر والى الحجج التي يتناولها العرض أو المناقشة، وهذا الرجوع الذي يقصد منه إلى دقة الفهم، هو على وجه التحديد ما نسميه بالتفكير، فالرجل الذي يقرأ يقف في كل حين ليفكر أي ليحاول أن يعود فيتناول الفقرة من جديد يقرؤها مرة ثانية وثالثة ورابعة بل وعاشرة، وهذه الطريقة لا تتفق وفنون الحركة، فإننا عندما نسمع (سيمفونية) او نشاهد تمثيل (تراجيديا) لا نستطيع أن نعود إليها، على حين أن الكتاب يمكننا من التفكير تفكيرا ضروريا، وإن يكن لاحقا، فإذا كان الكتاب جيدا نزعنا إلى قراءته من جديد، والنظر في الحفلة

الموسيقية أو في المسرح نلتمس اللذة بينما نتخذ من الكتاب وسيلة للثقافة الحقيقية.

نعم يمكن الاعتراف بأنه من الممكن إذا أردنا أن نعود إلى الكتاب بعد سماع الراديو أو بعد مشاهدة الفيلم، ولكني في الحقيقة ضعيف الأمل في هذا الاحتمال، إذ أن في طبيعة الراديو الجارفة التي تشبه تدفق النهر ما لا يساعد على التفكير، أي على الثقافة الحقيقية، فهو والسينما يقدمان أشياء مسرفة الكثرة لا نشعر معها برغبة في أن نحقق أو نختبر أو نكمل، بل ولا في أن نفهم، وإنما نأخذ منهما ما نأخذ خطفا وكيفما اتفق، وأما ما يفوتنا فليفت، وليس هذا منهج الثقافة.

ولقد يأخذ العجب العجائز فيلفتون أبصارنا، ويدعوننا إلى التفكير على نحو ما فعلت منذ أيام سيدة عجوز من صديقاتي؛ فهي لم تعد تقرأ منذ سنين لأن نظرها قد ضعف، ولأن قدرتها على الانتباه قد أخذت في الاضمحلال، والراديو يمثل سيطرة أقل الجهود.

ولما كانت هناك حالات لا يكون فيها الفرد قادرا إلا على أضعف مجهود ممكن، فإنه يرحب بالراديو، وفي مثل هذه الحالات لا يكون مع الأسف للمستقبل ولا للثقافة أي اعتبار، ولهذا عندما أهدى أبناء هذه السيدة إليها جهاز راديو سرت به كثيرا، إذ وجدت في دندنة تلك الآلة المستمرة الرنين ما يشغلها عن أنواع من الأفكار والذكريات الحزينة..

ولكن لما كانت تلك السيدة المعمرة لم تصدف بعد عن كل محاولة للفهم فإنها تصيح بالجهاز الأصم عشرات المرات في اليوم الواحد قائلة (قف.. قف.. ارجع قليلا إلى ما فات، نعم أعد ما قلت الآن)، ولكن الآلة الصماء لا تقف ولا تعيد حتى ليبدو أن التفكير لا يتفق وتلك الأدوات الجديدة التي تقدم للجماهير لتخلق لنفسها بفضلها روحا، فالسينما والراديو لا يعيدان، بل يسيران ويسيلان ويتدفقان، فهما كما قلت كالأنهار، وماذا تحمل الأنهار؟ أليست أخلاطا بغيضة نجد فيها عادة أسوأ الأشياء، وفي النادر أحسنها دون أن نستطيع فصل هذه عن تلك.

وهنا أصل إلى النقطة الثانية في الإشكال؛ فالقراءة معناها الاختيار، إذ أن من يقرأ يتقرى أي يختار، ووظيفة الاختيار من أولى وظائفنا الطبيعية، فالكائن الحي حي لأنه يختار، فهو ينتقي من بين ما في العالم من أشياء، ما يصلح لأن يكون له غذاء أي مادة للحمه، ونحن عندما نقرأ كتابا أو مجلة أو جريدة نختار مادة لروحنا، وكذلك عندما نذهب إلى مسرح أو حفلة موسيقية نكون إلى حد ما قد اخترنا معتمدين على ما وصلنا من أخبار، فالأمر أمر خير واختيار، ونحن نتخير ما نرى فيه خيرنا فنحبه.

وملكة الاختيار مهدرة محتقرة عند تلك المذيعات الحديثة القوية أعني السينما والراديو عندما تذيع أغذيتها الروحية الممحوة المعالم، حتى لنضطر في سبيل صورة واحدة جميلة نلتقطها التقاطا إلى أن نتحمل آلافا غيرها أفضل ألا أصفها بشيء، ولكي تستمع إلى حفلة موسيقية جيدة بالراديو لا بد لك من أن تلقى وتواجه وتتحمل آلافا من الضوضاء البغيضة أو المضحكة.

والبسطاء من الناس الذين هم غواة الراديو الحقيقيون، والذين هم في حاجة إلى الثقافة والذين أبسط هنا قضيتهم وأدافع عن مصالحهم، هؤلاء لا يحفلون باختيار ما يسمعون، إذ يفتحون (الحنفية أو الصنبور) ويأخذون في الشرب على بركة الله، فيعبون كل شيء أخلاطا من موسيقى فاجنر إلى جاز إلى محاضرة في السياسة إلى إعلانات تجارية إلى دقات الساعة إلى نمرة في صالة إلى موجات طفيلية إلى مواء الموجات الشاردة.

وأقول – أو على الأصح أعيد – أن نظام الثقافة الذي يستحيل فيه التفكير والاختيار، وإنما هو في الحقيقة إنما هو في الحقيقة تقويض لما كان يسمى حتى اليوم ثقافة.

من بين الاقتراحات التي عرضت على لجنة الإذاعة اقتراح استرعى نظري بنوع خاص، وذلك لا لشيء في طبيعته، بل للضياء المفاجيء الذي يلقيه تحقيقه على نفسه المشكلة التي عرضنا لها، فلقد رئي أنه قد يكون من الخير أن تعلن البرامج مقدما كما

يفعلون في السينما، وأن يلفت نظر السامع إلى بعض أجزاء من تلك البرامج، وبذلك نعينه على الاختيار، وهذه فكرة لا بأس بها، ومن رأي أصحاب الاقتراح أن يحلو تلك الإعلانات بالموسيقى ليكسبوها طلاوة؛ فتكون الموسيقى عندئذ زينة: صورا وعينات وتعليقات وأمثلة تضرب..

ولقد سمحت لنفسي يومئذ أن أقاطع أثناء التجربة التي كانت تجرى للتدليل على هذا الاقتراح لأسأل عما إذا كانوا سيعزفون ليسترعوا نظر الجمهور إلى حديث عن ديكارت ومقالة عن المنهج، وإن عزفوا فأي موسيقى سيعزفون، وكان أن تنبه أعضاء اللجنة، وكلهم رجال حسنو الإدراك إلى ما في الاقتراح من صعوبات، وطلبوا أن يبحث محاولات أخرى.

وأنا بلا ريب لست ممن يعشقون الراديو بنوع خاص، ومع ذلك أرى في هذه الطرق البلهوانية أمارة واضحة على مرض يقلق اليوم عالمنا بأسره، وهو ما يجب أن نسميه بمرض الخلف فها هي ذي ملكة القول تعلن عجزها إذ ترى أن ذلك القول البشري الذي هو رسول النفس وأداة الاتصال بين العقول المتحدة الثقافة اتصالا مباشرا سريعا نيرا لم يعد كافيا، وأننا قد أصبحنا مضطرين إذا أردنا أن ننصح إنسانا بأن يستمع إلى أشعار جميلة أو أن يذهب لمشاهدة معرض صور أن نصحب قولنا بموسيقى موحية مغرية تكاد تكون كالإعلانات التجارية..

وأنا أحب الموسيقى وأدافع عنها في كل المناسبات ضد التجار والقوادين والمدنسين، ولكني أعتقد أنه من الإجرام أن تمتطى الموسيقى إلى كل غاية، ونحن الآن في سبيل النزول بها إلى مستوى الضوضاء والنتاج الثانوي والفضلات، بل نحن في سبيل الانحطاط بالموسيقى مع القول وتحقير القول مع الموسيقى، وهذا التبذير ليس كرما، وهذا الخلط ليس إثراءً.

ومنذ اليوم ترى عادات قد قبلت وتأصلت؛ فالجمهور في السينما بحاجة إلى ضوضاء أي ضوضاء لكي يرى صورا متحركة جميلة، وسينتهي الأمر بمن يستمعون

لحديثي إلى المطالبة دائما وفي كل مناسبة بمصاحبة الموسيقى للحديث، وهكذا ترانا نسير إلى الخلط والتبديد والفوضى، وبذا سنفقد الشعور بما هو أساسي.

وهم يحدثوننا عن الزينة، وأنا لست عدوا مطرد العداوة للزينة، ولكني أمقت كل متنافر لا فائدة فيه ولا ضرورة له. وهم يحدثوننا عن تعدد الألحان فيقولون أن الذكاء الحديث يستطيع أن يدرك في تعقده عدة أفكار يقوم بعضها فوق بعض ويؤثر بعضها في بعض، ولكن أليست هذه سفسطة خالصة، فما نسميه في الموسيقى تعدد الألحان ليس إلا أصواتا من نوع واحد تصدر في فكرة واحدة، وإذن فلا يجوز أن نغالط بإساءة استعمال تلك الألفاظ الضخمة، وانه لمن العبث المزري القاتل لذكاء البشر ألا نستطيع قول شيء عن إسبانيا دون أن نعرف من وراء حجاب بعض نغمات من كارمن.

فليحذر بناة عالم المستقبل، فإ نهم يولدون حاجات جديدة، وفي هذا الحذر كل منطق وخلق وجمال، ليحذروا الخلط والمزايدات، وإلا فلن نطلب إليهم بعض أفكار واضحة، بل ألوان من الطبخ، تزداد تعقيدا يوما بعد يوم، وبنفسي إذ أقول ذلك، ما يشبه حلما بالجريدة الناطقة الموسيقية الملطفة الغذائية المعطرة.

ولربما سمعنا قبل مضي عشر سنوات إذاعة لتراجيديا لراسين مثلا تصاحبها جوقة موسيقية ومدفع رشاش وصفارة إنذار، بل وعلاوة على ذلك نوع خاص من الحلوى للمضغ ثم روائح عطرية تنشرها بخارا أنابيب تجري في المنازل، وستقوم بكل ذلك طبعا محطات إذاعة الدولة، إذ لن يكون عندئذ للمحطات الخاصة وجود، وفي برنامج ساحر كهذا ما يرضي المرهفين المعقدين، إذ سيجدون فيه كل ما وعد المترفون من نعيم.

منذ أيام صرح لي صديق أرى فيه رجلا موهوبا، أنه عندما يريد أن يعمل – وعمله ليس الأدب – لم يعد له بد من الراديو، أذ أن في دندنة (صندوق الضوضاء) ما يجعله، على حد قوله، في حالة من الانشراح تساعد على تفجر الأفكار، ولكني

مضطر إلى ألا أرى هنا حالة نفسية موسيقية بمعنى الكلمة، إذ أن للفكر إيقاعه الخاص، وهذا الإيقاع إما أن يقاوم كل ايقاع خارجى وفي هذا ضياع من نشاطه، وإما أن يخضع لكل ضغط، وفي هذا حط له واسترقاق مزعج.

ولقد سمعت أحد من يلاحظون الحالات النفسية الحديثة ملاحظة دقيقة يقول أمامي: إن قارئ الجرائد المعاصر لم تعد به حاجة إلى طي أوراق الجريدة ونشرها ليبحث عن بقية المقالات التي تجزأ وفقا للطريقة الحديثة إلى عدة أجزاء، وذلك لما يلوح من أن القارئ المتمرن حقا يقرأ كل شيء على بعضه وبدون انقطاع، وهو مع ذلك لا يضل أبدا في شيء، ولكني في الحقيقة أشك في ذلك، ولو صدقت هذه الملاحظة لكان معناها أن الداء قد استفحل وأن الخلط قد استحكم.

وملكة التركيب لا شك ملكة طيبة، ولكن على شرط أن تتناول عناصر يمكن أن يجتمع بعضها إلى بعض، وأن تكون وحدة، ورجل الجماهير اليوم يتغذى ماديا وروحيا بعدد لا حصر له من الفتات الذي لا يؤلف على أي وجه نظاما للغذاء، وهذه الطريقة التي لبست من النظام في شيء هي إنكار الثقافة إنكارا تاماً.

كنت أزور في العام الماضي أحد مصانع التعدين بأقصى شمال فرنسا، وإذا بالمهندس الذي كان يقودني في المصنع يلتفت أثناء الطريق إلى رجل على أبواب الشيخوخة من رؤساء العمال ويقول له في نغمة ودية (هه الراديو كويس) فأجاب رجلنا: (آه نعم يا حضرة المهندس، بمجرد عودتي في الساعة السادسة أدير الزر فيمشي الراديو حتى الساعة الحادية عشرة) ثم هممنا بالسير وإذا بالمهندس يعود إلى السؤال (قل لي ماذا كنت تفعل من قبل عندما لم يكن عندك راديو؟) فطأطأ الرجل رأسه وبدت عليه الحيرة، وأخيرا تمتم بالجواب خلال شعر شاربه الرمادي (قبل الراديو.. أه.. قبل الراديو.. والله ما أنا فاكر).

ولهذا الحوار المتناهي في البساطة أهمية كبيرة، فهو يدل على أن الراديو قد حل عند كثير من الناس محل الحياة الداخلية، ومن ثم كانت مشكلة الساعة هي: هل

ندخل الخلط في تلك الحياة ام ندخل النظام؟.

نحن في السينما في مدينة صغيرة من مدن الريف، الجمهور نائم والبرنامج ممل والقطعة الأساسية فيه شبه فيلم تاريخي، بطله مهدد بمؤامرة فنرى المتآمرين والقتلة كما نلمح الخناجر، وتنجو المؤامرة فنرى القتل، وفي الحقيقة أنهم لم يخفوا عنا شيئا، فها هو الدم وها هي الدموع، ولقد سمعنا طبعا الصياح ما دام الفيلم حديثا أي ناطقا، بل وناجحا. والبطل سيموت، ولذا أرونا الجرح، ولم يكن هذا كل ما رأينا فها هو وجه الميت، وها هي تقلصات الاحتضار مكبرة نراها موجهة وعن جنب، ثم نمر على أوجه القتلة، فنرى تفصيلات مروعة وتفصيلات مسرفة إسرافا لا حد له. وضربة الخنجر القاضية قد مثلت عن شمال وعن يمين ومن شرفات مطلة، ثم في مواجهة الضوء وفي محاذاته، وبالجملة لم يدخروا وسعا ليولدوا فينا (الهزة).

وجمهور المدينة الصغيرة لا يعرف الهزة، فهو يشاهد هذه المناظر المسرفة دون أن يحس شيئا، وهو ينتظر لكي يتأثر صورا أشد وقعا، كمنظر أكلي لحوم البشر مثلا، أو منظر نساء عاريات، وإن يكن من الممكن كل الإمكان ألا يكون منتظرا شيئا على الإطلاق، وأما أنا وقد أتيحت لي فرصة أحلم فيها، فقد أخذت أتسلى بأن أذرع الطريق الذي قطعناه منذ التراجيديا الكلاسيكية.

هل صحيح ما يقال في كتب المدارس من أن الذوق الحيي هو الذي دفع كبار مؤلفي التراجيديا عندنا إلى حرصهم الدائم على أن يجنبونا مناظر إراقة الدماء، الأصح من ذلك هو أن هؤلاء الفنانين البارعين كانوا يعلمون أنه ليس أقدر من الكلام على إثارة الانفعال.

والتراجيديا على العكس من السينما، لا تكاد ترينا شيئا، فبمجرد أن تسرع الحوادث وتتهيأ المأساة للحدوث، وقد بلغت الشخصيات أقصى حدود الانفعال حتى لتكاد تهم بالعمل، نرى رسولا أو أمين أسرار أو شخصا ممن حضروا المأساة أو اشتركوا فيها، يدخل وقد ذهب بلبه ما رأى أو علم، ثم تنفرج شفتاه ويقص.

لقد كان على عربة... ولا يظنن أحد أن وسائل الإخراج في المسرح لعهد راسين كانت عاجزة عن أن تأتينا رجلا على عربة، فلقد كانت تلك الوسائل غنية في بذخ، قادرة في مهارة، والشاعر لم يرنا بالفعل منظر موت هيبوليت لأنه كان يعلم حق العلم أن أي منظر لا يمكن أن يصل إلى مثل ما يصل اليه الخيال في عمله المدهش عندما يحركه قصص جميل مؤثر.

لقد لاقيت أثناء الحرب رجلا في منتهى القسوة جاف القلب، كان طبيبا وكان يلوح أن مناظر البؤس والآلام والجراح لم تعد تؤثر فيه، وكان يحتفظ في اداء واجبه المخيف ببرود ارستقراطي تلونه السخرية في بعض الأحيان، ولكن حدث يوما أن دخلت على هذا الرجل فدهشت إذ وجدته وقد أغرفت الدموع وجهه وهو يقرأ كتابا عن الحرب كتابا يقص عليه نفس ما كان يرى كل يوم وكل دقيقة، ولو أنني كنت أجهل قدرة الألفاظ لاستطعت أن أدركها في تلك الساعة.

ولرب قائل يقول: (ولكن أليست وظيفة السينما أن ترينا الأحداث، ولو أنها أمسكت عن أن تعرض الأفعال والأشياء، إذن لتخلت عن ميزتها الأساسية، وأصبحت مهددة بالفناء. لست أدري، ولست أرى هذا الرأي، فقد يتفق أن يتكرم صديق فيقص عليَّ فلم أعجبه، وإذا باهتمامي يستيقظ لأن هذا الصديق ممن يجيدون القصص حتى لقد يبلغ بي الأمر أحيانا أن أذهب لأشاهد ذلك الفيلم، ولكني أكاد أعود دائما من مشاهدته خائب الأمل خيبة قاسية، فقصص الصديق قد جعلني أحلم، وأما الفيلم فقد جعلني انام.

عندما رأينا السينما، التي لم تكن تقدم إلينا غير الصور، تضم إليها الكلام، ظننا أنها ربما سمت بذلك وأصبحت إنسانية، ولكن التجارب التي رأيناها حتى اليوم تكاد أن تكون خائبة، فحديث كبار الشعراء يذوي ويموت عندما يمر بتلك الآلات.

وأما الأفلام التي يؤلفها المختصون المحدثون، فالكلام فيها بمثابة البطاقات، فهو يحل محل العناوين، وهو أقل من العناوين قابلية لأن يصبح دوليا، وهكذا نرى أن

الإشكال لا حل له. نعم لا حل له، ولو قال قائل أن مثل التراجيديا لا يصدق على السينما لما وجدت في ذلك ما يقنعني، فالسينما تعرض الرواية، ومهمة كل رواية هي أن تستثير اهتمامنا، وأن تؤثر فينا، وتبعثنا على الانفعال، فنبكي أو نضحك، والفن الروائي قد مضى عليه أكثر من عشرين قرنا بحيث لا يخلو من مجازفة أن نحتقر الدرس الذي يتمخض عنه تاريخ على هذا النحو من الخصوبة والغنى والمجد.

٦

ليس لمن يجازف في أيامنا هذه، فينتقد الحضارة كما خلقتها الصناعة، أن تأخذه الدهشة إذا لقي في تلك المعركة خصوما ورقباء، ومن الواجب أن نعرف أولا ماذا نريد، ثم إلى أي شيء نتعرض. فعندما أستمع إلى من يعيبونني بأنني من رجال القرون الماضية، وأنني لا أفهم شيئا في العلم ولا في التقدم، وأنني رجل ينتحب في غير موجب للانتحاب، وبالجملة بأنني أحيا حياة الكائنات العضوية المتحجرة اللافقرية، فإنني لا أنفعل لذلك انفعالا كبيرا.

وبودى لو أنني وجدت فراغا من الوقت، أن أظهر أو أشرح لمعارضي كيف أنني أملك ثقافة علمية محترمة، وأنى مرح المزاج، وأنني أعيش محاطا بشبيبة حية كثيرة العدد، وأنني أتمتع في اعتدال بكل ما أهدى إليه التقدم، وبالجملة إننى مازلت أتحرك وأنني (فقري).

ولكن ثمة انتقادات أخرى أحس بوقعها، فمنذ زمن قريب عاد جان رتشارد بلوك إلى تلك المناقشة في مقال حار كله إخلاص، وجان رتشارد بلوك أستاذ قدير في الجدل، واللون السياسي الذي يسبغه على كل ما يكتب، وبخاصة في الأيام الأخيرة، لا يسلبه في رأيي ما يملك من قوة وتأثير، فلننصت إذن لخطيبنا يقول: (إن الراديو من العوامل الأساسية التي أحدثت تغييرات عميقة في جو الشعر الذي يجب على الكاتب أن يلابسه إذا أراد أن يظل وفيا لرسالته).

وبالرغم مني ألقيت السمع، فها أنا قد أحطت دفعة واحدة بما ألفت من جو،

أنصت إذن، وسمعت ما يأتي: (آلان) و(فاليري) و(ديهاميل) لا يرون أن النفس البشرية قادرة على أن تساير خطى الحياة الحديثة مسايرة موفقة، فهم عندما يقدرون الثمار الرائعة التي استطاعت الروح أن تجنبها بفضل ما وصلت إليه الأزلية من نتائج قليلة خلال مئات القرون الماضية يرون بوضوح ماذا ستفقد تلك الروح بهذا الإثراء الحديث فيزداد سوء ظنهم بما ستكسب.

وهنا بلا ريب قد وجه إلى الحديث لا إليّ وحدي، بل مع غيري، وأنا لا أكره صحبة الذين وضعت معهم. ثم أن جان ريتشارد بلوك شرح لنا في فصاحة جميلة كيف انه من الواضح الا يستسلم أمثالي في غير تحفظ لتلك المعجزات الحديثة التي كان من أثرها أن نمت معرفة الجماهير بعيون المؤلفات، وذلك لأن جان رتشارد بلوك يرى أنه قد كان من سوء الطالع أننا بدلا من أن نغتبط بتزايد عدد السامعين هذا التزايد المفاجئ، قد حرنا في أمرنا إذ أخذنا نخشى على الفن من هذا الجو، جو الاجتماعات العامة، ثم لأننا، وهذه مسألة أخطر من السابقة، لا نستطيع أن نخفي حذرنا الغريزى من (أولئك الملايين من صغار الناس المجهولين المغمورين).

أبدا يا عزيزي جان ريتشارد لقد ضللت الطريق، وفصاحتك الكريمة ليست كريمة مع الجمهور. وإذا كنت قد أجدت الفهم يكون معنى هذا أنني ومن على رأيي قوم آخرون يريدون أن يحتفظوا لأنفسهم بالسيمفونية الخامسة، وبشعر أرتير رامبر وما إلى ذلك من كنوز.

إذ أن مجرد تصورنا لإمكان مشاطرة جمهور من النفوس الحارة للذاتنا الفنية كفيل بأن يذهب من نفوسنا كل شهية، إلخ، وأنا أعرف جيدا مثل هذه التهمة التي قد تكون قاتلة في بعض الأحيان، وهي ما يمكن أن نسميها تهمة الأرستقراطية.

وما أريد أن أرد هنا عن المتهمين معي، وإنما أرد عن نفسي فقط، وللنحِ في بادئ الأمر كل ما يتعلق بطبيعة ووظيفة وضرورة الممتازين من الناس، فأرستقراطية العقل والمعرفة موجودة، وهي في نظري الأرستقراطية الوحيدة، كما أنها جوهر وحياة

كل مجتمع سليم البناء، ولا داعي للإطالة في هذا. والوظيفة الحقيقية لتلك الأرستقراطية هي دون أن تتخلى عن مميزاتها ولا أقول إمتيازاتها أن تثقف الجماهير بطريق مباشر وغير مباشر، وأن تصل إليها وتقنعها وتستهويها بأنبل معنى الكلمة، لكي تحسن قيادتها، والممتازون من الناس يملكون لذلك عدة وسائل بل عدة مناهج، فهم يستطيعون أن يعملوا بضرب المثل وبالكلام وبالكتابة، وها هو عصرنا الحديث يضيف إلى ذلك السينما والراديو، وكل الوسائل يمكن أن تكون طيبة؛ إذ العبرة بالغاية التي نرمي إليها، فإذا كنا نريد لملايين من المجهولين ثقافة أساسية فإني أقول وأكرر، وسأكرر دائما أن الكتابة والكتاب بوجه خاص تحقق ذلك عى نحو أضمن مما تستطيعه كل السبل الأخرى، ولقد سبق أن قدمت براهيني على ذلك، ولن أعود إليها.

عندما يتهمني (جان رتشارد بلوك) أنا وأمثالي، أو على الأصح أنا ومن في حالتي، بأننا نحتقر أولئك الملايين من صغار الناس (المجهولين المغمورين) فإنه حقيقة يدفعني إلى الابتسام، فأنا أكتب لأولئك الصغار من الناس الذين خرجت من بين صفوفهم ومن أجلهم وأجل غيرهم أرسلت في أنحاء العالم عدة من الرسائل المطبوعة وكلما زاد عدد من يستمع إليّ ازدادت رضى وكبرياء. وهم يعلمون جيدا ويحسون جيدا، أو على الأقل يعلم ويحس منهم أولئك الذين لم يعموا بعد أبصارهم ويضلوا أفكارهم ويفسدوا نفوسهم أنه لو وجدت وسيلة، أعني وسيلة معقولة نبيلة، لجعل حياتهم أجمل وأسعد وأعدل جزاء لطالبت من كل قلبي بتطبيقها، ولبذلت كل جهدي لأساعد النفوس الخيرة التي تسعى لتكيون مجتمع أقل بربرية.

وإذ كنت الآن في الثانية والخمسين من عمري أي أن الجانب الأكبر من حياتي قد انقضى فأنا أقدم نصيحة طيبة، وسيقاتل أولادي كما قاتلت، فأنا أواجه المستقبل بنفس خيلة، وأعلم أنني أقول (احذروا الراديو إذا أردتم أن تثقفوا أنفسكم). وليس في قولي هذا أنانية، فهو منهجي الخاص أوصي به، ثم أنني بعملي هذا أسلح الجماهير ضد ألد أعدائها وأعني به (الطابعية).

الكتاب صديق الوحدة، فهو يغذي الفردية المحررة، فالرجل الذي يبحث عن نفسه في قراءة يخلو إليها قد يعثر بها، وإذن فهو يختار نفسه فيفلت من القوى التي تحاول أن تطويه تحت مذهب ما، والراديو على العكس من ذلك قد أصبح منذ الآن أداة لروح السيطرة، فهو لا يطهر الإنسان ولا يصرفه كالكتاب إلى الوحدة المقدسة، بل يسلمه إلى الوحش ويهيئه في مهارة لتلقي أسرار القطيع بسلاسلها ودمائها.

ولهذا أيها الـ "جان ريشارد بلوك" تراني؛ وقد انعقد عزمي على تنوير الجماهير بل وعلى خدمتها، وبالجملة على داء رسالتي، أصيح بكل من يريد أن يسمع (استخدموا الراديو ولكن لا تنسوا أن نحذره، ولتعتزلوا كل يوم لتقرءوا، ولتفكروا إن أردتم أن يجد كل منكم روحه، وأن يقويها، روحه التي لا تشبهها روح أخرى).

وعندما أحلل ذكرياتي أستطيع أن أقدر الدور الذي يلعبه التعليم الشفوي في تكوين النفس، وأنا أملك ذاكرة سمعية، إن لم تكن خارقة فهي في الحق طيبة، ومن ثم لا أزال أذكر بعض الجمل التي سمعتها من مدرسي منذ أربعين سنة.

وعندما ألقي السمع في صمت الليل يعاودني صوت الرجل بنبراته وإيقاعه ووقفاته ليسترد أنفاسه، والذي لا أشك فيه أن إيقاع الأستاذ الخاص أفعل من مادة حديثة، وهو يخاطب نفوسا فتية مرنة مفتحة المسام، فإذا كان قد وهب هبة الإنسانية. وكان حديثه مباشرا، وكان يحب مهنته ويصدر عن إرداة التضحية لخير الغير والنفاذ إلى نفوسهم فإني واثق من قدرته، وفي جو قاعة الدرس الأليف ألفة فيها من السر ما في ألفة البيوت والأسر، يفوه الاستاذ بأحاديث تتحدد بنفوس ناشئة، وتحيا فيها لزمن طويل، إلى أن تدق ساعة الفناء النهائي.

وكل تعليم لا يتوافر له هذا الانسجام التام، بمثول الإنسان وصوته، يلوح عقيما لا حرارة فيه ولا تأثير، ولكن ما يقدمه الأستاذ مباشرة من الفم إلى الأذن لا يعد شيئا إلى جوار ما يبصرنا بالبحث عنه في الكتب بأنفسنا، والأستاذ القدير هو من يدل على المصادر وعلى كيفية الاستيفاء منها، هو من يغرس في نفوس تلاميذه تذوق

الكتب والتحمس لها والنزوع إلى استطلاع ما بها ويظهرهم على منهج يسلكونه ليبحثوا عما يرغبون أن يجدوا.

وكثير من الأساتذة ينشرون دروسهم لا لكي يصوغوا أفكارهم صياغة نهائية فحسب، بل أيضا ليمكنوا تلاميذهم من الاعتماد على نص يعودون إليه كلما دفعتهم إلى ذلك رغبة في الاستيعاب أو ضرورة إلى المراجعة، والتلميذ الذي لا يسعده الحظ بإمكان الرجوع إلى نص مطبوع نراه إذا كان منظم الاجتهاد يدون أيضا نصا، وذلك بأن يكتب المذكرات ويقيد الجمل العابرة ويثبتها بالكتابة فيجدها تحت تصرفه.

ولن أمل تكرار القول بأن مصير الحضارة معلق بمصير الكتاب في ظروف عالمنا الإنساني الراهن، وأضيف إلى ذلك أن مستقبل الكتاب متوقف إلى حد بعيد جدا على انعقاد عزم أساتذة الجامعة. ومن الخطأ أن نظن أن المسألة واضحة ومسلم بها، فلقد بذلت في السنين الأخيرة محاولات عديدة لإدخال السينما والفوتوغراف، بل والراديو، في قاعات الدرس وخصوصا في التعليم الأولي، وإذا كان المقصود من الصور وأجهزة الأصوات التسلية باعتبارها ألعابا أو مكافأت فإني أفتح لها أبواب قلبي، وأما إذا كانت تمثل في نفوس المجددين وسائل جديدة للتعليم، فإني أطلب في إلحاح أن يدرس رجال مسئولين هذه المشكلة في هدوء وروية.

من الممكن أن يكون للصورة في بعض الأحوال قدرة على العبارة تفوق أدق حيل التدليل العقلي، وهي لا غنى عنها في بعض فروع العلم، كما أن الصور المتحركة تستطيع عند الضرورة أن تساعد الكلام على الأداء، ولكنه لا يجوز أن تحل محله. هذا ولنا أن نعتقد أنه في اليوم الذي تدخل فيه السينما إلى دور الدرس سيزداد بطبيعة الحال الميل إلى الاستعانة بها استعانة مطردة الزيادة، ولقد يخف بذلك الحمل عن الاستاذ، وهذا ما أسلم به، إذ أن الفصول وخصوصا في الجهات المكتظة بالسكان كثيرة العدد ثقيلة العبء، فمن الطبيعي أن يركن الأستاذ المنهك إلى الآلات

وأن يطالبها بالعون، ولقد يكون للسينما والفوتوغراف عندئذ من الفضل على المدرس مثل ما لآلات الإنتاج على ذوي الحروف اليدوية.

ولكنني برغم ما في ذلك من معنى إنساني أرفض قبول هذا الوضع، ومؤيدو هذا المنهج إن صح أن نجازف باستعمال هذا اللفظ بالسذاجة بحيث يدعون أن المعرفة التي تقدم على هذا النحو ستجد سبيلها إلى النفوس في يسر بل وفي مرح. ولكنني أعلن بكل قوة أن هذه حماقة، فالثقافة تتطلب الجهد: الجهد بأتم معانيه، أي النار التي تصهر، والمطرقة التي تثقف والمبرد الذي يشحذ، وبغير جهد لا يتعلم إنسان شيئا، والنفوس لا تتكون وهي تلعب وتقفز، نعم إنه لا بد من اللعب والضحك، ولكن على أن يكون ذلك مكافأة على مجهود طويل أديناه في صبر.

فليستعن الأساتذة الحريصون على أداء رسالتهم بأجهزة الصوت وبالصور المتحركة في بعض حالات نادرة في جملتها، ولكن ليبق الحذر يقظا في نفوسهم فلا يتركوا الناشئة التي تحملوا هم تبعتها تعتقد أنه من الممكن أن تنشأ النفس، أى أن تبنى، وتتكون دون الرجوع إلى النصر والكتاب والكتابة، والخطر اليوم ليس قويا إلا في التعليم وهو غير محسوس إلا فيه، ولكنه محسوس بوضوح وذلك لأن اليوم الذي سيتخلى فيه الأساتذة الذين هم خير أعواننا في الدفاع عن الحضارة عن غرس قداسة الكتب في نفوس الأطفال، سيكون يوم تهيؤ المدنية لبربرية جديدة.

٧

ليست الأزمة التي تهز العالم أزمة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، بل أزمة حضارة فكل المِشاكل تنهض بوجوهها المزعجة ومشكلات الثقافة هي، ويجب أن تكون من بين أولى المشاكل التي تشغلنا، فلقد ظهرت وسائل جديدة لتعليم الشعوب وتسليتها ونقل الأخبار إليها. ولقد لاقت تلك الوسائل حظوة لدى الجماهير، وأما عن قيمتها الحقيقية فذلك ما سيظهره المستقبل، ولكن الذي لا يمكن إنكاره منذ الآن هو أنها قلبت كل ما ألفت التكفير من عادات وأحداث، والذي أؤمن به هو أنه

هذه الوسائل الجديدة للأخبار والتسلية.

والتعليم إن أردنا يجب أن ينظر فيها نظرة فاحصة ناقدة مدققة، وهذا ما أنا بسبيل تكراره أن ينظر فيها نظرة فاحصة ناقدة مدققة، وهذا ما نحن بسبيل تكراره بإلحاح، ومن الواجب أن نحسب منذ الآن حسابا لما أحدثت تلك الثورة الحديثة من آثار، فالنص المكتوب لم يعد رسول الروح الوحيد، والكتاب قد هدد سلطانه، وإنه لمن الممكن أن يصبح قبل نصف قرن عديم الأهمية في نظر الجماهير، وأن لا يحتفظ باستعماله إلا نفر قليل جدا من الممتازين.

لقد حدثني أندريه روسو، يوما بأن قراءة المؤلفين الممتازين في الراديو، وهم الآن يقرأون بعضا منهم، قد تدفع الجمهور إلى معاشرة الكتب، وهذا ما أرجوه، وإن كنت لا أتمناه إذ لا ينبغي أن نسرف في توجيه الإنسان نحو أقل الجهود، ولكي ننتهي من هذه المناقشة ونعود إلى موضوعنا دعنا نقل بأن القراءة لحسن الحظ لم تمت بعد، ولننظر فيها من حيث اتجاهاتها وحاجاتها وطرق ممارستها العادية.

فالرجل السليم التكوين العادي التعليم في حاجة إلى أن يقرأ قدر حاجته إلى أن يستنشق أو يشرب، والظمأ إلى القراءة من القوة والاطراد بحيث نراه يطفأ باستمرار وبطريقة شبه آلية. فعلى نحو ما نرى الطائر طوال النهار يلتقط بمنقاره حشرة أو دودة أو حصاة أو برعوما أو فتاتا من خبز، كذلك نرى أعيننا تبحث بغريزتها عن الحروف المكتوبة في مشاهدة العالم، وتلك القراءة آلية وهذا يعد لفظا خطرا كثير الجريان على ألسنة أطفال القرن العشرين، وكثرة استعماله تدل على ظاهرة تستحق أن تسجل.

والواقع أنه يجب أن يكون هناك لفظان للتعبير عن القراءة على نحو ما نملك لفظين مختلفين للسمع والفهم، والنظر والرؤية، هناك قراءة إيجابية وأخرى سلبية بل حالمة ومن الواجب أن يعبر عن كل منهما بلفظ خاص، والنوع الأخير بعيد عن أن يكون عديم الأثر، وتجار الإعلانات يعلمون ذلك حق العلم.

ونحن عندما نعبر مدينة ما في عربة أو قطار ترانا نقرأ ولو في غير اهتمام ظاهر

كل ما يقع عليه بصرنا من إعلانات أو لوحات أو أسماء تجار أو أي كتابات أخرى، وما يلقى إلينا بإعلان أو تقع بين أيدينا ورقة إلا ألقينا عليها نظرة مجملة فاحصة، فنحن دائما على استعداد للتلقي أو بعبارة أصح لكسب المعلومات، وذلك لحاجتنا الملحة إلى المطالعة ولسيطرة عادة القراءة علينا سيطرة قوية تدفعنا إلى البحث عن غذائنا الروحي.

ونحن لا نتناول غذاءنا غذاء القراءة الحقيقية، كما نفعل مع أنواع أغذيتنا الأخرى في أوقات محددة تمام التحديد، وإن كانت قوائم هذا الغذاء تتكون من عناصر عادية يمكن تحديدها، فنحن نقرأ في الجملة جرائد ومجلات وكتباً.

ومن الواجب أن نخص الكتاب بمكان الصدارة، فالكتاب يسعى عادة إلى الخلود، وأنا أعلم أن لهذا اللفظ (الخلود) عدة معان، وأنني أستعمله هنا في معناه الإنساني الذي يضيق منه بؤس فنائنا، فالفكرة المكتوبة التي لا تموت بعد ثلاثة قرون نسميها خالدة وأبدية، وفي هذا إسراف في استعمال الألفاظ.

فنحن نعلم حق العلم أنه سيأتي يوم، بعيد بلا ريب، لا يبعث فيه اسم شكسبير أي صدى على الأرض، ومن يدرينا لعله كان هناك شكسبير آخر في القمر الذي نراه اليوم متجمداً. وأيا ما يكون الأمر فإني أكرر أن الكتاب يسعى إلى الخلود، وهو يتطلب مكانا في حياتنا الزمنية، وفي حياتنا الروحية، كما يرمي إلى أن يسكن بيوتنا وأن يكون في متناول بصرنا وأيدينا، وهو زينة في ذاته كزينة الرياش، وعندما نغلفه بالجلد أو بالأقمشة الثمينة أو بالذهب تراه يشبه الحلي، ونحن ننظر إليه نظرة حب وعرفان بالجميل. ونعلم أنه حاضر، ما نمد إليه يدا إلا سارع إلينا بحديثنا بما يستطيع أن يقول، وإذا عرفنا كيف نسأله رأيناه مستعدا للإجابة تمام الاستعداد، وثمرة الثقافة الحقيقية هي (أن نعرف كيف نستخدم الكتب) كما لاحظ (أندريه جيد) فيما أظن، وإن لم تكن تلك ألفاظه.

ونحن نطلب إلى الكتاب ما نسميه عناصر المعرفة، ونطلب إلى الجرائد معلومات

وعناصر وأخباراً. والجريدة ضرورية لرجل القرن العشرين فهي تفتح عينه عندما ينهض من فراشه فتوقظه وترميه بحفنة من الوقائع والآراء، والجريدة إفطار الصباح، وهي مكتوبة على نحو يحرك الخيال أكثر مما يثقف أي يكون الإدراك، هي تثير النفس وتقص الحوادث وتعرض الآراء، وفي كل يوم تلجأ إلى حيل جديدة في الطباعة، كما تخصص للصور التي لا تطلب أي جهد مكانا يزداد يوما بعد يوم، فهي تسعى أولا إلى استهواء القارئ، وهي لا شك تقدم إليه أفكارا وقواعد وقليلا من عسل الأدب ومن جوهر الفلسفة، ولكنها تحمل إليه قبل كل شيء زادا من أكوام من الحوادث اليومية التي لا تزال حارة.

ومن ثم نرى أن الجريدة التي قد بردت لا يكاد يكون لها طعم، ولا معنى، والجريدة كالليمونة التي نعصرها ونرمي قشرتها، فبمجرد أن نقرأها نراها تنزلق إلى سلة المهملات، فهي لا تكاد تضاف إلى أثاث منازلنا، ومن النادر أن نعود إليها إذا مرت السنون لنسألها أو نستشهد بها.

وفي خلال السنوات الأخيرة غيرت المجلة من منظرها والتمست لهذا مظهرا جديداً، فلدينا اليوم المجلة الأسبوعية التي تحافظ على مظهر الجريدة، وإن قدمت مادة أغنى، ولجأت إلى شيء من التراجع في الزمن لتحكم على الوقائع والناس.

والأن فلنبحث عن مكان المجلة والدور الذي تلعبه، والمجلة تجمع بين الجريدة والكتاب، وهي كما يدل عليها معنى لفظها الاشتقاقي تسعى إلى أن تستجلي أي توضح حقبة من العالم، وهي تظهر مرة كل خمسة عشر يوما، وأحيانا مرة واحدة فقط في كل شهر، ولها على الحوادث اليومية نوع من الرقابة، وهي تصفي تلك الحوادث أو على الأصح ترفع من قيمتها، إذ يمر ما يعلو تفاصيلها من غبار بمنخلها فيختفي، ولا يبقى منها إلا ما يصلح لأن يكون غذاء لتكوين النفوس الحريصة على ذاتيتها، فالمجلة الحقيقية يجب أن تحمل أثرا لكل ما يحدث في العالم من أمور مهمة، إذ من واجبها أن تعلق على الكتب وأن تذكر الحوادث، وأن تحكم على أعمال الرجال

وتظهر أخلاقهم.

المجلة التي تستحق هذا الاسم جديرة بأن تقدم علاوة على ما سبق، تآليف جديدة قادرة على أن تعكس الروح الخالدة في مغامرتها اليومية، إذ يجب أن تكون عالما صغيرا ترتسم فيه عناصر العالم وتفصل تبعا لدرجة عظمتها وأهميتها الحقيقية.

ومثل هذه المطبوعات تشاطر الكتاب حياته لأنها تأخذ مظهره لا مظهر الجريدة، وهي لا تموت فورا إذ تسير إلى إحدى رفوف مكتباتنا وتستقر به حيث تبقى، كالكتاب، تحت تصرفنا، وكثيرا ما نرجع إليها فتجيب على أسئلتنا وتذكرنا بما كانت عليه في هذه السنة، أو ذلك الفصل أعمال الناس ومؤلفاتهم وأفكارهم وطرق إحساسهم أو تعبيرهم؛ فللمجلات مكان وسط بين الكتب والجرائد، وهي لازمة لحفظ التوازن العقلي في تلك البلاد التي تعتبر اليوم مسئولة عن كنز حضارتنا.

ولقد مضى الزمن الذي كانت تتألف فيه كل ستة أشهر جماعة من الكتاب لإصدار مجلة أدبية، وإن كان بعض من القراء الشبان لا يزالون حتى اليوم يفعلون ذلك على نحو مصغر وبثمن قاس من التضحيات، فالورق غالي الثمن والطبع غال، وإقبال الجمهور ضعيف، وانتباهه تجذبه آلاف من الوسائل وتستلبه، فحياة المجلة لا تتطلب مالا فحسب، بل وكثيرا من الجهد، وبخاصة من الإيمان والحب، كما تتطلب تجردا تاما عن الحرص على المنفعة المادية.

ولن يغيب عن بعض من يلاحظون العالم الحديث أن يستنتجوا أن العالم بلا ريب في سبيل التطور، وأنه لم يعد للمجلات إلا أن تختفي، ولكني مازلت أعتقد أنه لو تم ذلك لكانت فيه كارثة. فالمجلات تمثل نوعا من النشاط العقلي يلوح لي أنه ألزم ما يكون في هذا العصر المضطرب، فهناك من مجهودات الروح المستمرة النشاط، والتفكير الدائم الخلق، والدراسة النشطة ما لا يستطيع أن يظهر إلا بفضل أحدث المجلات الأدبية؛ فالكتاب ضخم بطئ، والجريدة موجزة عابرة، وهناك مجال لمعالجة الحوادث والرجال والكتب ونقدها، يتطلب المجلة التي هي الرسول الطبيعي للروح

اليقظة وللفكر الذي لا يريد أن يتخلى عن رسالته.

فاختفاء مجلة أدبية في الوقت الحاضر يعد كارثة على التفكير المهدد في نشاطه وفي وسائل إذاعته، وأما المذاهب فلم يعد لها حديث إذ لم يعد لها وجود ولم يبق في العالم إلا قضية واحدة هي الروح الحرة التي تحتفظ بكنوزها وتدافع عما احتلت من أماكن.

لن أنقطع عن أن أقول لمعاصرينا أن قضية الطباعة قضية مقدسة، ولكنها في خطر محدق، وأن تذوق القراءة في اضمحلال تام، وأنه من الواجب أن نبحث عن علاج لهذه الظاهرة التي أعتبرها كارثة على الجنس البشري، وأنا أفعل ذلك مدفوعا بإيماني الحار بأني أخدم بقولي هذا الهيئة الاجتماعية التي ولدت فيها، بل وأخدم الإنسان في ذاته.

وصيحتي لا تذهب في واد وخراب، إذ أن أصواتا أخرى قد ارتفعت، ولقد اقترحت حلولا، أما عن نوع تلك الحلول وقيمتها. فمعظمها فيما أحسب ردئ حتى ولو كانت صادرة عن نزعة خيرة، ولقد حاول باعة الكتب وحدهم تقريبا حتى اليوم أن يبحثوا عن وسيلة يقاومون بها انصراف الجمهور عن المطبوعات، ولنترك الآن إلى ما بعد تلك المشكلة الخطيرة، مشكلة الإعلان التي تحدثت عنها اكثر من مرة وإنني يلوح لي أنه قد أسيء فهمها.

لقد ظن تجار الكتب، رغبة منهم في أن يثيروا حماسة جمهور ذاهل غافل موزع الأهواء أنهم يحسنون صنعا إذ يحلون تجارتهم بأنواع من المغريات لا تمت إلى بضاعتهم بصلة، فحاولوا لكي يبيعوا الكتب أن يبيعوا معها شايا ومشروبات روحية، وبذلك هموا بأن يحولوا محلاتهم إلى ما يشبه صالون مقابلات يستطيع أن يلتقي فيه الزبائن ويجلسوا ويتمتعوا بتافه المسرات.

وعندى كما قلت في كتاب غير هذا أن المكتبة الحقيقية يجب أن تكون كندوة يجتمع فيها المثقفون ليتبادلوا الآراء ويتحدثوا عما يفضلون ويتعرفوا أذواق الآخرين،

وفي الحق أني لا أريد أن أثبط من محاولات خيرة تعمل بقصد طيب، ولكنني لا أرى خيرا في أن نخضع قضية الكتاب التي هي أخطر قضايا الساعة إلى عادات الصالونات.

وبدعة موضة الأهداء لم تحسن من موقف الكتاب، وإن أثقل باعة الكتب والمؤلفين بالتزامات جديدة، ولقد ناهضت غير مرة تلك العادة، ومع هذا فقد لا يخلو من فائدة أن نعود إلى الحديث عنها في ألفاظ قليلة، فإنه ليس في ممارسة الإهداء ما يمكن أن ينجو بالكتاب وبالثقافة؛ فالجمهور قد انتهي إلى الاقتناع بأن الإهداء بخط اليد هو المكافأة الحتمية لكل مشتر، ومع ذلك لم يزدد شراؤه للكتب، ولكنه أصبح يرى من حقه الإصرار على طلب قد أخذ يعقد منذ الآن عمل بائع الكتب، ويقلق الكاتب، ويسبب ضياعا في الوقت، ويكلف نفقات ويولد منافسات وينال من كرامة مهنة لا يتوافر لها الجو الملائم إلا في الصمت والوحدة فالإهداء إلى كل الناس لم ينتج عنه للكتاب غير الشر، وسيظل عالقا به كافة لا علاج لها. ولقد رأينا منذ حين فنانة روحية موهوبة، تكتب إلى الناشرين الباريسيين خطابات جميلة مؤثرة، تقترح عليهم احتيالا جديدا، كانت تريد لكي تجذب القراء أن تنظم عند باعة الكتب في باريس وربما بمدن الريف أيضا حفلات موسيقية يشترك فيها فنانون معرفون.

وفي الحق أن الإنسان لا يملك ألا يتأثر بكل هذه المحبة الكريمة، ولكني أعلن أن كل هذه المحاولات نابية بل مستطيرة الشرر. ثم ماذا، الكتاب مستقر التفكير الإنساني، والمهد المقدس لكل معرفة وكل تجربة، ثم نضطر لكي نكسب له أنصارا ومحبين أن نضرب على الطبل وننفخ في المزمار وأن نستعين بالمغنيين والممثلين ومن إليهم، ومن يدرينا لعلنا نلجأ في المستقبل إلى الحواة والراقصين على الجبال.

ما هذا، نريد أن نعود برجل القرن العشرين القلق الشارد اللب إلى احترام القيم الروحية والعقلية، وأن نرده إلى التفكير والتأمل فنضطر في سبيل ذلك إلى أن نسكب له الخمر في القداح، وأن نعزف له على آلات الطرب، بل وأن نرقص معه،

المكتبات معابد الروح، فهي الأمكنة التي يدرك فيها الإنسان سر عظمته الحقيقة، ومع ذلك نرانا مضطرين إلى أن نقدم فيها أفلاما مجانا، ثم ماذا، يا إلهي، بطاقات تبغ وأعواد من صابون الذقن وزجاجات من ماء الأسنان، إلا أنه لو صح ذلك وقد صارت الأمور إلى هذا الحد لحق لنا أن نقول أن العالم في مرض شديد.

لا.. لا.. يجب أن نفهم الجمهور أن الأمر يتعلق بمصحلته هو، فالرخاء والعدل الاجتماعى ومسرات الحياة الزمنية ولذائذها، وبالجملة التقدم في كافة مظاهره المحسة، كل هذا خاضع لرياضة ملكاتنا العقلية رياضة مطردة منسجمة. وأنه بدون الكتاب الذي هو مستودع تراثنا الروحى الأمين، ستصبح حياة الفرد وحياة الجماعة عرضة لأن تهوى في نوع من البربرية لن يستطيع على الأرجح أبناؤنا ولا أحفادنا أن يروا لها نهاية.

يجب أن نفهم جمهور الناس الصادقي العزم أن تقديس الروحيات هو الشرط الأساسي لكل حياة نبيلة جميلة خصبة، وأن الكتاب هو رمز ذلك التقديس، وما يجوز أن نحمل رجل الشارع على الاعتقاد بأنه إذا اشترى كتابا سيشهد حتما جلسة في سامر أو ساعة في أوبرا بل ولا (دور صراع) أو مسابقة ثيران، فإن كل رجل القرن العشرين لم يعد يستطيع أن يحب القراءة لذاتها فلينصرف عنها، وبذلك نضع على الأقل حدا لتلك المهزلة المزرية بالذكاء الإنساني.

وكثرة المعارض على نحو ما نرى في أيام الكتب تلوح لي فكرة موفقة وهي لا شك منتجة، وأما ما يزيد القيم اختلاطا ويلقي الاضطراب أو ينميه في نفوس تستهويها منذ حين الخرافات والأسراب، فذلك ما يلوح لي ضارا كله ويجب أن يحظر.

وأنا أعلم أن الناس في بعض البلاد يرون الاستعانة على خدمة القضايا الروحية البحتة، كالدين مثلا، بالأعلام ومواكب الموالد والإعلان بالأضواء، ولكن هذا هذيان فيما يلوح لي، وإلا لجاز أن ندعو إلى الصمت بإطلاق المدافع، أو إلى العزلة بإقامة منابر في الأسواق.

يجب أن تنجي الروح الروح، وأن تنجي الكتابة الكتابة، كما يجب أن يكفي القول للدفاع عن القول، فعلى كل من يؤمن بقيمة منهج قد أثبتت قرون من التجارب صحته، وعلى كل من يرى أن الكتاب هو رمز سمونا على كل هؤلاء أن يوحدوا صفوفهم من أجل تلك الحرب الصليبية التي قد دقت ساعتها.

٩

ليس استخدام الإعلانات في تجارة الكتب بالظاهرة الحديثة، فلقد رأينا حيل الإعلان من قبل الحرب بل ومنذ زمن أبعد من ذلك بكثير تتمكن من أن تغري الناشرين والمؤلفين، ولكننا في الحق لم نستطع أن نحكم على تلك الوسيلة وهي لم تعمل إلا منذ الحرب، ولقد نمت تلك الظاهرة بسرعة حتى ليمكننا أن نقول أن خمسة عشر عاما قد كفت لتأتي تلك التجربة بنتائج دالة، وتلك النتائج تمس من جهة أخلاق الكتاب، ومن جهة أخرى موارد النشر.

وقبل أن نقدر الفوائد المادية التي أتت بها الإعلانات أقول أنها قد اضطرت من الناحية المعنوية بقضية الكتب، وهذا ما يجب أن ننظر فيه بهدوء وفي غير جري وراء الخيال؛ فالخلق الأدبي عمل روحي قبل كل شيء، والقراءة وظيفة لا تقل روحية عنه، وبين الخلق والقراءة مجال لمغامرة تجارية صغيرة، فالكتاب بضاعة تزجى كغيره من الأشياء أمثال الصليب وكأس التناول والقربان (ولكل شيء ثمنه) كما يقول تومابلوك ناجوار في مرح صريح.

ومن الحكمة أن نقبل هذه الحقيقة دون أن نزيدها سوءا بشتى الاعتبارات، فلقد رأيت إعلانات عجيبة عن نبيذ التناول، ولقد نفرت منها نفورا عنيفا، فلكل شيء ثمنه فليكن ولكن هنالك من أنواع التجارة ما يجب أن يحتفظ بشيء من التحفظ، بل من الحياء، وعلى وجه أدق باحترامه لما يتجر فيه، والإعلانات الأدبية بما صارت إليه من إسراف قد ذهبت بكرامة الكتب، ونالت من شرفها في نظر العالم كله، كما أنها قد فعلت ما هو أخطر من ذلك، إذ أطلقت في نفوس المؤلفين أنواعا من الشهوات الموجبة للأسف.

فهي أولا قد نمت نزعة الكسب غير المشروع بطرق تكاد تكون آلية لا دخل للكتاب فيها ولا للموهبة، وهذا حساب شديد الخطأ، فالمؤلف الحكيم الماهر مهارة حقيقية لا يجوز له أن يغفل استجابة القراء لما يكتب، وأنى له بمعرفة تلك الاستجابة إذا أدخل في هذه الكيمياء الدقيقة أنواعا من العوامل التي لا يتحكم هو فيها دائما أو غالبا، وأهم أمر بالنسبة للكاتب – حتى ولو كان من الحريصين على الفوائد الزمنية – هو أن يدرك تأثيره على القراءة تأثيراً دقيقاً والإعلانات قد جعلت كل محاولة لاستنتاج كهذا مستحيلة استحالة تامة.

ولقد نمت الإعلانات بين المؤلفين منافسات صبيانية إذ أظهرت عندهم رغبات ونزعات لم تزد بلا ريب من الاعتبار الذي يحمله الناشرون للمؤلفين، فلكم أضنت النفوس حاجتها إلى أن ترى كل يوم اسمها وصورها في الجرائد السيارة، وأخطر من ذلك أن فن الإعلان قد داعب في أول الأمر كبرياء هؤلاء الأطفال الكبار الذين هم وسيظلون رجال الأدب ثم انتهى بأن عذب ذلك الكبرياء.

لقد جمعني مرة صالون ريفي بسيدة اسمها معروف للجميع، إذ أنه لصق منذ ربع قرن بمشروب ظهرت ولا تزال تظهر عنه إعلانات لا حصر لها، وحدثتنا تلك السيدة عن زوجها صاحب القطارة في سذاجة كبيرة ثم انتهى الحديث إلى الإعلانات، فابتسمت قائلة في فرح باد (إن زوجي في منتهى الرضى) فأجبت (نعم فهي ترد الربح) ولكن السيدة عادت تقول (ليس هذا فقط هو سبب رضاه، فقد رجع زوجي منذ أيام من باريس وهو مشرق حقا، وقال لي (لقد رأيت اسمي في كل مكان.. حقا إن هذا النجاح تام).

وفيما كنت أنصت لتلك السيدة الطيبة اكتشفت أحد أنواع الاسترقاق العجيب الذي تفرضه الإعلانات الحديثة على النفوس فهي تكسب وتقنع أولا من يستخدمونها، فالرجل الذي يحرر (نرجو أن تدرجوا) تلك الأسطر المتهللة والعبارات الصاخبة، لا يلبث أن يقع هو نفسه في الفخ، إذ سرعان ما ينسى أن هذه الأحكام الهاذية إنما هي من ثمار مخه

هو، ولا يزال يداعب نفسه حتى ينتهي به الأمر إلى أن لا يصبح قادرا على تذوق مديح الغير، فيلوح له نقد النقاد على خير ما فيه، وهكذا يفقد كل ملكة للنقد ثم كل مقدرة على الحكم، حتى ليلوح له أن كل شيء كالبيرة الفاترة بعد تلك الخمر القوية التي أعدها بنفسه وقطرها كما يريد بأحد تلك المعامل الأجيرة.

ولو أننا قصرنا نظرنا على الأصول الأخلاقية، لقررت أن الإعلانات الأدبية تلوح لي سيئة الأثر، وهل نستطيع أن نقول أنها تعوض الضرر بما تأتي به من نتائج اقتصادية، وهل من الممكن أن نعتقد أن الإعلان الذي يوشك أن يزري بالأدب يخدم ذلك الأدب نفسه، إذ يعمل على البسط من سلطانه، ذلك ما لا أعتقد.

من الواضح لأول نظرة أنه قد بيعت كتب كثيرة بفضل حيل الإعلانات التي لولاها لما غادرت تلك الكتب مخازن الناشرين، بل ربما كان لها أثر في زيادة انتشار كتب ممتازة إذ زادت في نسبة بيعها، ولكن ما حكم الجمهور على هذا العمل، يجب أن نقول أنه قاس، وذلك لأنه قد لا يكون من السهل أن نقدر مفعول أحد الأدوية الجاهزة وخصوصا عندما تكون لتقوية الدم أو تنقيته، ولكننا نستطيع بسهولة أن نكتشف أن مطالعة كتاب ما رغم الإعلانات الخاصة تضايقنا وتتعبنا بل وتثيرنا.

ولكم رأينا الجمهور الذي يسلس قياده في أول الأمر، يدرك أنه قد خدع فيستشعر من جراء ذلك حفيظة تمتد إلى كل الكتب جيدها ورديئها، ثم جاءت الأزمة فزادت الهوة سحقا، فشراء كتاب خدعوا لا يعتبر كارثة أيام الرخاء.

وأما أن تلقي خمسة عشر فرنكا من النافذة أيام البقرات العجاف فتلك مغامرة تثير الحنق، وهكذا فر الجمهور فتحفظ، وهوى الكتاب الذين كانوا مدينين بشهرتهم إلى حيل الإعلان، وأما الآخرون فإنه وإن يكن الأذى الذي مسهم أخف فإنهم قد أحسوا رغم ذلك وقع انصراف الجمهور وسخطه. ومن الممكن أن نقول أن تلك التجربة الأولى قد انتهت اليوم تقريبا ولكن ما هي النتائج التي تمخضت عنها؟

لقد قضى الناس في تلك الإعلانات الصاخبة التي تسرف في المديح بغير حياء

بحيث لم يعد يأخذ بها إلا عدد قليل من المعاندين، وأنا لا أعتقد أنها تساوي نفقاتها، إذ أنه عندما يكون الأمر أمر كتب جدية، فإنها قد تساعدها مساعدة خفيفة، ولكنها لا تستطيع أن تغير ما قدر لها من مصير. وأما إذا كانت الكتب رديئة فإن الإعلانات لا تأتي بنتيجة، وفي كثرة نفقاتها ما صرف الناشرين القلقين عن الالتجاء إليها، وكل الكتاب الموهوبين قد انتهى بهم الأمر إلى العدول عن الشعوذة المزرية التي تستطيعها تلك الساحرة الحمقاء.

ولكن هل معنى هذا أن الإعلانات الأدبية قد فقدت المعركة نهائيا طبعا لا، إذ لا بد لتلك الأزمات الجنونية من أن تخلف أثرا؛ فلقد كان الجمهور فيما مضى يذهب إلى باعة الكتب ليسأل عن المطبوعات الجديدة، أي أنه كان يسير إليهم. وكان النقاد يقودون أحيانا هذا الجمهور، وذلك عندما كان الأدب لا يزال يتمتع بهذا الامتياز الخاص، وهو وجود النقد، حتى ولو كان لاذعا، وأنا عندما أذكر النقد أذكر أن فن الإعلان لم يخطئه هو أيضا، فقد مسه بأذاه، وهذا ما نعتبره زيادة في المحنة، ومن ثم يريد الجمهور اليوم أن تصله أخبار عن كل شيء في المنازل ومنذ الصباح، وعنده أن من واجب الإعلانات أن تؤدي على الأقل تلك المهمة.

ولو أن الإعلانات الأدبية اقتصرت منذ الآن، كما نؤمل على مجرد ذكر الكتب الجديدة لما وجدنا حرجا في أن نحكم بأن الضرر في جملته محدود، وإن كانت تجارة الكتب ستثقل لذلك بزيادة في النفقات، وأما عن كرامة الأدب فلست أظن أنها ستخرج معززة من هذه المغامرة الخطرة.

١٠

أظن أنني قلت أنه يلوح لي في ظروف العالم الحالية أن الكتاب إن لم يكن الأداة الوحيدة للثقافة الحقيقية، فهو بلا ريب الأداة الأساسية، ومع ذلك فإن تجارة الكتب أردأ التجارات تنظيما، فهي في فرنسا على الأقل متروكة للصدفة والأهواء والطرق البالية والمحاولات المسرفة في الجرأة والتجارب على غير بينة.

نعم إن مهنة الناشر مهنة شاقة، ولكننا مضطرون إلى أن نقرر أن الناشرين لم يبذلوا غير القليل من الجهد في مواجهة مشاكل مهنتهم الأساسية وعلاجها، فعند الكثيرين منهم أن بيع الكتب تجارة كغيرها من التجارات، والكتاب بكل بساطة بضاعة تزجى.

ولنسلم بأن الكتاب يقاسي في شدة، وبخاصة في وقتنا الحالي منافسات خطرة، ولقد تكلمت عن ذلك في إسهاب، فلا داعي لمعاودة هذا الحديث، ولنسلم كذلك أن الاضطرابات الاقتصادية قد زادت أزمة الكتب تعقيدا، وليس هذا الوقت ملائما لأن نقترح على الناشرين برنامجا للخطط والإصلاحات، وحياة الكتاب الاجتماعية تثير طائفة من المشاكل بعضها نفسي بحت، فالعناصر العامة والخاصة للنجاح والفشل وتأثير الظواهر السياسية وتغيرات المواسم والأذواق والنظم وحياة الكتاب في الزمان والمكان، أي تاريخ كتاب ما أو مجموعة ما من الكتب وجغرافيتها.. كل هذه مسائل كانت تستحق لو أننا كنا في وقت خير من وقتنا هذا أن نفحصها، وأن نجري فيها تجارب ربما أعطتنا عناصر خطة نتبعها، فالكتاب شيء حي، وعلم حياة الكتاب لا يزال ينتظر من يخلقه من العدم.

ولكن لا داعي للتفكير في هذا الآن؛ فالوقت عصيب، ولنقصر تفكيرنا على بعض الإصلاحات المباشرة ولنقترحها بالفعل، وإن كان لا يجوز أن ننسى أنه ليس في عالم النشر أي نظام يحكم تلك المهنة؛ فبين الناشر والجمهور وسيط لا بد منه هو بائع الكتب صاحب المحل المفتوح، وليست تجارة الكتب من التجارات التي يمكن أن يحاولها أي إنسان دون أن يعد نفسه لها إعدادا خاصا؛ فهي مهنة تتطلب معرفة فنية وتجارب ومناهج وملكة للملاحظة وفهما للنفوس، فبائع الكتب الحقيقي مهما كان مرهقا بالعمل المادي، يجب أن تكون له آراء عن المؤلفين والمؤلفات، فهو يوفر دائما وقتا على القراءة وجمع المعلومات. ومن واجبه كالأطباء والمحامين أن يعرف زبائنه فيلم بمهارة بلذات (أونيزيم) وشهوات (تيوديل) ومحن (بريجيت) وآراء (إيزيب) وبائع الكتب الجدير بهذه المهنة لا يكتفي بملاحظة الناس لكي يبيع كتبا كثيرة ويكسب من

هذا البيع، ولكنه يتدخل في الأمر فيحاول أن يملي كلوديل على البعض ويقرب جيرودو الآخر، وأن يبذر هنا جيد ويطعم هنالك مورياك إلى البعض

وبائع الكتب الذي يحب مهنته بتفوق، استجابة الأفراد الدقيقة، تراه يفكر والكتاب بيده (سأحاول أن أجعل ماتياس يتذوق هذا الكتاب، لربما وجدت في ذلك مشقة ومع ذلك فلتحاول) وباستطاعته أن يلعب على كل الأوتار مهما رهفت، لقد سمعت أحد هؤلاء الباعة يقول يوما في حضرتي لأحد زبائنه: وما هذا؟ أنت لا تحب هذا الكتاب هذا أمر غريب.. إن المسيو برنابيل أيضا لا يحبه، ولذلك كنت متأكدا أن هذا الكتاب سيروقك.

وانا أعرف باعة كتب من هذا النوع، وباستطاعتهم لو أرادوا أن يشكلوا روح مدينتهم كلها وأن يحركوها بل وأحيانا أن يقودوها.

وفتح مكتبة يتطلب رأس مال لا يمكن أن يكون حقيرا، فالمصاريف النثرية كبيرة، ولا بد لصاحبها من تليفون ومعدات كاملة للفهارس والنشرات، وأخيرا هو في حاجة إلى موظفين مثقفين أو كما يقولون مختصين، وهنالك مكاتب حقيقية في كل مدن ريفنا التي لها أهمية ما ومنها عدد كبير بباريس، وحياة تلك المكاتب عنصر مهم في مشكلة الكتاب، أي في مشكلة الثقافة، كما سبق أن قلت غير مرة.، ووجود تلك المكاتب مهدد اليوم لسبب يلوح معكوسا، ومع ذلك فمن الواجب أن نفحصه في شجاعة وهدوء.

لقد بذل الناشرون – ظنا منهم أنهم بذلك يخدمون قضية الكتاب ومن ثم مصالحهم التجارية – مجهودا يذكر وبخاصة في الخمس عشرة سنة الأخيرة ليكثروا من عدة مستودعات الكتب، ووجهة نظرهم بسيطة أو على الأقل مبسطة (رجل الشارع لا يشترى كتبا لأنه لا يغري بذلك)، ولأنه لا بد له من السير إلى أقصى الأرض ليحضر كتابا ما، فلنضع الكتاب تحت بصره وفي متناول يده، لنودع الكتب في كل مكان يستطيع أن يجدها فيه من يرد، فبذلك يقبل عليها الجمهور.

وأصبحت تجارة الكتب تجارة ملحقة بجملة من التجارات الأخرى، ولقد اتفق

أحيانا أن رأينا بائع الكتب الحقيقي يضطر إلى أن يستعين على مهنته الشاقة ببيع أدوات جلدية أو أدوات للكتابة، ثم انقلب الموقف فرأينا الكتب تلحق بكافة أنواع البضائع الأخرى، فوضعت في محلات السجاير وعند الحلاقين، بل وفي الحانات.

هل يعد هذا انتصارا؟، لا أظن ذلك أصلا، نعم إنه من الممكن أن تكون بعض الكتب قد بيعت بفضل هذه الطريقة الجريئة، ولكنها تحمل خطرا كبيرا، إذ أنها تهدد حياة المكاتب الفنية. وأنا لا ألوم من تودع عندهم الكتب فهم يوعدون بكميات كبيرة منها كما يغرون بتجارة مربحة لا مجازفة فيها، يقال لهم عنها إنها لا تتطلب أي كفاية خاصة ولكني لست واثقا من أن تكون التجارة التابعة ذات نفع عظيم لهم، بينما لدي ما يحملني على الظن بأن تجار الكتب الفنيين يقاسون من هذه الحالة، وفي ذلك خطر واضح.

والرجل الذي يريد أن يشتري كتابا، الرجل المنعقد العزم لا يهوله أن يقلق نفسه بالذهاب إلى من يبيع له الكتب، وأما القارئ الذي نغريه بتعدد المستودعات فقارئ عابر لن يغدق الثراء على صاحب المستودع وإن نقَّص من الربح المشروع للبائع الفني، وهذا الأخير الذي لا يستطيع أن يضغط من مصاريفه النثرية، بل في الغالب ولا من عدد موظفيه لن يلبث أن يلعب لدى الجمهور دور بائع الكتب الذي لا أجر له يأتي الناس لرؤيته عندما يحتاجون إلى السؤال عن شيء ما.

وهل من الضروري أن نضيف أن تعدد المستودعات لا يمكن أن يخدم قضية الكتاب، وأنه على العكس يحط من قدرة، فالجمهور المتراخي سيعتاد أن يجد الكتاب مختلطا حينا بالمعازف وحينا آخر بالخردوات، والكتاب الذي هو رسول الروح لا يمكن أن يكسب من جيرة كهذه بينما تنمو روح الخلط وتستطير.

لقد أحصوا في الحي السادس بباريس مستودع كتب لكل مائتين وأربعين ساكنا، وتلك النسبة تنحط دونها بكثير كل المهن والتجارات الأخرى، حتى تجارة النبيذ نفسها. فهل بعد ذلك يقال أنني أقلب الحقائق إذ أصيح بهذا الخلط؟

١١

لا يمكن أن نتحدث عن مشكلة الكتاب دون أن نقول بعض كلمات (قاعات القراءة) وتلك خصومة عجيبة لم يفصل فيها بعد، وهي باحتدامها تحمل على الظن بأن مصير الكتب لا تتحكم فيه الآن مشكلات أشد من هذه الخطورة، ومع ذلك فهي تستحق لما تثيره من اعتبارات مهمة أن ننظر فيها بوجه عام. وهم يسمون (قاعات القراءة) تلك المحلات التي تؤجر المجلات والكتب، ومقدار الإيجار متفاوت، وهو قد يكون اشتراكا عاما، أي مبلغا محددا من المال أو تعويضا عن كل كتاب يعار لمدة من الزمن، كما يمكن أن يكون مزيجا من النظامين، فالكتاب سلعة تجارية يملكه فيما يظهر من يشتريه ملكية نهائية.

ولهذا المالك حق يلوح مطلقاً، فبإستطاعته أن يعدمه أو أن يهديه لشخص آخر، وأن يعيره مرة ومرات، بل عشرات ومئات المرات، كما يستطيع في حالتنا التشريعية الراهنة أن يؤجر دون أن يأخذ رأي أحد، وأن يجني من وراء ذلك فوائد لا تحصى.

ولقد رأى بعض المؤلفين في تلك الحرية التي للمشتري ما يتنافى إلى حد ما مع قواعد الأخلاق، إذ أنه إذا أصبح الكتاب بعد شرائه موضوعا لمعاملات تجارية ينتج عنها ربح فمن العدل والحكمة أن يكون للكاتب من هذا الربح نصيب.

ولقد استشهد الكتاب في ذلك بحالة المصورين، ومن المعلوم أن بعض اللوحات التي يشتريها الهواة بثمن محدد نهائي تباع ثم تشترى ثم تباع مرات كثيرة بوساطة هواة آخرين أو تجار أو مصالح تعمل باسم الهيئات الاجتماعية. ولقد يحدث أن يجني كل هؤلاء الأشخاص من وراء هذا التداول أرباحا طائلة كما تجبي الدولة الضرائب عن كل عملية من تلك العمليات، وكذلك من الوسطاء من يذهب بنصيب من الربح، ولا يحرم من فائدة تلك العمليات المربحة غير الفنانين مصدر خلق تلك السلع، ومن المعلوم أن المصورين ومحاميهم قد كافحوا كفاحا له ما يبرره منطقيا ليكون لهم حق التتبع.

وعلى هذا النحو دعا الكتاب إلى منحهم حقا يشبه حق التتبع على الكتب

التي تؤجرها محلات القراءة، ودخلت الجمعيات الأدبية في تلك المناقشة التي لم تنته بعد إلى حلول نهائية. والمسألة ليست بسيطة، إذ أنها تتطلب حسابات بالغة التعقيد، ولكن المختصين يحتجون بأن تحصيل الضرائب من الشركات المختصة، بنسخ الصور أو عرضها قد أثارت مشاكل عويصة، ومع ذلك قد حلت تلك المشاكل بمهارة، الواحدة تلو الأخرى.

ونحن نرجو أن يصبح من الممكن (مسك دفاتر) حقوق المؤلفين على حد تعبير الأخصائيين، كما نرجو أن تنتهي هذه الخصومة إلى اتفاق يرضي الطرفين، ولنبعد عن ذلك في غير وجل. لا شك أن للمؤلفين حقاً، وهذا ما لا أرى مانعا من التسليم به في أن يساهموا في الربح الذي ينتج عن عمليات قاعات القراءة مهما كان ذلك الربح ضئيلاً، ولكن مصلحتهم الكبرى هي أن يقرءوا أكثر قراءة ممكنة، ومصلحة المؤلفين معلقة في جملتها بمصالح الثقافة، وقضية الثقافة مرتبطة بقضية الكتاب.

وكل خصومة يمكن أن تسيء إلى مصائر الكتاب في عالمنا الحاضر، خصومة خطرة لا يجوز أن نشتبك فيها وأن نثابر عليها إلا في حذر بالغ، فالكتاب كأداة أساسية لثقافة قوية خصبة مهدد اليوم بخصوم أقوياء، فالقراءة تحتضر على الأقل بين صفوف الجماهير، وسوف يحل محل الكتاب عما قريب نظم أخرى للأخبار، نظم لم تثبت بعد صلاحيتها، وأنا شخصيا لا أنتظر منها نتائج؛ طيبة فإذا كانت هذه الخصومة التي جدت منذ بضع سنين بين المؤلفين ومحلات القراءة ستنتهي آخر الأمر إلى اختفاء تلك القاعات، ومن ثم إلى نقص عدد القراء، فإني أعلن في صراحة أن هذا الاختفاء سيكون محنة على الثقافة ومن ثم كارثة على المؤلفين.

وهناك عدد من الهيئات تعير الكتب بدون أجر، ولم نر كاتبا سليم الإدراك يحاول أن يعارض في انتشار الأفكار، بل على العكس من ذلك يأمل كل كاتب جدير بهذا الاسم أن يقرأ كل كتاب من الكتب التي تحمل أفكاره أكبر عدد ممكن من المطالعين والمحبين، وإن أردت فقل من التلاميذ.

وإنما يثير بعض النفوس من احتمال نجاح محلات القراءة فكرة سقوط الملكية الأدبية ولو جزئيا فيما يشبه حالة الأملاك العامة واستخدامها كرأس مال يستفيد منه أصحاب الامتيازات الذين لا يعتبر المؤلف واحدا منهم.

وانعدام العدل ظاهريا في هذا الأمر خطب يسير، وإنما المحنة الحقيقية هي أن ينصرف الجمهور كلية عن القراءة، وهذا ما نحن بسبيله، وما يجوز أن نمل ملاحظة هذه الظاهرة ومواجهة النتائج التي ستجرها على مستقبل الحضارة.

لقاعات القراءة بالنسبة لهواة الكتب مزايا لا تتوافر للمكاتب العامة المجانية؛ فالمطبوعات الجديدة ترسل إليها، وأحيانا من عدة نسخ، وهم يحرصون على رغبات زبائنهم ويحاولون إرضاءها، وهذه القاعات ملحقة عادة بالمكاتب، وكثيرا ما يحدث أن نرى الكتاب يثير اهتمام من أجَّره، فيحاول أن يشتريه إما ليحتفظ به في مكتبته الخاصة أو ليهديه إلى أصدقائه، ولهذا لا أعتقد أصلا أن نظام الاشتراك في القراءة ملحقا ثمينا للمكتبات، وهي بمثابة معمل اختبار.

هذا ولقد لاحظت أن رواد المكاتب وقاعات القراءة يحبون أن يلتقوا وأن يتحدثوا في الموضوعات الأدبية، إما فيما بينهم وإما مع عمال المكتبة، وعلى هذا النحو تتكون منتديات يمكن لمثقفي المدينة أو الحي أن يقوموا فيها بتجاربهم، وأن يبادلوا الغير آراءهم وأن يقلبوا الكتب ويقوموا بما أسميه (قطف عينات).

وجماع الرأي أني أرى أن قاعات القراءة ضرورية جداً، وأنها تخدم الثقافة فهي قلاع بالنسبة للكتاب الذي يحدق به الخطر، فإذا اكتشفت طريقة عملية بسيطة لإرضاء المؤلفين المتبرمين، رأيت في ذلك بلا ريب ما يسرني وإن كنت أعتقد أنه من الواجب قبل كل شيء أن نحافظ على قاعات القراءة، وكلما رأيت مكتبة تفلس أو قاعة قراءة تغلق أبوابها قلت أن هذه في ظروفنا الحالية، هزيمة للروح.

١٢

إن فرنسا تستمد جزءا من نفوذها المعنوي مما يمكن أن نسميه (صادراتها

العقلية): أعمال فنية، ومسرحيات، وكتب علمية وأدبية وفلسفية، وهذه الصادرات العلمية ستنقص عما قريب إلى أن تصير صفراً، وفيما يختص بالكتاب: الأدبي أو العلمي نرى الموقف مؤلما، فحرب النقود التي تعرقل كل الصناعات ستنتهي بتدمير صناعة الكتاب الفرنسي، وعدد كبير من البلاد لم تعد تستطيع شراء كتبنا لأنها لا تستطيع أن ترسل نقودا لدفع ثمنها.

فألمانيا مثلا كثيرة القراءة، التي تلتهم الكتب قد وصل فيها نظام النقود إلى حد يحمل الناشرين الفرنسيين على العدول عن كل عملية تجارية، خوفا على الأقل من ضياع رأس مالهم، وكذلك النمسا والمجر لا يستطيعان أن يشتريا منها شيئا ويدفعان ثمنه، والروسيا قد أغلقت أبوابها لأسباب أكثر تعقيدا. وثمة بلاد أخرى كاليونان ورومانيا والبرتغال تقاسي استبدال النقود، وإيطاليا اليوم فريسة لهموم يلوح أنها تصرفها عن المبادلات العقلية، وأمريكا الجنوبية لم تعد تشتري شيئاً، وبلجيكا القارئة المدهشة تقاسي في يأس، ولما كانت اللغة الفرنسية فيها إحدى لغتين قوميتين فإنه لا بد للناشرين من أن يصلوا إلى اتفاق، وبوجه عام نستطيع أن نقول أن الكتب الفرنسية التي كانت تحمل في الأمس القريب إلى العالم كله عبقريتنا ستمسك عما قريب عن عبور حدود بلادنا.

ولا يستطيع أحد أن يغفل عن هذه المحنة، نعم أن في عدم استطاعتنا تصريف نبيذنا وسياراتنا وأدوات الترف التي ننتجها، بل وخضرواتنا وفواكهنا أمر مزعج وخسارة كبيرة لسمعتنا ولماليتنا، ومع ذلك فأنا أقرر أن الكارثة الكبرى على العالم وعلينا هي أن لا يستطيع نتاج فرنسا العقلي أن يخرج من فرنسا. وأنا أقدر أنه سيقال لي (فليكن)، ولتصبر عبقرية فرنسا، ولتعمل صناعة الكتب ما تعمله غيرها من الصناعات أثناء أزمات الأسواق المغلقة فتعيش في السوق الداخلي إلى أن تتحسن الأحوال، وهذا تفكير لا يصدر إلا عمن لا يحسنون فهم العصر الذي نعيش فيه.

فما يسميه الاقتصاديون بالسوق الداخلي سيصبح صفرا عما قريب، وجمهور

العامة – كما وضحت بإسهاب – في سبيل الانصراف عن الكتاب، ولربما عن القراءة أيضاً، وأقصد بالقراءة: القراءة المستمرة، ونتائج هذا الانصراف آخذة في الاتضاح يوما بعد يوم، وسيصبح من المستحيل عما قريب نشر الكتب العلمية والفلسفية والأبحاث لعدم وجود قراء، وكتب كبار الكتاب القدماء في الأدب تنفد، ولا تُعاد طبعها خوفا من الخسارة.

منذ بعض سنين قال لى ألفريد فاليت (هل تعلم أن مؤلفات جيل لافورج) الشعرية قد نفدت، وأنه ليس باستطاعتنا أن نعيد طبعها دون أن نخسر فيها ماديا، ومع ذلك فسنعيد طبعها، لافورج شاعر صغير، ولكنه هنا في داره، دار الرمزيين، وليس باستطاعتنا أن نسقطه من القائمة يجب أن نضحي، وبعد هذا الحديث بثمانية أيام عاد هذا المدير الماهر يقول لي بعد أن طال التفكير، سنعيد إذن طبع مؤلفات لافورج الشعرية، ولكننا سنصدرها في مجلدين وبذلك تكون التضحية المادية أقل، وإذا استمرت الأمور على هذا النحو فإن الناشرين لن يستطيعوا عما قريب تحمل أقل تضحية، وسوف يقع الكتاب الكبار فيما أوشك أن يقع فيه لافورج، وليس من المبالغة أن نظن أنه في يوم قيب سينتج عن قلة البيع أن يخرج ديكارت وباسكال ومونتين من المكتبة الحية العادية ليعتزلوا في ظلال المكاتب العامة المغبرة، ثم، ولم لا؟ في المخازن، وكل الملمين بمشكلة الكتاب في فرنسا لا يخفون ما يساورهم من قلق.

١٣

ليس أخلب للب السائح المثقف بأمريكا الجنوبية من رؤية هذه الشعوب الثملة بحب تلك الثقافة العقلية التي يتطلعون إليها بكل ما في قلوبهم من حماسة، وعلى نحو ما تتطلع أسرة لوارث لها قد يكون في مجيئه خلاصها، كذلك قد أعدت بتلك البلاد كل المعدات في انتظار ميلاد ثقافة أصيلة بهم، فالمكاتب عامرة والمدارس والمعاهد رائعة، ولقد ظهر بينهم بالفعل شعراء بعضهم مشرق.

والكتاب الروائيون قد قدموا ما يبعث على الأمل القوى حتى لنحس ونعلم أنه

سيولد بينهم عما قريب مصورون كبار للنفس البشرية وللهيئة الاجتماعية والمؤرخون والفلاسفة أخذون في العمل وفي كل نواحي النشاط العقلي قد أخرجت بالفعل أمريكا الجنوبية كتبا ممتازة ولكنها لا تكفي لإشباع شهيتها القوية، فهي تطلب العون في إخلاص وحماسة، وهي تبحث عن الضياء وتنتظر كل ذلك من أوربتنا المنقسمة التي تحكم على خصوماتها السياسية في هدوء وعزم، ولكنها لا تزال تعجب بها من الناحية الروحية.

وباستمرار قد تمتعت فرنسا في هذا الجزء من العالم بثقة لا حد لها، فالقراء من سكان أمريكا الجنوبية يضطرون إلى الرجوع إلى تراجم ليست في العادة موفقة ولا أمينة لكي يقرءوا الآداب الإنجليزية والألمانية بينما ينصرف هؤلاء الأمريكيون اللاتينيون عن الوسطاء في الاتصال بفرنسا، فهم يقرءون النص مباشرة وفي هذا خير عميم.

وكلمة التأثير يمكن أن يساء فهمها، وهي كلمة جارحة، ولذلك أطرحها ولكي نفهم العلاقات التي قامت بين فرنسا وأمريكا اللاتينية حتى اليوم يجب أن نتحدث عن الثقة والمحبة والتبادل الروحي، ولكن هل باستطاعتنا أن نستمر في أن نفوه بتلك الألفاظ السارة لزمن طويل، لا أعتقد ذلك. فالكتاب الفرنسي يساوي اليوم ثلاثة أو أربعة أضعاف ثمنه قبل الحرب، وليس في هذا الثمن مبالغة إذا ذكرنا أن الأثمان في فروع التجارة الأخرى قد بلغت خمسة أو ستة أضعاف ثمنها الأول، والكتاب الذي يباع عندنا باثنتي عشر أو خمسة عشر فرنكا يدفع فيه القارئ الأرجنتيني الذي سنتخذه مثلا ما يوازي على الأقل عشرين فرنكا، والقرش الأرجنتيني قد ضعفت قوة شرائه منذ الأزمة ضعفا قوياً، والأشياء المادية رخيصة في الأرجنتين فباستطاعة الإنسان أن يتناول وجبة طعام لا بأس بها بقرش واحد أي بما يساوي خمسة فرنكات ونصف تقريباً.

وبذلك يجد القارئ الأرجنتيني نفسه قائما رغما عنه بين المتع المادية الزهيدة الثمن والمتع العقلية الباهظة الثمن، فالكتاب الفرنسي بالنسبة للأرجنتيني المتردد يكلفه ما تكلفه أربع وجبات جيدة، فهو يعادل في ميزانية الفرد العادي ما تزنه فرختان ونصف، وهكذا نرى القارئ القائم بين أبولون ومامون يميل غالبا إلى أن يقدم

القربان لهذا الأخير، ولقد أحسست كل بلاد أوروبا بالخطر؛ فباعة الكتب الألمان يبيعون كتبهم في الأرجنتين بخصم ٢٥٪ من أثمانها في داخل ألمانيا، وقد استمروا زمنا طويلا على عمل التخفيض القديم في الأثمان الحديثة وفي هذا تضحية كبيرة.

ومع ذلك ماذا تفعل فرنسا؟.. لا شيء، فكتبنا كما قلت فيما أظن تباع في الأرجنتين بزيادة ٢٠ أو ٢٥٪ عن ثمنها في فرنسا، ولو أننا واجهنا المسألة من الناحية الحسابية لوجدنا أن هذه الزيادة لا إسراف فيها، وذلك إذا قدرنا مصاريف النقل ومصاريف رد الكتب التي لا تباع، ولكن الحساب لا دخل له أصلا في مثل هذه المشكلة؛ فبينما نرى البلاد الأخرى تحاول أن تبسط سلطانها نرى فرنسا لا تحرص حتى الاحتفاظ بما لها من أصدقاء.

ولسنا في حاجة إلى أن نقول أن النتيجة مزرية بنا، فبعد سنوات قليلة ستفقد فرنسا كل ثقة روحية تتمتع بها في بلد من الواضح أنه من بلاد المستقبل، وهذا ولا يزال من الممكن أن نتجنب تلك الكارثة وهي في الواقع كارثة، ولذلك يجب أن ننال تضحيات من ثلاثة أشخاص والثلاثة هم، في غير تردد، الناشر وشركة الملاحة الدولية.

وأنا لا أجهل أعباء الناشر وهي أعباء ثقيلة، ويزيدها خطورة أنها متغيرة، وأنه لا يمكن توقعها من يوم إلى يوم، ومع ذلك فيجب على الناشر أن يسلم حتى لا يفقد كل شيء، وإذا كان لا يستطيع أن ينقص من الأثمان، وهذه مسألة تناقش، فليقبل على الأقل أن ترد إليه في سهولة الكتب لا تباع، ليقبل (المردود) وناشرو الكتب العلمية بنوع خاص لا يقبلون أي مناقشة، ومع ذلك فتلك الكتب مرتفعة الأثمان بحيث أن الكتاب الواحد مما ثمنه مائتا فرنك مثلا إذا لم يبع ذهب بربح خمسة كتب.

وشركات الملاحة لا يمكن أن تصم آذانها عن انذار كهذا، والأمر يتعلق بمصلحتها على نحو قد يكون غير مباشر ولكنه محقق؛ فالأرجنتينيون يأتون إلى فرنسا لأنهم قد قرءوا كتبنا، وأحبوا فرنسا خلال مؤلفينا، ولأنهم يتكلمون لغتنا.

وعندما يأخذ الأرجنتينيون في تذوق الكتب الإيطالية والألمانية سيذهبون لتمضية

أجازاتهم إلى إيطاليا وألمانيا، وسيجرون إليها في مراكب إيطالية وألمانية لأنهم سيتكلمون فيها ويسمعون لغات يعرفونها ويفهمونها، فالمصالح كلها مشتبكة في مسألة خطيرة كهذه، وإذن فلنطلب إلى شركات الملاحة أن تقبل مثلا إرجاع الكتب التي تباع بغير أجر، وماذا تزن بعض من الحقائب توضع في قاع المركب، إن هذا التسامح البسيط سيخفف العبء عن باعة الكتب تخفيفا محسوسا.

وأما الدولة فهل من الضروري أن نلقنها واجبها، وهل للدولة تلك الشخصية المعنوية التي لا نستطيع الإمساك بها، أن ترعى المصالح العليا لفرنسا الحية، إذا صح ذلك تكون المسألة في منتهى البساطة، فليمنح وزير البريد والتلغراف للكاتب الذي يرسل إلى الخارج تخفيضا في أجور النقل، وبذلك يتضح الإشكال بل يكاد يحل. وأنا هنا أقدم إنذارا، ولكن هل سيسمع وسط صخب عصرنا؟.. لست أدري، ولكني رغم ذلك أرفع الصوت، والأمر ليس أمر منافسات خاوية بين الشعوب المختلفة، بل أنه أمر كنز كبير من الفن والعلم والروح والإنسانية، العالم كله في حاجة إليه، ومن الممكن أن تحرمه منه معارضة عمياء، يقوم بها دائما قوم لا يجيدون الحساب.

١٤

منذ الآن قد ولدت الصعوبات القاسية التي تتخبط فيها الثقافة في فرنسا، وفي غيرها من البلاد بلا ريب، نتائج سيظهر أثرها عما قريب لأضعف الناس ملاحظة. فعدد من النفوس الخالقة، سينصرف عما يمكن أن نسميه (العبارة المطبوعة)، والبعض يفعلون ذلك في نوع من الغبطة والأمل في أن يخلقوا فنا جديدا، وهؤلاء هم السينمائيون الملهمون، أولئك الذين يحملون أنفسهم على التفكير، لا بالألفاظ بل بالصور والظلال والأضواء، ومن الممكن أن نفترض أنه بالرغم من مطالب الآلة الناطقة فإن النص سينتهي في تطور السينما القريب إلى أن لا تكون له من الأهمية فوق ما للتوابل.

وثمت نفوس أخرى، تنصرف راضية أو مرغمة إلى الراديو، وما أظن أنها مدفوعة

بنزعة آمرة إلى أداء تلك الرسالة، فمتشدقو الراديو لا يرون الجمهور الذي يتحدثون إليه، وهم لا يستفيدون من حماسة الخطابة إلا أن يكون ذلك بإرهاق لخيالهم، وأما عن ثمن جهدهم فثمن يخس كما سأوضح فيما بعد. وفي كل هذا ما يحملنى على الاعتقاد بأن الكاتب الذي ينصرف إلى الراديو إنما يفعل ذلك ليشق لنفسه طريقا جديدا، وليضمن متنفسات جديدة، وليصل إلى جمهور جديد، ولينمي مصادره، ثم ليعبر عن نفسه، رغم كل شيء، أي ليلتمس مخرجا لذلك الشيطان الذي يضنيه، وهكذا تراه رغم ما في طبعه من نزوع إلى الخلود يقنع بما هو فان؛ فالكتاب والنشرة والوثيقة المكتوبة وإن تكن عرضة للتحطيم والتجريح إلا أنها رغم ذلك تنهض بالنسبة لنا، نحن الكائنات الفانية، كرمز للخلود، وفي اعتقادي أن الكاتب لا ينصرف في غير ألم عن الطباعة التي يستطيع أن يثبت بها عمله ويخلف أثر جهده وحماسته.

والراديو لم يقطع بعد كل علاقة له بالنص، فهو لا يزال في مرحلتنا الراهنة بحاجة إلى نص مكتوب باليد، فالمؤلف مضطر إلى أن يقود أفكاره حتى تصل إلى الألفاظ، وفي هذا جهد كبير وخير كثير، نعم خير كثير وأكرر اللفظ كلما ذكرت تلك الفوضى التي نعيش فيها، وما أظن أني أخطئ إذا قلت أن معظم الكتاب الحقيقيين الذين يتحدثون في الراديو، يودون لو نشروا نتائج جهدهم؛ ففي هذا بلا ريب ما يسير بها إلى مصيرها الطبيعي، وبعضهم يستطيع أن يفعل ذلك، ولكن هؤلاء قليلو العدد، وأما الآخرون فمضطرون إلى أن يروا أفكارهم تفنى في رعشة الموجات، وتلك محنة مؤلمة. وكل شيء يحمل الناظر غير المتحيز على الاعتقاد بأن الكثير من دور النشر سيضطر إلى إغلاق أبوابه في السنين المقبلة، والمجلات الكبيرة التي لا يزال يستخدمها كرسول للروح، عدد من العاملين والباحثين والنفوس المبتكرة، تلك المجلات الكبيرة لن تستطيع أن تقاوم إلا بوسائل اقتصادية، أو سياسية مؤقتة وسائل غريبة عن الأدب.

والمكتبات أيضا في محنة، فتشريع العمل والتشريع المالي يثيران أمامها مشاكل لا تملك حلا لها، والرجل الذي كنا نسميه بالأمس (كاتبا) يحس أنه سيصبح عما قريب

(متحدثا) فهو إذن لن يختفي، إذ سيظل هناك حاجة إليه فيستمر ويدوم في المجتمع الجديد، ولكنه سيسلب تقريبا كل امتيازاته القديمة، وإذاعة الدولة التي اتخذها مثلا، تطلب ما لم يسبق نشره وهي تجد في تلك خيرها ما دامت تقدم إلى السامعين أقوالا جديدة، ولها في عملها هذا ما يبرره، إذ أنها تؤوي بذلك نصوصا كان من الممكن لولاها أن تفنى بالاختناق في سجن الأدراج، فالإذاعة غول نهم يلتهم ويرسل بخارا: مسرحيات، وقصصا، وأقاصيص، وأحاديث، وتقارير، ومقالات ثانوية أو متممة، ستصبح بعد خمس عشرة سنة أو عشرين، الوسيلة الأساسية للعبارة، وذلك إذا سارت الامور على نحو ما تسير اليوم، وإنه لمن الممكن كل الإمكان أن يجد الكتاب بعد زمن قريب صعوبات كبيرة في نشر كتبهم، فيضطرون إلى الاكتفاء بإلقائها أمام الميكرفون، وعما قريب سيعود الكاتب شاعرا متجولا كما كان الحال في القرون الوسطى قبل اختراع الطباعة، بل نستطيع أن نفترض أنه سيمل الكتابة وتحضير نصوص لا تلبث أن تتحول إلى ضوضاء، ولربما اكتفى بأن يرتجل في الموضوعات التي يعالجها.

فليكن.. فليكن: سيقول البعض؛ فسيزدهر فن جديد، ومخترع الأساطير وناشر الأفكار، أي الكاتب القديم، سيلابس الظروف وسيحتفظ رغم كل شيء بمكانه بين القوى المختلفة، ولكنه يخشى لسوء الطالع أن يتضاءل هذا المكان شيئا فشيئا حتى يصبح مكانا حقيرا، ولكن ملئت دهشة مؤلمة عندما راجعت وثائق إذاعة الدولية فوجدت عددا كبيرا من الكتاب يعملون لتلك المؤسسة، وأغلب هؤلاء الكتاب أناس لهم مكانتهم ولهم شهرتهم، وهم يخضعون لألوان من الأخبار: يجب أن تكون لديهم أفكار، وأن يقترحوها وأن يحصلوا على الموافقة عليها وأن ينفذوها أي يكتبوها، ثم عليهم أن ينتقلوا، وذلك لأن الإذاعة لا تعمل بالمنزل. وفي النهاية يطلبون إليهم مجهودا صوتيا يتطلب صفات خاصة بل وتربية خاصة، وكل هذا العمل المعقد يكافأون عليه أبخس المكافآت، وإنه لمن المؤلم أن نرى تلك المكافآت تنحط في فرنسا، البلد ذي الثقافة الرفيعة، بعيدا عما يتقاضاه الكتاب عن نفس العمل في كل البلاد الأجنبية تقريبا، نعم من المؤلم أن نرى الرجال الذين تطلب إليهم كل تلك

التضحيات، وأولها أن يتركوا ثمرة جهودهم تتبدد أنفاسا يتقاضون أجرا منحطا كهذا.

والممثلون يعاملون معاملة خيرا من هذه، وأنا أعترف عن طيب خاطر أنهم يقومون بتجارب، ولكن الكاتب يعطي شيئا آخر غير الزمن والأنفاس، يعطي عناصر نفسه فهو الذي يخلق وهو أصل كل شيء، ولذا فهو يستحق معاملة ممتازة، والإزراء بالخالق المكتشف المبتكر مخترع الصور والأساطير نافث الحياة في الألفاظ والأفكار، وفي كلمة واحدة الإزراء بالكاتب ليس مجرد مشكلة نقابية، فإذا وضع الشاعر تحت الوصاية وأرغم على صغار الأعمال وطرح بين صفوف صغار الموظفين، شقي بذلك الجميع. وإذا حرمت الروح من رسلها وأسلحتها وانحصرت في تلك المهام الحقيرة، وقد خمدت يقظتها وتخلت عن الكفاح، أوشكت جماهير الناس أن تترك بغير قيادة بين أيدي ذوي المطامح المغرضة، وأوشكت الهيئة الاجتماعية أن ترتد إلى الهمجية الأولى. ومشروع المسيو جان زاي يحمل على الاعتقاد بأن الدولة تريد أن تحمي الكاتب من أناس كثيرين، ومن الناشر مثلا، وفي هذا غالبا ما تستحق من أجله الشكر، ويلوح لي أن الظرف مناسب لنطلب إلى الدولة أن تحمي الكاتب أيضا من الدولة.

الدفاع عن الكاتب في هذا العصر المضطرب دفاع عن الثقافة، أي دفاع عن قضية الإنسان، ومن واجب السلطات العامة أن تتناول المشكلة. وعلى الكاتب ان يظهروا جميعهم في نفس واحد، إنهم قد أدركوا الخطر وأن قضيتهم – التي هي قضية الروح – تتحد على نحو ما بقضية الجنس البشري.

الجزء الثاني

علم المهنة وواجباتها

١

الأساتذة والمتنبئون

لقد سقط أوائل قطرات الخريف، وها هو الصيف يول بلهيبه وبذخه، ها هو يرسل إلى قبل أن يختفي وراء التل ابتسامة، وإنها لابتسامة مؤلمة، إذ أراها تمزق فؤادي.

تركت مكتبي حيث تكدست على المنضدة مئات من الخطابات الساذجة، وفي كل منها طلب شيء أو عرض لمشكلة ملحة، وصعدت إلى أعلى حديقتنا الشقراء، هنالك إلى جوار سياج الأشجار الضاربة إلى الاصفرار، أخذت أتروض وحيدا وأستنشق طليعة روائح العالم الجديد، فنحن اليوم في أعقاب فصل منصرم في قلب هذا الاضطراب حاولت أن أضع شيئا من النظام الذي يشبه السلام.

لقد أكلت بالفعل الجانب الأكبر من حياتي، ومن يوم إلى يوم أتقدم خلال إحراج من المشاكل الخانقة السامة التي تشتبك وتتداخل كلبلاب قاتل معقد، ولكنني لست تعبا ولا يائسا وإن أكن مهموماً لأني أريد أن أبذل كل ما في وسعي بودي أن أستطيع الرد على كل الأسئلة التي تلقى إليّ.. لقد حدثني الشبان عن همومهم، وما أريد إلا أن أكون عند ظنهم بي، ولكن خوفي من أن يأتي جوابي سابقا لأوانه دالا على المجازفة والغرور يملؤني رهبة.

ها أنا أسير وحيدا بالممشاة فوق خشب قد نصلت خضرته، ومع ذلك أقدر

وأزن وأقتبس وأبلو الواقع والأفكار والألفاظ. وفجأة عاد إلى ذاكرتي موقف صغير هو إحدى ذكريات شبابي، أعني ذكريات شبابنا، كنا في السادسة أو السابعة والعشرين من عمرنا، وكان ذلك عقب ابتدائنا في المسرح مباشرة، جل رومان وأنا، إذ مثلت أولى رواياتنا في نفس الموسم وبنفس المسرح (أديون أنتوان). في ذلك اليوم كنا نشهد تمثيل رواية لا أذكرها الآن، وذلك بمسرح الفنون، وفي أثناء الاستراحة كانت المشاة مضاءة بنور رمادي يشبه ضياء الشفق، وبينما كنا نتحدث، ونحن سائرون في هذا المكان الضيق إذ أخذ رومان بذراعي قائلا: انظر، وعلى بضع خطوات منا رأينا ثلاثة رجال يتناقشون مناقشة ودية عرفنا للحظتنا من هم؛ فأخذت ضربات قلبي تسرع، كانوا: موريس ماترلنك، وأميل فرهيرن، وهنري دي رينيه.

وقال رومان في حماسة ساحرة تشبه الكبرياء:

- هذه بلا ريب بقعة من الأرض كثافة الإنسانية فيها موفورة الغنى.

ولزمنا مواقع أقدامنا وقد احتبست منا الانفاس. وأخيرا قلت:

- هل في عزمك أن توجه إليهم الحديث؟.

فهز رومان رأسه وابتسم، ثم تمتم:

- لا.. لا داعي لإقلاقهم.

وقد كان هذا رأيي، وكنت عندئذ أعرف أميل فرهيرن شخصيا إذ كان منذ البدء قد خصني بإشارة وردية، وكان قد استقبلني في لطف بمنزله الصغير بسان كلو، حيث اتخذ مشتاه. وكانت علاقاتي بماترلنك وهنري دي رينيه على نحو ما كنت أستطيع أن أرجو، وأنا أقول هذا مخلصا فما كنت أرجو ولا أجرؤ أن أرجو أكثر مما كان، كنت أرسل مؤلفاتي إلى هؤلاء الأساتذة مع إهداء حار، فأتلقى أحيانا ردا رقيقا صغيرا أرى فيه ما يرضي كل رغباتي، وبعد ذلك بزمن طويل – بعد الحرب – وبعد أن اظهر لي هنري دى رينيه دلائل التقدير غير مرة. وبعد أن مررت به أو لاقيته في صمت

عشرين مرة، سمحت لنفسي أن يقدمني إليه ألفريد فاليث ناشر كتبنا نحن الاثنين، إذ كنا مجتمعين بمنزله، ومنذ ذلك اليوم حباني هنري دي رينيه بصداقته الفعالة، ولقد عرفت له فضله بقلب منشرح..

وأما موريس ماترلنك فقد أظهر لي في خطاباته أجمل آيات المحبة حتى سافرت في رحلة سنحت لي أثناءها فرصة لمقابلته، فاستطعت أن أخرج عن ذلك التحفظ الذي كان يميله الاحترام.

ولقد لاقيت أناتول فرانس مرة واحدة قبل موته بعام عند أصدقاء دعونا لتناول الطعام، ولولا هذه المصادفة لما علمت أن هذا الأستاذ القديم كان يقرأ مؤلفاتي ويقدرها، ورأيت باريس مرتين في هيئات تحكيم أدبية كنت معه عضوا فيها.

وحادثت بورجيه مره واحدة في ظروف مشابهة، وكان لاشتراكي في أعمال بعض هيئات التحكيم أو الجمعيات الفضل في أن استطعت تحية عدد من أساتذة الجيل الذي سبقنا، وقد كتبت عن مؤلفات كلوديل حوالي سنة ١٩١٢ كتابا كاملا دون أن أقوم بأية محاولة لمعرفة الرجل، مما قد يراه البعض خطأ، ولكنني لن أناقش هذا الرأي.

ولو أنني لم أتعرف إلى فاليري عند صديقنا المشترك لوك ديرتان الكاتب البارع والطبيب الماهر الذي كان يكوي بالكهرباء حلقينا الواحد بعد الآخر، إذن لما قابلته إلا بمكتبة أدرين مونييه، أو بعد ذلك بكثير في الجمعيات أو الهيئات التي نعمل فيها سويا، ولقد كتبت قديما مرة إلى جيل رنار عن مسألة في فن الأدب ولكني لم أعبر قط عتبة منزله، ولقد راسلت جورمون، ولكني لم أدن منه قط.

ولأن ديكاف سبق إلي منه قديما فضل متناه الكرم، سمحت لنفسي أن أذهب لتحيته، ولقد رأيت موريس مرة، ولكني لم أوجه إليه الحديث، وباستطاعتي أن أفرد جيد بذكر خاص، فلقد رأيته أول مرة منذ أكثر من عشرين سنة في قاعة صغيرة بشارع فسكونتي، في الأنيون على وجه التحقيق، وكان يلقي محاضرة عن شاعرين أو ثلاثة أجرؤ فأقول أني كنت واحدا منهم، ولقد قرأ ذلك اليوم عدة من قصائدي

بصوت رائع، إن ذاكرتي قوية.

وهل من الضروري أن أكثر من الأمثلة، أظن أن لا فائدة في ذلك، وما قلت عن أساتذتنا وسابقينا أستطيع أن أقوله عن أندادي ورفقائي، لقد احترمت دائما عملهم وأوقات فراغهم، واحتطت لعدم إقلاق راحتهم. فهل يمكن أن يفسر هذا التحفظ بالبرود، لا شك لا وهل يمكن أن نوصي الكل بمثل هذا التحفظ، وأن نوصي به في كل حين، لسنا واثقين من ذلك، وإني لأعاهد نفسي بأن أنظر في هذه المسألة.

هل سنردد كلمة قالها مورياك فجرت على كل الألسن، وهل سيظن بجيلنا أنه لم ينشأ هو الآخر على يد أستاذ، آه لنقل لا. ولكن لنتحدث أولا عن أولئك الذين كنا نعتبرهم أساتذتنا، يجب أن نسأل ذكرياتنا وأن نعترف بما كنا نطلبه إذ ذاك منهم، وما كنا ننتظره أو نؤمله. إن لفظ جيل لفظ سهلة غامضة، وفي الحق أني أفكر في بعض الأصدقاء الذين هم من سني، كما أفكر في نفسي، وعندما كنا شبانا ودخلنا في الأدب بنشر قصائد من الشعر كما جرت التقاليد إذ ذاك.

والروح الشعرية باستطاعتها أن تستغني عن التجارب البشرية، فالموسيقيون والشعراء يؤتون ثمارهم غالبا قبل العشرين إذ لا حاجة لمن يغني بأن يعرف العالم، بل ربما كان من الخير أن يجهله، والمسرح يتطلب حنكة أكبر، وأما الرواية فعمل النضوج إذ أن التأليف الروائي القوي الدسم، ليس من عمل اليافع مع استثناء حالتين أو ثلاث لا تقدح في صحة الحكم العام، كانت إذن كتبنا الأولى دواوين شعر، وكان أساتذتنا الأول شعراء، وكان نفر كبير من الأموات يدخل في عداد من كنا نجلهم كأساتذة ونرفع إليهم كل يوم أناشيد الإعجاب والعرفان بالجميل، وأسارع فأقرر أنه لم يكن لذلك في نظرنا أهمية كبيرة.

نعم لقد كنا سعداء بأن نذكر أن كلوديل وماترلنك يستنشقان على الأرض في نفس الوقت الذي نستنشق فيه، وهذه فيما أذكر هي بنصها الألفاظ التي

استخدمتها في ذلك الحين، ومع أننا كنا ننتظر إذ ذاك من عبقريتهما الحية نتاجا وشواهد أخرى فإننا لم نكن نتطلع إلى أن نفيد أي شيء من معاصرتنا لهما.

لقد أعطانا أساتذتنا الحي منهم والميت.. الشاب والآخذ في الأفول، درسا مزدوجا، أولهما درس في الفن، فلقد كانت مؤلفاتهم بين أيدينا نتخذ منها قوت حياتنا، وكنا نعجب بتلك المؤلفات في حرارة قوية.

وإن لم نتخل قط عن إعمال ملكة النقد فيها إعمالا حارا، وكانت تلك الحرارة تسعى إلى أن تتأجج في مبادلاتنا النفسية، إذ كنا نجتمع في المساء عند انتهائنا من أعمالنا فنمتع أنفسنا بالقراءة بصوت مرتفع، ونتبع ذلك أحيانا (بمنازعات) جميلة حامية الوطيس، ولقد يتفق أن نقابل إعجابنا شبه البنوي بآراء أكثر هدوءًا، بل وأحيانا بتجاربنا المدرسية.

كنا نأتي بموليير وشكسبير بعد ملرميه ورمبو وكلوديل، وتلك تجارب تبدو شاقة على نفوسنا المتحمسة الفتية، ولكني أقول رغم ذلك أنها كانت هينة، إذ يجب أن نكتشف جلال القدماء بقراءتهم عشرات المرات، كما يجب أن نعود إليهم اكثر من مرة لنتذوق ما فيهم من جدة حقيقية، أي من خلود.

وأثناء معاشرتنا لتلك المؤلفات كان يحدث أن ننسى المؤلفين، فلزمن طويل لاح لي كلوديل أبعد من بوذا وخياليا مثله، حتى أن الصداقة الشخصية التي يظهرها لي اليوم لم تستطع بعد أن تمحو من نفسي ذلك الإحساس، وأنا لم أكن أتعجل معرفته إذ كنت أخشى أن أضطر إلى عملية مواجهة أو توافق شاقة.

كنا إذن نعيش أولا مع المؤلفات، ولكننا مع ذلك لم نكن نجهل أشخاص المؤلفين جهلا تاما، ولقد تحدثت عن درس مزدوج، وفي الحق أننا التمسنا في الأمثلة التي ضربها لنا أساتذتنا علاوة على درس الفن الخالص نموذجا للحياة الفنية، وأكرر (الحياة الفنية) فأخبار التهتك لم تتناولنا قط، وكان ما نريد أن نعلم هو: كيف نحيا لننجز عملا جميلا نبيلا.

والغالبية العظمى من الشعراء الرمزيين – ولا أقول طبعا كلهم – قد عاشوا فقراء، وإن كان بعضهم قد عرف الرخاء بل الغنى دون أن يخرج في الغالب من ظلال العزلة، وهؤلاء الرمزيون كانوا هم الشعراء الذين يكبروننا، وكنا نمجدهم ونبجلهم، وإن ظل عدد منهم مجهولا من الجمهور، ملفوظا من الأدب الفقهي الجامعي لا يتناوله بالحديث والمناقشة الحادة إلا فريق من خيار المثقفين. ولقد قاسوا أكثر مما قاسى الشعراء الرومانتكيون من ذلك الانفصال الذي باعد خلال القرن التاسع عشر بين الطبقة المتوسطة وبين الروح الخالقة، وبرغم كل ما كان المستقبل يستطيع أن يأتي به مفاجات فإن تلك الحالة قد دفعتنا إلى الحرص على أن نحيا حياة شريفة نحميها من كل عثرات العصر حياة أمينة على قداسة فن عنيف مرهف.

وماذا كنا نستطيع أن نطلب في المجال الزمني من رجال كان أغلبهم لا يزالون يكافحون في الظلام ويطبعون أحيانا مؤلفاتهم على نفقتهم الخاصة، وقد استهدفوا لسخرية الجمهور ولعنة الفقاء دون أن يعرفوا مجدا غير مجد ندوات الأدباء المر يشملون به.

وهكذا لم نطلب إليهم شيئا، وقد اتحد منهم الأحياء والأموات في تقديسنا لهم، كنا نطلب إليهم أن يوجدوا أو كنا نمتدحهم لأنهم قد وجدوا، ولقد كنا نضيف أحيانا إلى آلهتنا، فنعترف بأساتذة جدد دون أن ننكر أساتذتنا القدماء، وذلك لأننا كنا نحس دائما برغبات جديدة، وكنا نكتشف كل يوم آفاقا واتجاهات جديدة.

لقد كان ما نطلبه إذن إلى أساتذتنا هو نفس تلك التعاليم التي سبق أن أعطونا إياها؛ فاخترناهم من أجلها وحييناهم، وكنا نطلب الحق في أن نحبهم في الخفاء، وهذا أقل الحقوق عرضة للمناقشة وأكثر الامتيازات تواضعا؛ فمحبة التلميذ تخلق الأستاذ قدر ما تخلقه قيمته الشخصية.

في كل هذا أفكر بينما أجوب مماشي حديقتنا في صباح هذا الخريف، جيل بلا أساتذة، لا لقد كان لنا أساتذة وجدنا فيهم ما كنا نريد.. أساتذة مازلنا بعد ربع قرن

نحييهم في انفعال وعرفان بالجميل، أساتذة لا نلقاهم نحن الفنانون الناضجون المخضوبو العوارض إلا وقبعاتنا بأيدينا، وقلوبنا سريعة الضربات.

وأنا أعلم أن العالم قد تغير، وأنه في الربع القرن الأخير هذا قد فقد اتزانه، بل هل لنا أن نقول معنى الحياة، فالمشاكل الفنية التي كانت أولى مشاغلنا يلوح أن مشاكل أخرى أخلاقية وسياسية واجتماعية قد سيطرت عليها وشوهتها، وأنا أفهم أن أرى شبانا يمكن أن يكون بعضهم من أبنائنا، وبعضهم الآخر من إخوتنا الصغار، يشكون إلى من يكبرهم سنا بأقوال مرة متمردة أو متحدية، وما أرميهم بالخطأ، بل أريد أن أفحص شكواهم، ولكي أمهد لهذه المناقشة لا أرى من فضول الحديث أن أبدأ وأتابع فحص ضميري فحصا شاملا.

لقد وضحت كيف اخترنا أساتذتنا، وماذا كنا ننتظر من هؤلاء الأساتذة نحن الكتاب الذين ابتدءوا في أوائل هذا القرن. أما أن يحاول شبان اليوم تكوين أنفسهم بوسائل تختلف عن وسائلنا فهذا بعيد عن أن أدهش له، وإما أن يشكوا فهذا ما يشغل بالي، وإذا كان هناك ما يبرر شكواهم ممن يكبرهم، فإنني عندئذ أقف لأقول: هيا نتناقش:

يلوح أن الذي بدأ هذه المناقشة هو فرانسوا مورياك أحد أفراد جيلنا، وذلك في مقال ظهر منذ زمن في إحدى المجلات؛ فكان له دوي.

ومن بين الكتابات التي استمدت منها هذه الخصوصية المؤلمة عناصرها أضع في الصدر بحثا نشره دانيل روبس في الكرسبوندان بهذا العنوان الدال (محاكمة الأساتذة) ولقد رأى الكاتب أنه يستطيع أن يدعوني إلى المحاكمة، وفي هذا أكثر مما يكفي لتبرير مخاوفه، وأعطاني حق الدفاع بل واجبه.

وعمل دانيل روبس عمل محكم يمكن تلخيصه فيما يأتي: إن الرجال الذين بلغوا الثلاثين أو تخطوها بقليل، أولئك الذين كانوا أثناء الحرب تلاميذ مهملين تقريبا لم يعثروا فيما بعد بأي كاتب يستطيع أن يكون لهم أستاذا، أو يرغب في أن يكون ذلك

الأستاذ عندما أخذوا في ممارسة الأدب، بل وممارسة الحياة اليومية بوجه عام، وفي الحق أن بعض هؤلاء الشبان لا يريدون أن يكون لهم أي أستاذ، وقد بذل الآخرون كل جهدهم ليستغنوا عنه، يبدأ دانيل روبس فيترك جانبا، التأثير الشكلي والتأثير الفني، إذ يقول (لا يستطيع الكاتب أن يكون أستاذا إلا إذا كان ممن يقبلون أفكارا تستطيع أن تمس الشبان بمضمونها، وبالصيغة التي أخذتها). ولنترك مناقشة تعريف الأستاذ على هذا النحو إلى أن يأتي حينها، وهو تعريف مغر تحكمي لإذ يجب أن نقابل أولا بين هذه الصورة التي يرسمها دانيل روبس للشبيبة الأدبية الحالية، وبين الصور التي توحي إليّ بها تجربتي الخاصة.

لقد راسلت في الخمس عشرة سنة الأخيرة عددا كبيرا من الشبان، ومن الواجب أن أسارع إلى القول بأن فكرة بعض من الشبيبة المثقفة لا تختلف كثيرا عن الفكرة التي كانت لدينا (كما بسطتها في الصفحات السابقة)، ولست أقصد بذلك إلى أن أنكر دانيل روبس كممثل ممتاز ونشيط لهذا الجيل، يتحدث باسم جزء من هذه الشبيبة، وهو بلا ريب الجزء الأكثر جرأة، والأكثر لذعا، والأكثر مطالب أيضا. ولكنه لا يتكلم، ولا يستطيع أن يتكلم باسم كل الشبان الذين لا يطلبون إلى من يكبرهم كما قدمت إلا مؤلفات ودلائل على الأستاذية ومثلا للحياة الفنية، ثم أحيانا صداقة وحرارة، ودلائل اهتمام شخصي.

ولنترك جانبا: الصامتين، وعددهم أقل بكثير مما نظن، ولنحاول لساعتنا أن نعرف نوعا آخر، أعني أولئك الذين يودون أن يروا الكتاب الكبار، وأن يدنوا منهم، وأن ينفذوا إلى المجتمعات بل إلى الحياة الداخلية لهؤلاء الكتاب الكبار، لقد لاقيت واستقبلت وسألت عددا كبيرا من الشبان عرفت أنا وكثيرون من الكتاب الذين في سني كيف نفهمهم، ولقد لمست عند عدد منهم مجرد رغبة في الاستطلاع رغبة لا أهمية لها، إذ سرعان ما تشبع وبعضهم إذ جاءني عادة إلى المجئ.

وكنت دائما أنظر إلى هؤلاء وجها لوجه، وأقول بابتسامة جادة: عودوا كلما

أحسستهم بالرغبة في ذلك، ولربما يأتي يوم لا ترغبون فيه العودة إلى رؤيتي هو ذا صدقوني، فأنا أعرف سير تلك الظاهرة حب الاستطلاع نهم في نفوس الشبان، وهو يتطلب باستمرار غذاءً جديدًا. فاذا جاء يوم لم تعودوا تشعرون فيه برغبة في المجئ لرؤيتي فلا تخجلوا ولا تأتوا إليّ، وسوف أفهمكم ولن ألومكم على ذلك، ولكن اذكروا بنوع خاص أنه إذا عاودتكم بعد ذلك بسنين رغبة في رؤيتي من جديد، فلا تخجلوا أيضا ولتأتوا بكل بساطة، وإذا كنت لا أزال عندئذ حيا، فسوف تجدونني على استعداد للاستماع إليكم.

ولقد سارت الأمور غالبا على هذا النحو الذي ذكرت وتوقعت إذ اختفى بعضهم، ثم عاد إلى الظهور بعد عدة مغامرات، والبعض الآخر هجر آفاقي، ولربما إلى الأبد، كما أن عددا كبيرا منهم لم يول عني، بل أصبح من رفاقي وأصدقائي يقصون عليّ أنباء كفاحهم ويفهمونني مصاعب موقفهم، كما يشهدونني على محنهم، ولقد طلبوا إليّ أحيانا أن أعينهم، أي عون، ذلك ما أريد أن أفصله.

لقد كان الأستاذ قديما في نظر الفنانين والصناع، ذلك الذي يجيد فنا أو علما ما عن معرفة وخبرة فيستطيع بتعاليمه، وبالمثل الذي يضربه أن يساعد على تكوين المبتدئين، وهذا التعريف الذي يتبادر إلى الذهن لا يدع قط مجالا للخطأ أو إساءة الفهم، ولذلك أرى أن دانيل روبس قد عقد المشكلة تعقيدا كبيرا، إذ نحى منذ البدء ما يسميه (التأثير الفني) فعزز بذلك الخلط المخيف بين الأستاذ والكاهن، وهو خلط لن أتخلى عن إيضاحه في النهاية.

أول واجبات الأستاذ هو أن يتفوق في فنه، وهناك عدة أنواع من التفوق في الفن الواحد، وهذا يمكننا من أن نفهم لم ينصرف بعض الجدد (إلى أستاذ ما، بينما ينصرف عنه الآخرون، بل يحتقرونه) وأنا أعرف جيدا أن فن الكتابة لا يوضح كصناعة الخزف أو كالتشريح الوصفي، ومع ذلك يجب أن نعترف بأن المشاكل الفنية أو إذا أردنا هموم المهنة والعناية بفن الأدب لم تحتل المكان الأول من نفوس الكتاب الشبان.

وعندما ننعم (يقال أنعم النظر أو: أمعن في النظر) النظر لا نجد في هذا ما يدعو إلى الدهشة، فمن جهة نجد أن الشبيبة المضطربة المرهقة بما يسود العالم من فوضى قد لجأت فيما يختص بفن العبارة الأدبية إلى إنكار محنق كما ألقت بنفسها في يأس إلى نزوات مسرفة.

وامثال تلك التجارب لا تذهب قط عبثا، والمرء يلاحظها في حسرة ولكن في عطف وإنه لمن الجنون أن نكتفي بالسخرية منها أو نحاول عرقلتها، بل إنه لمن القسوة أن نعلن إلى هذه النفوس الحارة، باسم الحقيقة التاريخية الجافة أن النصر النهائي الذي لا يمكن أن يدفع، كان دائما لتلك القوانين التي حكمت حتى اليوم اللغة والآداب، في فرنسا على الأقل.

ومع ذلك فهناك حقيقة لا شك فيها، هي عدم فائدة الحديث عن المسائل الفنية مع شبيبة طموحة إلى قلب الأوضاع الفنية، بل تحطيمها إلى حين. وكثير من الكتاب الشبان الذين برئوا من تلك التجارب الثورية أو تدرعوا بالحذر قد جابهوا المشاق التقليدية فوجدوا أنفسهم عند ساق العمل – إن صحت هذه العبارة – وأنه كان لهم أن ينتقدوا ما تلقوه من تعليم بالمدارس، وذلك أثناء اضطرابات الحرب فإنهم بلا ريب لا تعوزهم المعارف ولا المواهب.

وأنا لا أستطيع أن أقول أنهم يحملون جميعا رسالة كبيرة، ولكنهم كانوا ولا يزالون يملكون روح الملاحظة وسهولة الحديث ومهارته، وأخيرا مواهب سعيدة بل مشرقة أحيانا، وإذا كانوا لم يحاولوا دائما بل ولا غالبا أن يتعهدوا تلك المواهب بالاستفادة من تجارب من يكبرهم ومن تعاليمهم فليس الذنب ذنبهم، كما أنه ليس ذنب هؤلاء الكبار، والواجب أن نصب كل اللوم على مغامرات الناشرين المسرفة في المدة التي تقع بي سنتي ١٩٢٠ و ١٩٣٠ فبينما كانت أقصى آمال المبتدئين قديما أن يعثروا على ناشر نجد أن جمهورا من الشبيبة الثملة التي فقدت حاسة الاتجاه، قد أحيط فجأة باسوأ المغريات: بمال يكسب بسهولة، وإعلان، وشهرة مصطنعة. فأي قديس

وأي راهب قد جففت العبادة من نفسه وحصنته من غوايات الشيطان كان يستطيع أن يقاوم مثل هذا التيار، وإذا كانت الشبيبه الأدبية تريد حقا أن تطلب حسابا إلى أحد على نحو ما سمعنا في هذه الخصومة فلتطلبه إلى ناشريها.

وهنا استطراد؛ فلعل مورياك وروبس يستطيعان أن يعترضا عليّ بأنهما قد وضعا الإشكال في مستو أعلى بكثير من هذا، وان الحسابات المطلوبة ليست من نوع الحسابات الزمنية، ولكن صبرا إذ يجب أن نواجه المشكلة طبقة بعد طبقة.

هل كان الكتاب الجدد يستطيعون أن يحاولوا الكمال، على فرض أنهم كانوا يحسون بضرورته بينما كانت كتاباتهم تختطف من أيدهم اختطافا، بل وأحيانا قبل أن يلقوا عليها نظرة تصحيح أو يقرأوها قراءة نقدية، ولقد حدث أبان تلك المدة العجيبة أن اعترفنا إلى رفاقنا الشبان بأننا اضطررنا جميعا حوالي سنة ١٩٠٦ إلى أن نطبع كتب شعرنا الأولى بمدخرنا الخاص. وكيف نستطيع أن نصف ابتسامة الدهشة والإشفاق التي كان يثيرها هذا الاعتراف في بعض الوجوه. ولقد سمحت لنفسي يوما بأن آخذ على شاب من أكثر لاحقينا إشراقا آثار إسراعه في الكتابة، فأجابني رافعا ذراعيه (إنك لا تستطيع أن تتصور إلى أي حد يلحون علينا)

ولقد أجاب آخر من خيرة الموهوبين في جيله، عندما وجهنا إليه بعض الانتقادات، معترفا بأنه اضطر مرة إلى أن يؤلف كتابا في ثلاثة أيام لكي يفي بتعهداته، ولقد تقدم شاب صغير جدا لم يكن بعد قد نشر شيئا، بكتاب متعال مبتور لا يقرأ، وعندما اقترحت عليه أسماء عدة ناشرين أجابني في جزم (سأذهب إلى من يقدم إليّ أحسن عقد)، وكان رجال في السادسة والعشرين من عمرهم يقولون بأوجه جافة (لا بد لي من ستة آلاف فرنك كل شهر) أو (سأترك فلانا لأنه لا يعلن الإعلانات الكافية) أو (أستطيع أن أذهب حيث أشاء فلي خمسة عشر قارئ موثوق بهم).. وعندما كنت أقول لهم أن رجال جيلنا قد تعلموا وأحيانا زاولوا مهنة أخرى ليكونوا أحرارا في الأدب، كان هؤلاء الرفاق الشبان يرسلون التنهدات، ولهم العذر في ذلك،

فقد كان الناشر يدق النواقيس على أبوابهم ويدفع لهم (شهريات) ويطبع حتى دون أن يقرأ، ثم يحرك لهم جهاز الإعلان النابح بأكمله، وأخذ الآباء في إعداد أبنائهم لمهنة الكتابة، وتلك ظاهرة إذا صدقنا جوتييه لم تر منذ عهد شبان (مؤلف العذراء).

لقد كان المتعهدون الذاهلون يتخاطفون هؤلاء المبتدئين الذين لم يلبثوا أن ضلوا فأحسوا بمعنى الأمانة يموت في نفوسهم، تلك الأمانة التي بدونها يستحيل كل عمل مشترك وكل تضامن حقيقي. ومن ثم إذا كان هؤلاء الشبان لم تشغلهم أثناء تلك المدة التعسة أي أحاديث هادئة كانت أو حادة، عن الفن الأدبي والتقاليد الأدبية وأخلاق الأدب وحياته، فمن في صراحة يستطيع أن يدهش لذلك؟

فرعشة القداسة التي كنا نحسها أمام الصفحة البيضاء، والشعور بأننا نمسك في إجلال أداة مجيدة، وأننا نكتب تحت رقابة مائة من الأساتذة المبجلين ينظرون إلينا بأعين يقظة، كل هذا لا يمكن أن يتفق مع هيئة اجتماعية مشدوهة بعجيج الأصوات وصيحات المزايدات وصخب التجارة.

لقد قضيت أياما كاملة مع رجال من سني الكثيرين منهم فنانون ممتازون في مناقشات حادة عن النصوص والأحداث أو في المقابلة بين المناهج والمواد الأولية، أو في نقد دوافع فننا ومصادره ولكن الفرص لم تتوال كثيرا لمثل هذه المنازلات مع رفاقنا الشبان، إذ كانت مشاغلهم من نوع آخر، كان عليهم أن يشبعوا أولا رغبات الهواة وأن يقاوموا نزوات الموضة وتقلبات الناشرين وانصراف الرأي العام، وكان لا بد لهم طبعا من المناقشة فيما بينهم، وكأنهم مسايفون في ساحات صاخبة، وهكذا لم يطلبوا إلينا ما كنا نستطيع أن نعطيهم إلا في النادر، وعلى العكس من ذلك كانوا يطلبون إلينا أحيانا أن نتدخل لمصلحتهم في تلك المعركة المضنية التي التحموا فيها، وما اظن أحدا من الكبار قد تنحى يوما عن هذا الواجب، وإن كانوا قد اضطروا غالبا إلى جرح هذا لإرضاء ذاك.

والذي لا شك فيه أن الجيل الناشيء، قد لقي في المجال الزمني أكبر التسهيلات

وأحيانا أخطرها، وأما أنه قد وجد في المجال الفني أساتذة تحت تصرفه، فذلك ما لا يستطيع نفس دانيل روبس الناقد اللاذع أن ينكره، ولكننا لا نكاد نترك المسألة الزمنية إلى المسألة الروحية، حتى يتغير الإشكال دفعة واحدة، وتزداد شكوى الشبان قوة وإيلاما.

يلوح لي لأول نظرة أن اليافعين الذين اتجهوا بعد الحرب الماضية إلى من يكبرونهم ليتخذوا منهم أساتذة، قد خلطوا في سخاء بين الأستاذ والرئيس، بل أحيانا بين الأستاذ والقديس، وأحيانا أكثر بين الأستاذ والمتنبئ، أو إذا شئت العراف. وهنا تبدأ مناقشة جديدة.

في الفقرة الأخيرة من البحث الذي خصصه دانيل روبس لمحاكمة الأساتذة نجد هذه الخاتمة (نحن نحترم الكثيرين ممكن يكبروننا، ولكننا لا نتبع أي واحد منهم مغمضي الأعين) ولقد كتب لأول وهلة بالهامش (لحسن الحظ)، ولكني بمعاودة النظر وجدت أن جملة دانيل روبس تستحق تعليقا أطول، إذ من الواضح أن الشبان يحسون في أيام الاضطراب بالرغبة في أن يتبعوا أحدا ما (مغمضي الأعين) وهذه الرغبة المؤثرة يمكن فهمها.

ولو أنه أتيح لي أيام شبابي الأولى أن أتردد على أولئك الذين كنا نعتبرهم أساتذتنا، إذن لربما كانت تبلغ بي الجرأة أن أسألهم رأيا في المجانسة أو في الأوزان الشاذة، وذلك لا لأني لم أكن مشغولا بمسائل أهم، ولكن لأن معظم تلك المسائل كانت ألصق بقلبي من أن أطرحها للبحث أمام الغير.

ولقد وجهت نفسي، وإن كنت لم أفلت من الألم خلال أزمتي الميتافيزيقية الأولى، أزمة اليفاعة، وقد لاح لي عندئذ، ونحن على أبواب انقلابات لم يكن من السهل التنبؤ بها أو تصورها، أن العالم ليس بسيطا بلا ريب، ولكني كنت أعتقد أنه سيكون لي من الوقت ما أستطيع أن أواجه فيه كل المشاكل الواحدة تلو الأخرى، وأن أتغلب عليها بالصبر، ولما كنت قد حرمت منذ اليافعة مما يسمونه هدي الدين فقد أخذت

أبني في مشقة كبيرة عالما لنفسي. وفجأة ردت سنة ١٩١٤ جزءا من بنائي إلى العدم، وكنت عندئذ في الثلاثين من عمري، ولا أستطيع أن أقول أن الحاجة إلى أستاذ روحي لم تضمني أثناء تلك المغامرة المخيفة، ولقد أحسست مرتين بأنني قد وجدت القادة الحقيقيين، وهزتني نشوة إلى الطاعة في ثقة تامة.

وأما عن النصائح التي كانت تمس أخطر المشاكل الأخلاقية، فلم يكن لي بد من أن أطلبها بالمراسلة، والغالبية العظمى من الرجال الممتازين الذين كنت أعتبرهم أساتذة في الفن كانت حيرى من حوداث ذلك العهد، ولقد انسحب كل منهم معتزلا ناحية من النواحي المتعارضة بالأفق.

وهكذا اضطرت أن ألتمس وحيدا سلوى عما كنت أواجه من صعوبات، وأن أرسم لنفسي خطة للسلوك في الحياة، وفي سرعة كونت ذلك الرأي الحكيم الذي دفعني، وقد حرمت من أوامر الدين وما يماشيها من قواعد الأخلاق والسياسة إلى ألا أعتمد على أحد في العثور على سبيلي الشخصي.

عندا انتهاء الحرب اتفق لي مرتين أو ثلاثا أن سألت في لحظات ضعف أو حب استطلاع رجالا يعتبرون عرافين إن حقا وإن باطلا، ولقد استخلصت من تلك الأسئلة مبادئ (جاهزة) فأمسكت عن أن أستمر في التجربة. وكنت قد نضجت وقد تكوَّن لي رأي عن المشاكل الأساسية التي يواجهنا بها العالم، ولم يكن هذا الرأي جامدا بل كان يتغير، ومازال يتغير حتى الآن من يوم إلى يوم أولا لأني أنا نفسي أتغير بالنضوج، ثم لأن العالم من حولي لا يقف عن التغير.

وبعيد ذلك التاريخ، تاريخ الهدنة والسنين الأولى للسلام أحسست أن الموقف سيتغير، وأنه ستنهال علي بدوري أسئلة الجدد واليافعين إذ كان الأمر قد انتهى بأن أصبحت أعتبر أستاذا شابا، وكان ذلك عبر نشري لكتاب كتبته في أحلك سني الحرب ظلمة، ولقد مس هذا الكتاب الذي ألفته عن نفسي، أرواحا أخرى فلاقى محبتها.

ومازلت أرى صديقي (س) ذا القلب الكريم، والعقل المغذي، وهو يصيح عند نهاية حديث اجتمع له عدد كبير من أعضاء مؤسسة تير (لقد أعطيتنا الأخلاق فعليك أن تعطينا الميتافيزيقا). ولقد اضطربت لتلك الكلمات اضطرابا لا أستطيع وصفه، إذ كنت ولا أزال أمقت عدم الكفاية الذي لمسته أحيانا عن بعد، وإن كنت أحسست دائما بأني شديد الانتباه إلى هذا الأمر، بل والحذر منه.

وثمة مثل أستطيع أن أستعين به، فإنه وإن يكن شخص باريسي قد ظل بعيدا عني، بل وأوحى إليّ نوعا من النفور، فإني كنت أحترم الكاتب وأعجب به، إلى أن كنا في أوائل الحرب، وكان من عادتي أن أتتبع المقالات التي كان ينشرها في صحيفة باريسية كبيرة، فأثار يوما اهتمامي أن رأيته يكتب مقالة عن فرقة أطباء الجيش التي كانت جديدة في نوعها، والتي كنت من أفرادها، وقد جئنا إلى أرتوا تجارب، قرأت المقالة في نهم، فوجدتها تحوي أخطاء عديدة وآراء مسروقة، فاستنتجت من ذلك بكل بساطة أنه مادام باريس قد أخطأ في إحدى تلك المسائل النادرة التي كنت أنا على علم تام بها، فهناك احتمال قوي جدا في أن يكون قد أخطأ فيما عدا ذلك وخدع قراءه، وهكذا بدا لي أن مؤلفات باريس اليومية فانية، وأنا أعترف أن هذا الحكم ربما كان مسرف الخشونة.

ومن ثم يسهل تصور اضطرابي عندما أدركت أنه سيطلب إلي كل يوم، وربما كل دقيقة من اليوم، ما لا أملك، وأنني سأحمل على الحديث في كثير من المسائل التي لا أعرفها، ولا يمكن أن تكون قد وصلت إلى (معلوميتي) كما يقول رجال القانون، ولكن سرعان ما ذهب هذا الاضطراب وحل محله تصميم ثابت.

وأنا أعلم الآن بالتجربة أن حاجات الناس ورغباتهم لا نهاية لها، فعابر الطريق الذي يوقفك ويطلب إليك عودا من الثقاب، ما عليك إلا أن تتركه يتكلم ليطلب إليك بعد عشر دقائق أن تأتيه (بربنا) فكلهم، علموا ذلك أو جهلوه، يريدون قانونا أو قاعدة أو قيادة أو قيودا. وهم يبحثون عمن يلقون إليه عن كواهلهم مهمة التقدير

أو الاختيار، مهمة التصميم والفصل والانتهاء إلى خاتمة، وكلهم في النهاية يريدون الرب والحياة الباقية حتى ولو كانوا فيما عدا ذلك مستهترين شاكين غلاظا ميتي الإحساس.

هذا ما عندي أقدمه، وما أعلمه أقوله، فأنا كاتب في سني النضوج، وقد رأيت الكثير من الناس، كما قمت ببعض الرحلات وأنا فوق ذلك طبيب وقد استقيت من الطب معلومات إنسانية ضافية، هذا ميدانه، وهو ليس متناهيا في الصغر فأستطيع أن أرد على كثير من الأسئلة، وإن يكن ما لا بد من تركه بغير جواب أكثر، وتلك أسئلة يجب على كل رجل شريف أن يتركها كذلك.

هناك كتاب ممتازون وفنانون كبار بلا ريب، قد أيقظوا في قلوب الناس بتأثير كتاباتهم ثقة لا يكاد يكون لها حد، وأمجد مثل لهم هو تولستوي، وسرعان ما اتجه الناس إلى هؤلاء الأساتذة يطلبون إليهم ما يمكن أن يطلب، وما يطلب بالفعل عند الحاجة من الله، ولقد أجاب هؤلاء الأساتذة في كل الأحوال تقريبا، وهذا ما ألومهم من أجله.

ودانيل روبس مصيب بلا ريب عندما يقول أن الأستاذ الحقيقي هو ذلك الذي يقلب الأفكار، ولكن هل يجب أن نعتبر أستاذا ذلك الذي (يقلب الأفكار) في غير حذر؟ وعندما نعلم ضخامة بؤس الإنسانية، هل نستطيع رغم ذلك أن نعتقد أنه من الممكن أن نرد في حذر وحكمة على تلك الأسراب من الأسئلة التي تدخرها الجماهير البائسة من الناس.

وأنا أعلم أن الإغراء قوي، وأن الجواب يتفجر أحيانا في صيحة غضب أو بداهة عقل، أو صداقة أو رحمة، جاءني يوما قسيس بروتستنتي شاب وأخذ يحدثني عن شكوكه أعني شكوكه الدنينة، وأخيرا قال: (هل يجب علي أن أترك الكهنوت) فانتفضت قائلا: (مادمت قد ألقيت هذا السؤال فقد تخليت عن الكهنوت) لقد انطلق من قلبي هذا الجواب في قوة، وهو معقول في ظاهره، وعاد القسيس إلى بيعته حيث لا يزال منذ عشر سنين، ولربما كان في هذا خيره وخير الجميع.

يريد الناس أنبياء، يريدون رسلا، يريدونهم باستمرار وفي غير انقطاع، ومن ثم كان من واجب الرجل الشريف، أن يردهم عن تلك الغواية، ولقد حدثت من عندي بشيء خصيصا ليكون رجلا من هذا النوع، ولكنه عندما حان الحين أعلن رفضه لهذه الوظيفة نهائيا، لقد أحسست بتقدير كبير لهذا النبي المستقيل.

سنحت لي الفرص بمقابلة ربندرانات تاجور عدة مرات في اجتماعات قاصرة على عدد صغير جدا، ولقد فهمت أن الشرقيين لا يرون في هذه المسألة الرأي المتواضع الذي أبديه هنا، وهم بلا ريب يستمدون من تقاليدهم الدينية ضمانا ونفوذا من الطبيعي ألا يستطيع المفكر الغربي أن يعرفه.

والمتنبئون نافعون في بعض لحظات التاريخ، ومع ذلك فأنا أحذرهم وأرفض أن أقلدهم، وعبارة كل تلميذ هي (ماذا أفعل) وهي عبارة مؤثرة جدا، والرجل الذي يقولها ينتظر جوابا شبه إلهي، والمتنبئ لا يجوز له أن يظهر بمظهر المتردد، وإلا ذهب ذلك بشهرته وبأشياء أخرى كثيرة، بقضية الرجل وإيمانه. والمتنبئ لا يتردد ولكنه يمد ذراعه ويرفع لحيته ويفوه فيفصل في تأكيد، وهو يبرع في تكرار الصيغة الفعالة التي قد تكون سبيله، وعلى التلميذ أن يستوضح كنهها فيما بعد على مهل، وشيئا فشيئا تنمو عادة الفصل في كل شيء، ولينزل بالتلميذ والمتنبئ لا ينزل.

لا أريد أن أمثل دور المتنبئين، وإذا لم يكن بد من أن أتحدث كالمتنبئ لأكون ما يسميه دنيل روبس أستاذا حقا فلن أكون قط ذلك الأستاذ، لن أكون إلا كاتبا من بين الكتاب. والأستاذ في نظرى هو من يردنا لنقف أمام ضميرنا الذي هو الحكم الوحيد في كثير من المواقف.

قيل أن الرومانوف كانوا يشعرون بلوعة شديدة في السنين الأخيرة، لأن أحدا لم يكن يطلب إليهم شيئا، وأنا أفهم تلك اللوعة، وإذا حدث في المستقبل أن صمتت تلك الأصوات التي تتجه إلي منذ سنين طويلة في ثقة ومحبة، فإنني ربما أحزن، ولكن إذا كان لا بد لتعهد الجوقة من أن ألعب دور المتنبئ، فإنني اقول: فلتصمت الأصوات.

لي ثلاثة أبناء، فموقفي بسبب ذلك موقف خاص إلى حد ما، وعندما يتجه ذهني إلى الشبان، أراني أفكر هل لي أن أقول، في مصلحتهم وفي مصائرهم أكثر بكثير مما أفكر في تأثيرى الشخصي وفي اسمي وفي مجدي.

٢

الطفل المدلل

لست أدري هل لا يزال الشبان يتذوقون بيرلويس، وبودي أن أعرف رأيهم في قصة صغيرة له عنوانها (الرجل الأرجواني) اكتشفتها منذ خمسة وعشرين سنة، وسأمسك عن أن أبدي فيها أي رأي نقدي، فالكتب كالرجال تتغير بالنضوج، وكل حكم يلوح مجازفا فيه إذا لم يتجدد ويصحح بقراءة حديثة جدا تقرأ في السنة نفسها، بل هل لي أن أقول في الأسبوع نفسه؟

وأما وقائع تلك القصة القصيرة فها هو ملخصها: كان لمصور إغريقى شهير – ونحن في إغريقيا القديمة – عبد ذكر اتخذه نموذجا ليصور بروميثيوس، فأنزل به العذاب بأن أحرق جنبه ليمثل بأقصى دقة ممكنة ملامح رجال يتألم، وعلم الشعب هذه القسوة فطالب بالقصاص، وعجت الثورة تحت نافذة الفنان الجلاد، ولكن هذا الأخير ظهر في تلك اللحظة وقد عرض إلى الجمهور اللوحة وقد انتهى منها، فإذا بالشعب فجأة يهتز حماسة وينصرف عن القصاص مدويا بصيحات الإعجاب هاتفا للفن الخالد.

وثمة الكثير مما يمكن أخذه على المناهج التجريبية التي استخدمها هذا المصور الواقعي، فالحديدة الملتهبة لا تخلف نفس الآثار التي يخلفها النسر، وذلك إذا قصدنا إلى الدقة. ثم إن كبد بروميثيوس كان يعود إلى النمو باستمرار، وهذه حقيقة تجريبية كان من واجب تلك العبقرية الأمينة أن تحاول توليدها، وفي استطاعتنا أن نواصل التعليق إلى ما لا نهاية على عمل هذا الفنان الفقير المواهب، وقد احتاج إلى أن يثير الألم لكي يصفه.

وإذا كنت لا أزال أذكر هذه الحكاية مع أنني في العادة أنسى سريعا وقائع الروايات، فذلك لأنها تلقي بعضا من الضياء على خصومة غامضة ما فتئت تبعث من جديد ككبد برومثيوس، أذكرها لأنها تحدثنا عن ذلك النزاع الذي ينشب بين الفنان والهيئة الاجتماعية.

عندما نشر بيرلويس (الرجل الأرجواني) كنت لا أزال حديث عهد بالحياة، حديث عهد بالآداب، وكانت الرمزية قبس ضيائنا، وهذا ما لا أشكو منه، وبالرغم من انتصارات الرومانتزم، وبالرغم من سيطرة كبار الواقعيين، كنا نحس في قوة بالعدواة القائمة بين الجمهور والروح الخالقة، وكان ذلك العهد عهد الشعراء (الملعونين) والموسيقيين الشهداء، والمصورين (المنبوذين).

وكان الفنانون يقابلون الكثير من الاحتقار بالكثير من الكبرياء، وهل كانوا يستطيعون أن يذكروا تاريخ أسلافهم في غير مرارة، لقد اضطروا إذ أعوزهم شرف الميلاد أو وفرة الثروة أن يعيشوا خلال قرون على جيوب الكبراء يأكلون في مطابخ الأمراء، ويلتمسون المعاشات، وينتظرون في غرف الانتظار الجانبية ويقدمون المدائح ويلتقطون الفتات، يلبسون مثل موزار البدلة الحمراء ذات الشرائط الذهبية كموسيقيين خدم، ويقاسون مثل موليير من غلظة لافياد، ويحنون رءوسهم كجيته أمام السادة المنبعجين، أو يسكنون السجون كبومارشيه، أو يبتلعون المفاتيح كجلبير، ثم تغير وجه العالم إذ انهار الكبراء وتعلم الشعب القراءة حتى كان من الممكن أن يظن أن شمسا جديدة قد تشرق.

أمل ضائع، فقد اضطرت النفوس الخالقة إلى أن تكافح من جديد، وأن تكافح ساقا بساق ضد أمواج دافعة من الحمق والجهل، وأن تناضل دون غايتها وسط صخب الجموع، مسلمة مؤلفاتها التي ترتعد حماسة إلى سخرية أناس لا يعرفون على حد تعبر فلوبير إلا أن يفكروا بحقارة.

ولقد انتهى القرن التاسع عشر وسط المشاجرات، ولاح أن المعركة بعيدة عن

النصر، وهل ستصل إليه يوما ما، هل سيأتس يوم يتمتع فيه الفنان، في هيئة اجتماعية محكمة البناء بمكانة مشرفة وتقدير واف عادل؟

هذه هي المشكلة التي كان زملاؤنا الأكبر منا سنا يثيرونها في مناقشاتهم الصاخبة عندما كنا نحن أطفالا، ولقد لوّنت النفوس صلابة الرومانتزم الأبية، حتى مستهل القرن الجديد، بل حتى يومنا هذا، لقد سخر من العبقرية فجرحت وتألمت، وكان ردها أن طالبت محتقريها بامتيازات استثنائية بل مرهقة، وهذا الرد لا يعتبر سطرا تافها في تاريخ أسلافنا.

ولقد كانت تغرس في ندوات الأدباء إذ ذاك أخلاق متعالية نفورة، أخلاق ترى أن للعبقرية كل الحقوق، وأن الانتاج الفني يبرر الوسائل، وأن النفوس الممتازة تفلت من المقاييس العامة، وأنه من الواجب أن يسمح لها بكل شيء، وتلك كلها حكم أظنها كانت تبعث إلى الدهشة عند لافونتين وراسين وجان سبستيان باخ وبوسان، الأعلام ذوي الطموح الهادئ، وهذا المذهب الذي لم يمت بعد مازال يثير في أيامنا حماسة المجادلين والمعلقين، فيقول مؤرخ لحياة موزار: (إن كبار الخالقين في حاجة إلى حرية كبيرة مادية وروحياً) وهذا تصريح يدعو إلى الابتسام عندما نذكر حياة المسكين، ولفانج أميديه.

قصة بير لويس الصغيرة التي لخصتها فيما سبق توضح إلى حد بعيد فيما أظن صفحة كاملة من أسطورتنا، الفنان إذن سيد من أسياد الأرستقراطية الحديثة، فهل سيرفض الناس دائما أن يعطوه تلك السلطة المطلقة الشبيهة بسلطة الملوك، وهو يقدم إليهم مقابل ذلك كنوزا من الجمال الخالد.

سك الأفكار مجازفة خطرة، والفكرة التي تشغلنا الآن قد انتشرت في أنحاء العالم فهرمت وتغيرت، وانحطت يوما بعد يوم، حتى أصبحنا نرى الرجال ذوي العقل الراسخ يبتسمون منها، ومع ذلك فهي لا تزال تسير وتدوي.

فأما أن الفنان (كائن فريد) فهذا ما لا يجد أفراد الطبقة الغنية (البرجوازية)

الذين أفلتوا من صواعق فلوبير، حرجا في التسليم به، ولكن الصورة التي رسمها الرومانتيكيون لم تلبث أن فقدت إشراقها عندما تأقلمت بتلك العقول الهينة، فالفنان لم يعد ذلك الكائن الشبيه بالآلهة، الغامض المحير، حامل النار المقدسة، لم يعد كالكاهن أو الرسول من رواد السموات الذين نعجب بهم في الدمى، بل أصبح (شاذا) هوائيا نمرة، وهم لا يعفون عن كل ما يفعل، بل يتسامحون معه في أشياء، فيغضون عن بعض هفواته.

وهم يذكرونه بابتسامة هازين أكتافهم ويسلمون له في غير حماسة، ولكنهم على أي حال يسلمون، بامتيازات يؤسف لها كأن لا يدفع ديونه مثلا أو أن ينسى تعهداته أو أن يخون أصدقاءه، وبالجملة هو طفل مدلل يتحدثون عن حوادثه في مزيج لطيف من الدهشة والخبث، طفل مدلل يلهو أحيانا بأن يصيد الذباب لكي ينتزع أجنحته فينهروا به ضاحكين.

قال لي ألفريد فاليت ذات مرة (لقد خالطت الكتاب والشعراء والفنانين خلال خمسين عاما، ولم تقم قط بيني وبين واحد منهم خصوصية، ولك لأنني أعلم أنه لا يمكننا أن نخضعهم للمقاييس العامة، ولو أننا حاولنا أن نتمسك معهم بحرفية القوانين لوجب أن نختصم مرارا. فكثير منهم يسلكون في المعاملات مسلك الأطفال الهوائيين، وفي الحياة اليومية مسالك سيئة النية، أظن انهم يدهشون ولربما حزنوا إذا حاول أحد أن يوضح لهم أخطاءهم، إنهم على جانب كبير من السذاجة.)

وأضاف ألفريد فاليت في ابتسامة الفيلسوف: (عدد منهم سحرة غير مسئولين، وكل الناس متفقون على ألا يسرفوا في اختصامهم من أجل ذلك).

لقد ملأتنى هذه اللاذعة الراقية بالخزي لأولئك الذين أظن أنها تتجه إليهم، وهي تلقي بمسألة الأخلاق في وسط المناقشة. الأخلاق هي التي تنفث دائما الروح في العبقرية، وإن كانت تبقى أحيانا غريبة عن النبوغ والأخلاق، أندر من العبقرية إذا أخذنا لفظة أخلاق بمعناها المطلق، وهي أثمن ما يوهب.

لقد انتقى قلم فوفنارج هذه الجملة التي تلوح غير موفقة (لم يقتسم قط إنسان كل الهبات) أقول غير موفقة لأن فكرة الكلية تنفي فكرة التقسيم، وأضيف إلى ذلك أنها تدعو إلى الابتسام إذ نراها تحمل من الجد والسذاجة ما تحمله الحكم السائرة، ولكن ليقلها فوفنارج عن شاعر وها نحن جميعا نلقي السمع. وذلك لأننا نود في حرارة أن تحظو كل الهبات بعض الرجال، نود ذلك لحبنا الكبير للإنسان، لحبنا الكبير لأنفسنا ولاحترامنا البالغ للحياة، فإذا اجتمعت لفنان حقيقي كل الهبات وجب أن يغمرنا ذلك بالسعادة وهبة الأخلاق من بين كل الهبات هي الهبة التي نرجوها بكل حراراة وإلحاح للفنانين الذين نعجب بهم.

أعرف رجالا سخت عليهم الطبيعة، فلهم ملكات خالقة ممتازة وذوق مرهف ونبرات لا تحاكى، بل وأحيانا كثيرة أنواع من ملاحة المظهر، وجه ساحر وصوت مؤثر وقبضة يد حارة، ثم ماذا، لن أطلب إليهم كوب ماء، لن أطلب إليهم أن يذهبوا لرؤية صديق في ضنك، أو أن يتدخلوا في خصومة، أو يقتسموا عبثا أو أن يقبلوا واجبا، بل ولا أن يمدوا يدا أو يفتحوا عينا أو يعيروا سمعا، هؤلاء فنانون ماهرون، مغنون ممتازون، حواة كلاب عالمة، وإن أعجب بهم أو على الأصح أعجب بما عندهم من هبات، الحظ الذي لا مثيل له ونزوة الملاك.

ومع ذلك أشعر نحوهم بنوع من الاحتقار مع عمل كل ما يلزم كي لا يظهر من ذلك الاحتقار شيء، ولو أن هذه الهبات سلبت منهم، وذلك ما قد يحدث لأصبح هؤلاء الرجال فجأة أقل في نظري من قشرة برتقالية، أقل من تخت زهرة النسرين.

أعرف رجالا لهم ما يسمونه في الفن شخصيات قوية مع ذلك يعجزون أحيانا عن أن يتخذوا قرارا، أو أن يفصلوا في نزاع ودي، أو أن يقدموا نصيحة، أو أن يؤدوا أقل خدمة، وأنا لا أطلب إليهم غير اللذة، وأضعهم في تقديري غير بعيد من العاهرات الجميلات.

لقد عشت ما يكفي لأقول في عزم أنني إذا كنت أعجب بالفنانين الكبار فإنني

أعجب أكثر من ذلك بالأخلاق الكبيرة فأتلمسها وأجلها. ثم ماذا؟ إن المستقبل القريب سيتولى تطهير تلك الخصومة، وفي كل يوم تعيد الهيئة الاجتماعية توزيع الأدوار والتيجان، وقد أوشك أن ينتهي زمن الطفل المدلل البهلوان ودور المؤمنين به، ثم ماذا سيفعل الفنانون غدا في هيئة اجتماعية فريسة للتجارب السياسية والاجتماعية، مجنون من لا يريد أن يفكر في هذا.

٣

نقيض النجاح

يمكن أن نعثر بين الحكم اللاذعة التي ينفثها قلم لوجان سميث على مثل قوله: (العبودية والانحطاط جزاء وفاق للنجاح، فالكتاب الذي يروج قبر مذهب للموهبة غير الممتازة)..

لوجان برسال سميث أديب مرهف، وقد نشر قصائد صغيرة نثرية يسميها فاليري لاربو قصائد مهموسة، وقد ترجمها فيليب نيل ترجمة ممتعة، وإنه لما يؤسفني أن أرى مؤلف تريفيا يركن إلى مسلمات مسرفة، لوجان برسال سميث يستحق عقابا قاسيا، وليكن عقابه مثلا نجاحا حقيقيا.

وكلمة نجاح ليست اليوم من تلك الكلمات التي يمكن أن نفوه بها جزافا، فمنذ ثلاثين سنة تقريبا، أي منذ أن أدخلت على جماعة الأدب وسائل التجارة، وغاياتها المادية، أخذت تلك اللفظة نبرات مزعجة. فشيطان الكم، الذي سيحكم العالم عما قريب يلوح أنه زاد تمكينا لنفسه وتقوية لاستحكاماته في الآداب وغير الآداب في بلادنا وفي كل البلاد، وإن كنت على ثقة من أنه لا يزال هناك مؤلفون يرون في استلام خطاب من جيد أو كلوديل نجاحا بينًا.

أو ما يعتبر الرجل العاقل ناجحا أن يقرأ أصدقاؤه ما كتب ويتذوقوه، وفي حمل شخص ممتاز على أن يبكي أو يحلم أو يضخم ما يمكن أن يعد شيئا جميلا، ومكافأة كافية لنفس لم تفسد، ولكن ما هذا، والفنانون والكتاب والشعراء لا يرمون إلى

النجاح الساحر، النجاح الذي يستسيغه ذوقهم فحسب، بل يطاردون النجاح بمعناه المطلق، وهو النجاح الوحيد الذي يحسب، أو على الأصح يحسب بعملية حساب، أعني الذي يحسب أرقاما عالية.

وإنه لشيء غريب أن نرى أن تدخل شيطان الكم لا يبسط المشاكل في الظاهر إلا ليزيدها في الواقع تعقيدا، إذ ما معنى المعيار إزاء اللا محدود، إزاء اللا نهائي، أين يبتدئ النجاح، وما هي أمارته المميزة، ثم أين يجب أن يقف، بل هل يجب أن يقف، فالخمسة الآلاف نسخة التي يفتخر بها بول تبدو متواضعة بالقياس إلى الخمسين ألفا التي يطبعها بير، والخمسون ألفا التي يطبعها بير تتضاءل، وإن تكن فيلقا محترما إزاء الثلاثمائة ألف التي يطبعها إيزيب.

وإزيب نفسه يمتقع لونه إذا جرؤ أحد أن يواجهه بجحافل المكتبات الألمانية والأنجلو سكسونية، وفي هذه الحسابات الفلكية يموت الحب والإعجاب، وما الأرض إلى جانب المشترى إلا تفاحة إبيوس، والمشترى حقير إزاء الشمس، والشمس نفسها لا تزن شيئا إذا فكرنا في المائة نجمة التي نعرف أنها ليست أكبر ما بالعالم المحير، وهذا ما نعرفه عنها.

لقد سممت الأرقام كل شيء، وإن كانت لا تستطيع أن تعطي عيار شيء، فهي تنزل الدوار أحيانا ببعض النفوس المتزنة القوية، ومن المؤلفين الذين لاحوا معززين بشهادة ذوق الذوق، من يحلم، وهذا ما لا يخفونه دائما، بما يسمونه النجاح الشعبي، وذلك طبعا (لمجرد حب الاستطلاع)، ولمعرفة (الشعور الذي يبعثه في النفس)، ليتموا جمع الأسلاب، وليتذوقوا ولو مرة بعض تلك الإحساسات الغليظة القوية، ولما كان النجاح الشعبي ظاهرة لم يكتشف بعد سرها فإن حب الاستطلاع هذا قد كلفنا عددا من التجارب المؤلمة.

فمن الشبان من هزتهم اقتراحات التجار، وأنزلت المنافسات الشهيرة برءوسهم الدوار، كما دفعتهم تلك الحمى التي يجب أن نسميها جونكورية إلى أن يروا في

النجاح الكمي شرطا أساسيا لمستقبلهم، ودليلا يدفعهم إلى الأدب أو يصرفهم عنه، وعندهم أن حركة الآداب قد أصبح العالم كله مسرحها، ذلك العالم الذي يسخر من المؤلفات ويتطلب بوجه خاص معارضين ومنتصرين ومهزومين وأسبقيات وجثثا.

يشعر الملاحظ الصافي البصر أمام هذه الظواهر بضيق لا يستطيع أن يتغلب عليه، وهو إذا كان ذا كبرياء غيور المزاج، وكان ممن يتصورون الفن في صورة أبية لا تقنع بالقليل ولا تنزل عن رأي لم يجد بدا من أن يرفض الموافقة على حكم الجمهور وأن يجحد النجاح. وهو لا يفعل ذلك في غير مناقشات وخصومات بينه وبين نفسه، فالرجل الذي يقرأ كتابا سامي الذوق يقدح في عدم إحساس الجمهور، ويأخذ إذا لم يكن أثرا في بث حماسته للكتاب في نفوس أتباع جدد، ولكنه لا يكاد ينتهي من كسبهم حتى يبتدئ يتألم، فهو يجدهم غير أكفاء أو مهاترين سفهاء، وهو يأسف مر الأسف لعدم استمراره في الحب وحيدا، ثم لا يلبث أن ينصرف سخطه إلى موضوع حبه، فعندما اشتهر ماترلنك دفعه أقدم أنصاره بأرجلهم وسموه في مضاضة (فيلسوف مجلات).

وأنا أعرف أناسا حسني النية لا يزالون يجلون كلوديل، وذلك لأنه لم يوسم بعد بميسم الأكاديمية، ومع هذا فحماستهم قد ابتدأت تخبو لأنهم أخذوا يظنون أن شاعرهم قد لا يكون في النهاية إلا شهاب معبد، وهذا خوف لا يليق، وجيرودو لم يعد من المتعة بحيث كان منذ أخذ جميع الناس يتمتعون بمسرحياته، وليسرع المسيو أندريه مالرو في تذوق أخر جرعات المجد بندوات الأدب، فإنه إذا وافق – وليس هناك ما يدل على أنه سيرفض – سيصبح اسمه غدا في كل النفوس، وستصبح كتبه في كل المكاتب، ولربما غضب عندئذ أولئك الذين يكونون قد تمنوا ذلك أعظم التمني، وهكذا يتعثر الحب، ولسوف يرددون مع لوجان برسال سميث: الكتاب الذي يروج قبر مذهب لموهبة غير ممتازة.

وأقول أنهم سيكونون على خطأ، سيخطئون إذ يبسطون وفقا لهواهم مشكلة دول التاريخ على أنها معقدة إلى حد ما، أحقا أن موهبة كورنييل وراسين وموليير

كانت موهبة غير ممتازة، وما معنى هذه الحدة في المزاج، هل لنا لإسرافنا في الذوق، ولحرصنا على المرهفات أن نتخلى عن العالم للحيوانات، وأن نهجر رسالتنا وأن نخون الفن نفسه، ونحن ندعي خدمته..

والخصومة ليست وليدة اليوم، إذ أنه بعد نجاح هوراس نجاحا أوشك أن ضمن للممثلين قوتهم ستة أشهر، رأينا المسكين شبلان يكتب إلى أونوريه دي بلزاك قائلا: هذه مواضع الشعراء المأجورين، وهذا مصير المسرحيات التجارية، فيا للعجب كورنييل شاعر مأجور، اللهم رحماك. وفي الحق أنه لأمر هين أن ينتصر بردان دائما على راسين، ولكن لحسن الحظ العصر الذهبي، كانت لراسين الكلمة العليا، ويلوح أنها لا تزال له.

وعبقرية موليير موهبة غير ممتازة مادام قد صفق للمتفيقهات خلال أربعة أشهر، ومادامت البخيل عند العودة إليها قد مثلت سنة كاملة بغير انقطاع.. لا.. لا.. لنحذر أمثال تلك المكابرات فإنها قد تكون ضارة.

وهل يجوز لكي نفكر عن نجاح الممرورين والحمقى والمخاتلين أن نبلغ من الجرأة المسرفة حد التنكر لما أصاب أساتذتنا من نجاح، ذلك النجاح الذي يجب أن يكون فيه عزاؤنا وعلة حياتنا، وهو الضوء العزيز الذي يضئ ما نتعثر فيه من ظلال.

يقول سانت بف: إن نجاح أتالا كان خارقا، وهذا لا يحط من قدر شاتوبريان، والنقاد يجمعون على الاعتراف بأن نجاح فرتر كان باهرا، ولست أرى في هذا ما يمس احترامى لجيته، وفي الحاضر ما يسرني فوق ما يسرني الماضي، فنجاح: هاري وكونراد وسلمى لاجرلوف وجوركي وبراندللو، ونجاح فليري وأندريه جيد وكوليت، وأنا أختار عمدا أشخاصا مختلفين هذا النجاح الذي رأيناه أحيانا يطلق جناحيه ويحلق في جوف السماء هذا النجاح يجب – إذا كنا نحب الآداب ونؤمن بمضاء فننا – أن نقدره ككسب شخصي، إذ أنه انتصار لنا وفيه ما يعززنا بالأمل والكبرياء المشروع.

ومع ذلك لو حدث أن جازف أحد أولادي يوما بالمغامرة في الأدب، وسألني أن

أنصحه، وهذا فرض يمكن تصوره في حالة اندفاع عن هوى، إذن لما قلت له غير هذه الكلمة (احذر النجاح)، وسأفكر عندما أقول ذلك أول ما أفكر في (نجاح القرن العشرين) ذلك النجاح الذي أميل إلى تسميته بـ (النجاح الأمريكاني)؛ فتلك الظاهرة القاسية قسوة القتل نراها وقد فك عقالها كالوحش تمسك بالإنسان وتقتلعه وتنتزعه وتمزقه ثم تتركه يهوي وقد مات معظمه وتعفن وضاع في ظلال الفناء.

سأفكر أيضا عندما أهمس بنصيحتي في النجاح الملتوي المخاتل ذلك الذي يثني يوما بعد يوم من مدى أهداف الرجل، ويقلم من أظافره ويقص أجنحته، حتى يزج بقدميه في رفق إلى مباذل المجد، سأفكر في هذا النجاح الذي ينال من الشجاعة الحقيقية برضاب قبلاته السامة كما يجفف ماء الحياة. احذر النجاح كل نجاح باب يغلق، كل نجاح أمل يكبل، كل نجاح مستقبل يقبر، كل نجاح عدول. نعم احذر النجاح، احذر هجماته واحذر مكايده، احتقر النجاح، ولكن كيف تحتقره إذا لم تكن قد سيطرت عليه.

النجاح تجربه مضنية يجب ألا نخشاها، كما يجب ألا نسعى إليها، إذا كانت لك رغبة في النجاح أن تكون رغبتك اندفاع الطوى، وإذا كنت تحتقر النجاح فاحذر أن يكون في احتقارك نبرة الحقد.

هناك رجال أقوياء يتخذون من كل شيء وسيلة للسيطرة على أنفسهم حتى ولو كان ذلك الشيء هو النجاح، وهناك عبقريات ساحرة تتفتح لأول نظرة من نظرات النجاح، ثم تذوي على الأرصفة وتنتهي إلى المجاري. وهناك نفوس متقلصة يحل النجاح عقدها فجأة، كما ينيرها ويحررها، ولكني أعرف غير هؤلاء ممن يعميهم النجاح فيترنحون.

هيا: افتح يديك، ضع الكرة البيضاء في يدك اليمنى، والكرة السوداء في يدك اليسرى، النجاح في جهة وعدم النجاح في الجهة الأخرى، وحاول أن تسير قدما معتدل القامة محافظًا على اتزانك. ولا تذكر غير كلمة واحدة (احذر النجاح) وأما الباقي فلم أقله، ولقد اكتفيت بأن فكرت فيه، ولنفس فقط.

٤

أشباح العبقرية

هذا الطفل، هذا الشاب الذي يسير وحيدا على طول الرصيف الباريسي، انظر إليه جيدا واتبعه وسط الجمهور والضوضاء، كما يمكن أن يفعل ملك يقظ. إنه ما زال يافعا، وهو بلا ريب يذهب إلى المدارس حيث يقطف على نحو ما يلقط الطير، ما يروقه ويغريه، وهو يلتهم في الخفاء الكتب المثملة، إنه فخور خجول هروب يمكن جرحه، إذا أحس أن الأنظار تتجه إليه شد من قامته، ولكنه ما يكاد يخلو إلى نفسه حتى يحز فيه يأس قاتم، وهو مستكين في ردائه وحركاته، سرعان ما يجفل، ومع ذلك لا ترى في نظراته إلا انتقاما ومجدا وسيطرة، يضحك لأن نفسه غضه رقيقة، ثم يسرع فيتماسك، وهو يحتمي بالنقمة والثورة.

اتبع هذا الشاب خطوة خطوة، ثم انقض عليه فجأة كشيطان، وأمسك به واختطفه واحمله بضربة جناح قوي إلى أعلى الجبل، وامنحه كنوز العالم. وهذه تجربة ماكرة، ففي تصور كنوز الأرض ما يكفي ليحمل على التذبذب بعض الرجال الذين نضجوا في التجرد، ولكي نصدف عن المرأة، نعم المرأة أولا، ولكي نصدف عن الانتقال إلى حالة جديدة، وعن الآفاق والبلاد والرحلات والمسارح وأنواع الطعام والسرعة بوسائلها الطيعة وألاعيبها المدهشة، لكي نصدف عن الأرض والبيوت والفواكه والأزهار، لكي نصدف عن كل هذا لا بد لنا من روح انغمست مئات المرات في تأمل الموت، أو من رغبة أوسع وآخذ من كل ما يعد شيطان الشر.

ومع ذلك نرى فنانا يتردد وهو ممزق، مقطع الأنفاس، وفجأة يدفع الإغراء وينفض رأسه في عنف، لقد اختار.. لا، يقولها بصوت خافت ينم عن الكبرياء حينا، وعن الخجل حينا آخر.. لا.. ليس هذا ما أريد، أريد العبقرية فحسب.

أما أن العبقرية تجر وراءها كل المغريات الزمنية، وأنها تأخذ وتقبل أضفى المكافآت، فذلك ما لا يفكر فيه الطفل أي تفكير، فالذي يرده وأنا واثق من ذلك،

هو العبقرية بغير تيجان ولا أعلام، عبقرية شوبرت ورومبو وفيلون وفان جورج وبودلير وشيلي، العبقرية التي يصحبها نوع من عطر الاستنكار والألم والاستشهاد وتضحية النفس، نعم سعال شوملر لا صحة جيته، قبو بيتهوفن الخانق لا سيطرة فاجنر المشرق، وتاليه هيجو ومقصلة شنييه، لا سفرة روبانس ذات الهالة من الضياء، ولكن اليقظة اليقظة.. فما يريده الطفل ثمنا لكل هذا الحرمان ليس عبقرية أو عبقرية سعيدة أو موهبة ممتازة لا لا إنما يريد العبقرية خالية من كل حد أو وصف أو تحفظ إنه يريد العبقرية، الملكة الخالقة التي تذكرنا بالله.

هذا الشاب، هذا الطفل المستعد لأنه يصدف عن العالم مقابل شرارة مقدسة، ألاقيه كل يوم تقريبا في الشوارع وفي المنازل فأعرفه وأحييه في الخفاء لأن نظرته تملؤني عطفا وإشفاقا. وماذا يعلم عن العبقرية، تلك العبقرية التي يحبها أكثر من حبه للحياة لا شك أنه لم يستنشق منها إلا النسيم، ولم يدرك غير الصدى. فهو يشرف على النبرات الأصلية لكبار المؤلفات، ولكنه لم يدركها بعد، وهو لا يستطيع أن يقيس عمق تلك الهوة الأليفة التي تحفرها الأرواح المهيمنة، وهو يكون عن كل الحقائق الكبرى للنفس صورا حية نزوية مشوهة، هذا على الأقل ما يلوح لنا، وأما عن العبقرية فلديه إحساسه الداخلي بها، وهذا طبعا خير من كل شرح مدرسي، لديه ما تحس به كل نفس في ربيع حياتها، شعور شخصي بالعبقرية وبالارتفاع وبتخطي حدود ذاته.

وإذن فليمسك بهذا اللهب الذي لا يمسك به، وليسجنه في المادة ولينفثه كبذرة إلهية في هيكل الطمي الفاني، وها هي المعركة قد كسبت، لقد فتح الأولمب. وعندئذ يبتدئ الصراع، ولكن أهو صراع حقا، والصبي الصغير يتخذ طورا بعد طور أوضاع المروض وكاهن التناول وساحر الطير، يغفو في انتظار حلم، يضرع على ركبتيه أحيانا أن يزوره الوحي، وأحيانا يهيم كمن به مس، رافعا كل الحجارة، محطما كل الأبواب، سائلا في كل مخبأ (لقد كانت العبقرية هنا بالأمس، بل هذا الصباح لقد ظهرت لي أثناء نومي) لقد عبرت سمائي كالشهاب لقد همست بأذني وأنا ذاهب لألحق بأعز أصدقائي، وهي التي جعلتني أنفجر ضاحكا في وجه رئيسي، وهي التي ألقت بنفسها

فجأة بيني وبين عشيقتي كحجاب من اللهب، وهي التي كانت تسبق خطواتي في الطريق عند الغروب.

ويثور الطفل لمخاتلتها وما دام قد اختار، وما دام قد تجرد عن العالم، فلا أقل من ألا تحمله العبقرية على طول الانتظار، فلتنزل ولتسقط من السحاب، وليكن فيها ما يغني بسخاء عن كل شيء، وهم يتحدثون عن النظام والمنهج والعمل، نعم، لا، إنما نحن بحاجة إلى اللهب والاحتراق.

يحدثوننا أن موزار ظل خلال سنين قاسية تلميذا لأبيه ولعشرين معلما مغمورا، ويؤكدون أن رودان قد اصطفت قدماه زمنا طويلا بغرفة الانتظار المجاورة لفنه، وأن بلزاك قد سود صفحات كثيرة قبل أن يلقى بلزاك، لا.. لا.. ما نريده هو الإشراق دفعة واحدة، هو شق الحجب شقا تاما، وهذا ما سيكون، سنعرف كيف نصل إلى ذلك بالإغراء والعنف.

والطفل المعذب يضم قبضته ويقطب جبينه، وهو يتساءل في هياج، أما من سبيل إلى إثارة العبقرية، وهو يستعيد اللحظات المباركة التي عرض له فيها الإلهام، ويحاول أن يستذكر الملابسات التي واتته فيها من العبقرية إحساسات ذاتية، وتلك عنده أرفع لحظات حياته سموا.

إن طموحا في هذه الحرارة لجدير بأن نلقي عليه ضوءا كاملا، والشيء المزعج هو أن يقين الشباب من العبقرية يقين ذاتي، يصطحب بشعور عجيب الشعور باللا مسئولية، فبينما ترى الرجل الخالف المحنك الناضج يحس غالبا بأنه الأداة التي تتألم في إنتاج ما تعمل، ترى الشباب يعتقد أنه قبل كل شيء مستودع ذلك العمل، وهو يحس سواء قد ضعفه أو لم يقدره وسواء اعترف بسذاجته أو لم يعترف أنه قد حظي بعفاء لذيذ وليس في عدم حنكته ما يقلقه، ما دام يرى نفسه رسول الروح، وما دام يحس بالعبقرية تضطرب في حناياه ككائن طفيلي إلهي.

ويزيد الحيرة من تداعي تلك الأفكار كونها غير إرادية؛ فالشاب يذكر في أوقات

الجدب أنه قد شدهه ما أفاد منها، وبخاصة في ساعات التعب خلال سهرة طويلة مضنية أو عند فجر ليلة بيضاء، أو عندما وصل إلى نهاية الإجهاد العقلي أو النفسي، وهذا حق إذ سرعان ما تخل سموم التعب بآلية النفس، وعلى نحو ما ترى القلب المجهد يستسلم إلى خفقات ضخمة متنافرة، كذلك العقل تراه يخلق في صراعه ضد الإعياء والنوم أفكارا بشعة مسرفة غير محكمة الصلات فيما بينها، ولتلك الأفكار عند صاحبها المأخوذ بها وبما فيها من اختلاط وإسراف مخايل العبقرية ونبراتها، وتوتر الأعصاب توترا مسرفا، والآلام التي تسببها شهوة حقيقية تترنح أحيانا من أخف الألياف نغمات لم تسمع من قبل، والشاب يحس بكل ذلك، فيحدث نفسه، بأن سموم التعب ليست بلا ريب السموم الوحيدة، وأن هناك ما هو أكثر تعذيبا وأفعل أثرا، وأنه ربما استطاع الإنسان أن يرغم تلك الروح الكسول المتجمدة على أن تنفجر منها دمعة من إكسير إلهي.

وإنه لا بد من أن نحرقها حية، وأن نسلمها لآلات التعذيب، وأن ندفعها إلى حافة الهاوية، ولو أصابها الدور واستهدفت للموت (الدخان تسلية تافهة، والخمر مهما كان عنيف مبتذل، ولكن هناك الأفيون والأثير، هناك المورفين وأخواته السحرة، يتحدثون عن الخطر ويحركون بذلك اللفظ صورا مخيفة، ولكن فليكن فليكن ولتذهب حياتنا نعم حياتنا العزيزة الثمينة ثمنا لساعة عبقرية حقة).

ولأقص آخر حديث لي مع الشاعر ماليرب، وقد أصبح اليوم ظلا بين الظلال جاءنا من الطرف الآخر لأوروبا، وكان يتمتع بثقافة مرهفة منوعة، أتى إلى باريس وطلب إلينا بعض الأصدقاء وأنا، أن نذهب لنراه بفندقه، وعندما هممنا بالانصراف، بعد نصف الليل أمسك فاليرب بذراعي وقال: "دعهم يذهبون معي"، وقادني إلى غرفته حيث فتح درجا وأخرج منه حقنة وزجاجة رفعها إلى السماء في يأس، وقد تغير صوته فخفت، وأخذ يتحدث في نبرات مخيفة.. الزجاجة خالية لم يعد عندي مورفين والليل الحقيقي لم يكد يبدأ أنت طبيب يا مسيو ديهاميل، اكتب لي تذكرة، أرجوك، وبينما أنا مصغ، وقد عقد الفزع لساني أضاف هذا الرجل البالغ الإباء (اكتب وإلا جثوت على ركبتي، وجررت نفسي على السجادة أمامك).

وعندما أغلق عيني أتخيل الشاعر الفيلسوف الماهر في الجناب المصطنعة، كان يغتم فجأة وبدون سبب، ثم يأخذ في النظر إلى الأشياء بعين شاردة كالسمكة التي صيدت، ثم يقطع الحديث في جموح ويولي إلى لذات مروعة، وها أن أتخيل الذي كان يحتضن زجاجة الأثير بيد، وقد أمسك في سذاجة بالقلم في اليد الأخرى.

وأتخيل (م) وجها جميلا ونفسا صافية، وقد وجدوه يوما متصلبا باردا في قاع سريره، وأتخيل (ب) الذي لم يعد يفكر منذ زمن طويل حتى ولا في الإلهام العارض، بل في السبل التي يخدع بها حراسه، ويهرب من النوافذ، ويهدد باعة العقاقير، أتخيل كل هؤلاء. هؤلاء البؤساء الذين لم يملكوا عبقرية بل مجرد حب للعبقرية ورغبة يائسة فيها، كما أتخيل تلك الجوقة من الفحول، وهي تترنح وتقئ على طول الحوائط عند الفجر منادية (ب) (فيلون وفرلين) ثم ب من (بمسيه). لا.. لا.. ليست العبقرية ثمرة للمصادفة أو الاتفاق أو الإسراف أو المخدر ،وإلا لكان أمرها هينا سخيفا مثيرا حقا، وليس هناك وسائل كيماوية ولا عضوية لتهيئة حالة الإلهام وخلق الكتاب الممتاز، ولقد مضى رجال كبار أصيبوا ببلوى مخيفة حياتهم كلها في صراع ضد الداء، ولقد أنقذوا عبقريتهم من السم النباتي والحيواني، ولم يدينوا له بها، وأنا لا أجرؤ أن أقول أن العبقرية صحة، ولكني أعلم جيدا أنها دائما انتصار على قوى الانحطاط والموت.

وأنا لا أكتب هذه الكلمات لأخيف رفاقنا الشبان، ولكن لأكبر عن يقين عميق، فالأفيون والمورفين والأثير والكحول نفسه يولد عند آلاف البؤساء شعورا ذاتيا بالعبقرية، ولكن هذه السموم لم تهب العالم البشرى كتابا واحدا ممتازا، ولا يسارعن أحد إلى ذكر بودلير و(الجنات)؛ فبودلير لم يمتز إلا عندما كان مخه باردا ونظرته قاسية الصفاء.

ولنترك فرلين لشأنه فهو لم يبلغ الكمال إلا عند صومه، ولقد أملت عليه حياة السجن الصافية خير قصائده. وأنا أعلم إلى أي حد من الرونق تبلغ أوهام السُكر، ولكن ماذا يبقى منها عند الصحو....

لقد قص علي الدكتور شارل نيكول ما يأتي (لقد أرغم أحد أصدقائه ممن يتعاطون الحشيش، وكان يدعي أنه يكتب قصائد رائعة تحت تأثير السم، أرغمه أن يقيد بالكتابة ثمرة إلهامه أثناء سكره، وإذا به لا يخترع من أول الموضوع إلى آخره، غير هذه الترنيمة الهينة: (في مخ الحشاش عصفور جاف، يحطم أعشاب الخشب).

وأنا أحب النبيذ وأشربه، وهو هبة فخمة من الطبيعة حتى لأفهم أن يتخذ منه دم التناول، ولكن الفنان الحقيقي ينتظر لكي يمسك بالقلم أن تحمل النسمات أبخرة النبيذ، وأن تنشط حدقة عينه، والسُكر لا يجب أن يأتي من الخارج.

وسم الأمراض العصبية، هل لا يكفي ما نقاسي من ناره، لقد حدثت عن شاعر لا يشك أحد في أنه موهوب، أصيب بمرض خطر، وما أن أكدوا له التشخيص حتى أخذ يثب فرحا، وهو يصيح ملء حنجرته:(ستأتيني إذن العبقرية) ألا هدوءًا أيها القلب المحموم، فالزهري لا يمنع دائما من وجود العبقرية، ولكنه لا يعطيها، وهو في الأغلب خانق للعبقرية. لقد ألح الداء على موبسان، فألقى القول وصمت إذ أحس أن عبقريته قد ماتت.. نحن نعلم أن هذه الصفحة الجميلة ترجع إلى سنة ١٨٨٧ فهي ليست ثمرة الهذيان، كتبها موبسان وهو في كامل قوته وسط حياته الخالقة بناء على إشارة من ليون هنيك.

ولقد عاش فلوبير ودسنوفسكى في رعب من مرض الهبوط وهما على وجه التأكيد لم يتعهداه، وفي المدة من حياة فلوبير التي ظهرت فيها حقا عبقريته لم تصبه أزمات ولاح أنه رجل سليم، وأنا أؤمن في ذلك بديمينيل الطبيب الماهر والأديب الكبير.

لا بد من وقت طويل لتأليف كتب ممتازة، ومدة الهياج التي يسببها الشلل العام مدة قصيرة في جملتها، ولقد عمل نتشه ضد مرضه ولم يتعاون معه، حتى كان يوم اشتد فيه المرض فكان الصمت المخيف قبرا للحم الحي أحد عشر عاما.

وكل ما يمكن أن يقال عن السموم والمرض، هل من اللازم أن نقوله عن الشهوات التي هي بالغة القوة في عجن العبقرية، والشهوة الحقيقية تتحملها النفوس

الكبيرة وسط الآلام ولكنها لا تسعى إليها، وهي تستقل بحملها شقية صائحة كل يوم (رباه رباه لم تركتني وحيدا) وإنما يمثل مهزلة الآلام المسرحية تلميذ من تلاميذ المدارس يحدوه ألم خادع في أن تنبعث عنها يوما شرارة من الضوء. لم تعد الروماتنزم تخلق كتبا ممتازة، ولكنها لم تنته بعد من أن تضل أفهامنا، أيها الشبان، افتحوا النوافذ واطردوا الأشباح.

٥

النماذج الوهمية

"ما هذا؟... كوميدي صغير كهذا يجرؤ أن يضع على المسرح رجلا مثلي ثم لا يعاقب، سأرفع دعوى، وفي نظام صالح يجب أن يجازى هؤلاء الناس على وقاحتهم، إنهم طاعون المدينة، إنهم يلاحظون كل شيء ليحيلوه هزؤا" بذا تحدث أحد أعيان باريس إذ اعتقد أنه المعني بـ (أوهام الزوج المخدوع) ويضيف جريماريه الذي يروي هذه الحكاية أن نفسا خيرة استطاعت ان تهدئ الشاكي بأن أفهمته أن خيانة زوجته لم تكن وهما بل حقيقة واقعة.

ومن المعروف ان موليير لم يتخلص دائما بهذه السهولة، وأنه قد اشتبك في خصومات مؤلمة مع نماذجه المدعاة، ولما كان التاريخ قد فصل منذ ذلك الحين أكثر من مائة مرة في تلك القضية، فإنه يحلو لنا اليوم أن يعتقد أن المسألة قد فهمت وأنه إن كان الكتاب لا يزالون يتعرضون لضروب من الحقد والانتقام، فإنهم على الأقل لم يعودوا يستهدفون إلى خطر كبير من جانب القضاة المثقفين المستنيرين الحكماء. ولكن لسوء الحظ يلوح أنه لا يجوز أن نسرع إلى تدخين النرجيلة فلقد أفزعتني بعض خطابات من بلجيكا نشر بيير هيبرمون الروائي القوي منذ حين حكاية رائعة المداد أطلق عليها هذا العنوان المسرحي (همام يامونرشان) وهي عبارة عن لوحة لمعركة انتخابية بقرية بالريف ليس فيها مرارة ولا سموم بل ضحك وضحك صراح، تصوير واضح غزير المادة، وبالجملة كتاب يحب لما فيه من رائحة الريف وطعمه الحي الحار.

وكما كانت دهشة المؤلف عندما رأى نفسه أمام القضاء فقد أدعى خمسة

أشخاص أنهم المقصودون في هذا الكتاب، وحكم قضاة هانو الذين تأثروا بلا ريب أكثر مما يجب بأهواء الشعب المحموم – حكموا على المؤلف بأن يدفع لرافعي الدعوى المبلغ الباهظ، مبلغ واحد وعشرين ألف فرنك، واستؤنفت القضية وطلب إلى قضاة براينت أن يفصلوا فيها، وقد فصلوا لسوء الحظ على نحو ما فصل زملاؤهم قضاة هانو، وخلف الحكم بنفوسنا السخط بل الغضب.

ومثل تلك الخصومة خصومتنا جميعا فلربما اضطررنا في الغد كما اضطر هيرمون وكما اضطر كثيرون غيره، إلى أن ندافع ضد فرائس الأوهام، أو ضد هؤلاء الممرورين أمام القضاة عن كتبنا، عن مخلوقاتنا، أبناء آلامنا وتأملاتنا، بل ربما اضطررنا مرغمين إلى أن نتنكر لمبادئ الفن نفسها، ذلك الفن الذي يتغذى بالحقيقة.

وإذا كانت الآداب الفرنسية تتميز بروعتها بين غيرها، فذلك لأنها في مصدرها لوحة رسمت من الطبيعة مباشرة، نعم إن الخيال والابتكار بحمد الله لم يعوزا قط أساتذة أدبنا، ولكن خير مؤلفاتهم قد استقوه من قلب الحياة، عند أنفسهم أو عند الغير، ولقد ذكرت موليير ومن الواجب أن أذكر راسيين بكل تأكيد، بل وصاحب قصص الحيوانات ولابروبير طبعا ثم فولتير، وديدروه، جان جاك، ديتوش، بومارشيه، يجب أن أذكر سندال، وميريمه فلويين بوفاري والتربيه، يجب أن أذكرهم جميعا، لا ليسوا كلهم، فلكم من مرة تركت الرومانتيزم ضوء الطبيعة الساطع، ونحن لا نعرف نماذج لهرناني ولا لروي بلاس ولا لكازيموود، ولكن ها هي تلك الأشباح أشباح الأحلام قد انحلت دخانا إذا أعوزها لحم ودم التناول البشري.

وعند زولا ذلك الرومانتيكى العنيد نحس بوضوح كاف اللحظات التي تحل فيها الحيل البلاغية محل المعرفة الفعلية، ولقد قيل أن بلزاك لم تترك له مشاغل حياته فراغا لملاحظة من صورة من أشخاص. ولكن من قال أن بلزاك رجل ملاحظة، بلزاك رجل تأمل، وهو لم يكن في حاجة إلى أن يجري أمام العالم، لقد كان العالم يجئ إليه، لقد وجد بلزاك العالم في نفسه. ونحن لا نخلق شيئا من العدم، فالمؤلفات التي تصدر عن

العدم قد تسلينا ساعة من الزمن، ولكنها تفتقر إلى المادة افتقارا مسرفا، ولذا ترتد إلى العدم.

ألم تكن لبلزاك نماذج، للنظر في هذا، فنماذجه لا تزال حية، ومازلنا نلقاها كل يوم، ولكن لما كان بلزاك خالقا بالغ القوة، فإنه قد أعاد خلق نماذجه، وإذا بهؤلاء فيما بعد يحاكون في أغلب الأحيان صورهم، على غير علم منهم، ويتمون خلقهم وفقا لتلك الصورة التي اقترحها لهم بلزاك.

ليس للروائي الحق أنموذج واحد لمخلوقاته، بل له عشرون، بل له مائة، وهو نفسه أرهف نماذجه حسا، ولو قصد إلى تصوير ديدان أو وحوش، وهو يذوق كل شراب، ويرتدي كل مسوح، ويجرب كل شعر مستعار، وهو من سطر إلى سطر يسائل نفسه ويجيبها، يعزها ويحتقرها يتهمها ويدافع عنها. فما لهؤلاء المشاكسين القرويين وتلك المأساة، ما لهم وتلك المحنة المؤثرة، ما لهم وهذا الحوار بين الروح والمرايا، وأين هذا من شكاوى الحوذيين والخصومات الحزبية والأحقاد المتأصلة والتعصب والأوهام التي تشغلهم، ونحن بإزاء تصوير الإنسان وفهمه، بل ربما كان في ذلك تنوير له وعون على مغامرة الحياة، وليس الأمر على وجه التحقيق أمر تسلية هينة أو انتقام حقير أحمق من ناس صغار.

وأنا أعلم أن هناك قوما يتخذون السباب والتشنيع حرفة لهم، وهم يتمنون الفضائح ويثيرونها، ولكن هؤلاء لا علاقة لهم أصلا بالأدب، وفي جرهم أمام القضاء تحقيق بلا ريب لأقصى آمالهم، إذ أن ذلك يضفي على حقارتهم بريق الشهرة. وأما الفنان وأما مصور الإنسان والأخلاق فواجبه الأساسي أن يكون شاهدا على عصر، وتلك مهمة شاقة من القبح أن نجعلها مستحيلة عليه.

وليعلم قضاة هاينو وقضاة برابنت، بل وقضاة العالم أجمع أن الروائي الحقيقي لا يرسم صورة لـ نيومى وأناستاذ وماتييه، بنية حمقى في مضايقة الطيبن من الناس، وهو يرمي إلى أعلى بكثير من نيومي وماتييه أنه يساهم بنصيبه في تاريخ الرجل والمرأة،

وهو إذ يأخذ قسمة من هذا أو يستعير كلمة ذلك، إنما يؤدي واجبه كشاهد ويلعب دوره كنحلة تجمع أسلابها. وما ينبغى لنا أن نطالبه بإعادة خلق العالم إذا كنا لا نسمح له بالحكم على مشاهدة فلا يلومنه أحد إذا رأى بوضوح وسمع بدقة، وإنما يجب أن يكون اللوم إذا لم يحسن الرؤية أو السمع، وإذا أخذ مبضعا قاطعا ليفتح خراجا، فذلك لأنه لا يمكن أن يكتفي بتضميده بأقوال طيبة.

وما تكاد عين الروائي تدرك شيئا، حتى تصيب ذلك الشيء تغييرات معقدة، فهو يختلط بغيره يختمر ويهضم، وهو يخضع لتجارب كيماوية مكبرة أحيانا ومنقبة أحيانا أخرى، حتى ينتهي الأمر بالصورة إلى البعد عن النموذج بعدا يحررها منه تحريرا حقيقيا، والنماذج ضرورية، ولكنها تتخطى دائما.

فمن يصر على أنه قد اتخذ أنموذجا يسرف في الغرور، ولي في هذه المسائل تجارب شخصية عديدة بحيث أستطيع أن أؤكد أن الأشخاص الذين نستوحيهم إلى حد ما لا يعرفون قط أنفسهم فيما نكتب، بينما يفعل ذلك بسهولة من لم تفكر فيهم إطلاقا، وفي هذا ما يلقي إلى الموضوع بشرارة مضحكة، ولو أن جميع الناس الذين اعتقدوا أنهم وجدوا في سلفان شيئا من طبائعهم قد رفعوا عليّ دعوى.. إذن لتهددني خطر قوي في أن أقضي بقية أيامي في السجن.

وأنا أفهم أن من واجب القضاء أن يجيب إذا طلب إليه، ولكن أسمى امتيازاته هو أن يهدئ المشاكل ويذللها ويحللها، وأن يرفض الجزاءات الجنائية، ولقد رجع الخلف دائما إلى أمثال تلك القضايا وأعادوا النظر فيها بابتسام. ثم إني لا أعتقد أن قضاء البشر يستطيع أن يعلم كل شيء، وأن يفصل في كل شيء، وإلا لجازف بما له من احترام وقوة، ولقد قضت طبائع الأمور أن يطلب إليه التدخل في أعمال الأطباء والجراحين والعلماء الذين لم يكن حتى اليوم لغير الرأي العام أن يصدر عليها حكما، وهذا تدخل مستطير الشرر ليس من المبالغة أن نخاف من نتائجه، فهو يشل مهنة الطب ويضع العلم تحت الوصاية، ويضر في النهاية بالصالح العام للناس.

وهل سيصبح واجبا على الفنانين والكتاب بدورهم عندما يمسكون بالقلم أو الريشة أن يستثيروا محاميا، وأن يزنوا مواد القانون وأن يتخذوا في دهاء الضمانات ضد عداوة المشتكين المحتملين الذين لا يمكن بلا ريب تجنبهم، مادامت كلمات السلام والوفاق والحب نفسها يمكن أن تظن في بعض الآذان كألفاظ سباب، ألسنا نلمح في ذلك استرقاقا لا يتفق وجوهر الفن نفسه.

يتمتع القضاة حتى اليوم بحصانة في مزاولة مهنتهم، ولكن الحصانة بكل تأكيد غير العصمة من الخطأ، ومن الممكن أن يعترفوا بأخطائهم، ولكنهم لا يحاكمون قط من أجله، فيلدعهم إذا هذا الامتياز الفريد إلى الاعتدال، وذلك ما سوف نشكرهم من أجله، وليتفضلوا بألا يظهروا من الرقة والقسط عندما يستخدمون سيفهم المخيف أقل مما يطلبون إلينا عندما نرفع قلمنا.

٦

حب المهنة

في كل خريف أمتع نفسي بحضور دورة مؤتمر الجراحين السنوي، وأنا لا أؤمن قط بما اتفقوا على تسميته (أعمال المؤتمر)، وذلك لأن العمل العقلي الحق يلوح لي قليل التلاؤم مع نشاط الجماعات، وتصحب مؤتمر الجراحين، كما تصحب أمثال تلك الجماعات عادة، ليلة عيد، ليلة يمكن أن تكون حفلة راقصة، وأنا أحضر أحيانا تلك الليلة، وأجد فيها سرورا إذ أحيي أصدقائي ورفاقي القدماء، أسير بين الجماهير وهم يرقصون قليلا ويتحدثون كثيرا، وأصغي لأي طلعة، فماذا أسمع، نتفا من جمل من جماعة إلى أخرى.

- وفي المساء ترتفع الحرارة يا عزيزي إلى **٣٩** سنتيجراد فأحمل المريض إلى المشرحة
- أنا أصل إلى نتائج طيبة بسحب ما في الجروح..

- أنت مخطئ في حكمك ضد الراديوم،...
- وفتحت فوجدت البطن مليئا بسائل غريب،..
- نعم أنا أعرف ذلك يجب أن نخشى من تضافر الميكروبات،...
- هذا مريح ولكنه ضد التشريح...

وينبغي أن نعلم أن بين هؤلاء الرجال من يتمتعون عن جدارة بشهرة مجيدة، وأغلبهم ليسوا عمالا مهرة في اللحم البشري فحسب، وأنا أعرفهم وأعلم أن لعدد منهم مكتبات جميلة ومجموعات من اللوحات، وأنهم يتذوقون الموسيقى، وأن منهم من قام بسياحات كثيرة، وباستطاعتي أن أذكر منهم أسماء أعتبرها بحق وفي نبل دوائر للمعارف، ولكنهم قوم يحبون مهنتهم، وإذا تتاح لهم فرصة الاجتماع فيما بينهم جراحين ورفاقا على حد تعبير أصحاب المهن قديما، فإنهم يتحدثون عن مهنتهم العزيزة، ويفتحون قلوبهم لمسرات هذا الحديث، فيقص بعضهم لبعض تجاربهم، ويتبادلون أنباء نجاحهم، ويعترفون بما أصابهم من إخفاق ويتقاتلون في نشاط حول مناهج فهم وحول ما يفضلون، ويدافعون عن آرائهم وآمالهم، وليس التعلق بالمهنة ميزة للجراحين وحدهم، فالأطباء يحسون ذلك ويظهرونه في حرارة مماثلة.

ولا أستطيع أن أذكر دون انفعال زيارة أديتها منذ بضع سنين لمريض صغير كان يعالج بقسم الدكتور فورنييه بمستشفى كوشان؛ فلقد رأيت هذا الرجل الممتاز بعد أن أديت له واجب التحية، يأخذ بكتفي في ألفة نصف أبوية ونصف أخوية، ألفة لا يستطيع أصدقاؤه أن ينسوها، ويقودني في الصالات ثم يقول: لعلك تسائل نفسك ماذا حدث، تسائلها لماذا يلوح علينا كل هذا المرح، ذلك لما نظنه من أننا قد اكتشفنا دواءً جديدا، وبأي بساطة قيلت هذه الجملة الرائعة. ولقد يتفق أن تجد نفسك في عيد سياسي، وهذا لحسن الحظ ما لا يحدث لي قط، أو في حفل عائلي، أو في سياحة بحرية حيث يسافر الناس جماعات، فلا تلبث أن ترى الأطباء يجتمعون بعد زمن قليل، ويكونون كتلة، حتى ولو لم يكونوا على وفاق تام فيما يتعلق بالأفكار

والمصالح، ولم ذلك يا ترى؟، لكي يتحدثوا طبعا عن المهنة فلا لذة أقوى من تلك.

وبودي لو استطعت أن أقول مثل ذلك عن زملائي الكتاب، مادمت قد وجدت نفسي في ذلك الموقف الغريب، موقف من له مهنتان يزاولهما معا على نسب متفاوتة، وإن كنت أعزهما إعزازا متساويا، نعم أنا أعرف كتابا لا يستطيعون أن يخفوا أذواقهم، وهم يأخذون في المناقشة ما واتتهم الفرصة، يتناقشون بحماسة في ولعهم بمهنتهم، ولكن لنتجنب الخطأ. فأنا إذ أتحدث عن المهنة لا أفكر في الأراجيف التي يحدث مثلها في كل الجمعيات، ولا في هنات البؤس الملازمة لحالتنا، ولا في العلاقات مع الناشرين أو مديري الجرائد والمجلات، ولا في الخصومات مع الوسطاء التي لا بد منها بلا ريب، وإن كانت ثانوية جدا.. لا وإنما أقصد إلى فننا إلى رسالتنا إلى مهنتنا أقصد إلى كل تلك الصعوبات المثيرة التي نلقاها في تكوين أفكارنا والعبارة عنها، في البناء والوصف في السيطرة على المادة وعلى الوسائل أقصد إلى ذلك الحوار البسيط بين النفس والأسلوب الذي فيه مصدر لهفتنا اليومية.

ولعل زميلا متزمتا يقول: (إن هذا الحوار أمر شخصي بحث فهو لا يمكن أن يكون موضوع خصومات حتى ولو كانت ودية، وأن التحفظ والحياء).. فليكن، ولكني ممن يحبون العزلة كل الحب ويخشون المهاترة، ومع ذلك فإذا اجتمع الناس كانت هناك مئات الاحتمالات في أن يتحدثوا عن سفاسف الأمور. حتى ولو كانوا من أنبه الرجال، نعم سفاسف الأمور، أو على الأقل أمور لا فائدة فيها، هناك احتمالات في أن يسقطوا إلى أحاديث السياسة المعادة، أو إلى النمائم المحلية، لتحيا المهنة التي نجد فيها منبعا لا ينفد لكل حديث نبيل ذكي، لتحيا المهنة التي تجنبنا الثرثرة والتخبط شرقا وغربا، لتحيا المهنة موضوعا طبيعيا لأحاديثنا وأفكارنا.

وليس معنى هذا أني لا أحذر من المتفيهقين الذين لم تحرم منهم جماعتنا، أضراب ترسوتان المتعددي لون الأهاب، تراهم يأتون للحديث عن أنفسهم بنوع خاص تحت ستار الحديث عن المهنة، فلننح هؤلاء السادة المساكين ولا يمنعنا خجل، عندما نجتمع

مع أن نتحدث عن ذلك الفن الذي لا نحمل لشيء آخر قدر ما نحمل له من حب، وأنا لا أتذوق المقابلات، ولكني سأنتهي إلى الإشادة بها إذا كانت حقا تضطر بعض الكتاب إلى الحديث عن مهنتهم والتفكير فيها وفي حيل فنهم وأسراره ومعمياته.

وإنه لمن ظواهر بؤس عصرنا بؤسا كبيرا مختلطا أن نرى الناس في كل مكان يظهرون عدم تعلقهم بالمهنة التي عليهم أن يزاولوها، وتلك نتيجة طبيعية لاستخدام الآلات، ومن الواجب أن نمسك عن كل لوم نوجهه في هذا السبيل إلى أناس قد حرموا وسيحرمون من لذات العمل الشخصي ليرهقوا بالعمل الآلي فحسب، ويؤكد روائيو روسيا الحديثة أن حب المهنة لا يزال حيا، يتعهده عمال النظام الجديد بعناية، وأنا أرجو أن يكون هذا صحيحا ففيه شرف الإنسان، كما أرجو ألا يكون مجرد قرار نظري لبناة المشروعات أو أن يكون حقيقة للإعلانات فحسب. وأما عنا نحن رجال المهن الحرة، نحن الذين نجد النشوة والشرف والامتياز في أن نعمل ما نختار في حرية تامة في الغالب، نحن الذين يحبون عملهم، فمن واجبنا رغم صعوبات الساعة، أن نضرب المثل على الأقل بأن نتحدث في اعتزاز عن مهمتنا التي جعلت منا ما نحن عليه اليوم.

٧

حدود الروح النقابية

مثل فصل الرواية بمنزلي، في مكتبي. الشخص الذي يتشدق في الناحية الأخرى للمنضدة كاتب له بعض الشهرة، لقد طلب مني موعدا، ونحن نتحدث منذ خمس دقائق، وأنه انتظر أن يصل إلى الموضوع. ثم وصل بعد ابتسامة وصمت.

- أيها الزميل العزيز.. في عزمي أنا وعدة أصدقاء أن نؤلف نقابة، ولقد رأينا أن نحصل منك على موافقة مبدئية من أول مرة.

قلت وقد شكرته بحاجبي:

- ولكن هناك عدة جمعيات مهنية قائمة بالفعل، إحداها على الأقل، وهي جماعة رجال الأدب جمعية ممتازة، وهي تلعب دورها بإتقان، بل وتلعبه في تحفظ خاص، أعني أنها لا تتعدى سلطتها، وهذا خير، وهي كذلك لا تتعدى واجباته.

- وهذا هو السبب.

- السبب؟ وهل ترجو أن تتعداه؟

- طبعا لا، ولكننا نظن رغم كل شيء أن هناك مجالا خارج تلك الجماعة المحدودة الاختصاص، مجالا لجمعية أخرى تكون الروابط بين أفرادها أوثق ويكون برنامجها أوسع، جماعة تصدر عن روح نقابية حقة.

- نعم، ماذا تقصد بالروح النقابية؟.

وهنا أخذ وجه الزائر سمة من الجد ورفع إصبعا إلى السماء كمن يعترف بديانة.

- أقصد بالروح النقابية تلك الروح التي تقف نفسها وقفا كاملا على مصالح الجماعة، مصالحنا المشتركة.

- أنت تعرف طبعا أن المصالح أنواع، والمصالح الروحية لا تتمشى دائما جنبا إلى جنب مع المصالح الزمنية.

- وهذا سبب آخر لوجوب العناية بهما معا عناية متساوية، ففي المجال الزمني يجب على نقابتنا أن تحقق لأعضائها عونا متبادلا لا يحد، وأن تضمن لهم مزايا عملية بالمعنى الذي سيحدد فيما بعد، وفي المجال الروحي تسهر على نقاء الأخلاق وتدافع عن قضية أنبل الفنون وأعزها، كما ستنظر في بعض الخصومات، ولن تخشى أن تشترك في بعض المجادلات التي يكون فيها مساس بشرف النقابة.

- نعم.

- إذن يمكننا أن نعتمد على موافقتك المبدئية.

وكان وجه محدثي ينم عن يقين هادئ.

- قلت أمهلني قليلا، سنتحدث عن تلك المسألة بعد بضعة أيام، دعني أسترد أنفاسي قليلا، هل لك؟.. سأفكر في الأمر.

***

وفعلا فكرت: العالم واسع واسع سعة كافية مهما ظن أحفاد ملتس لكي يأوي ويقوي كل الرجال الصادقي العزم، بل ونفرا آخر مشكوك في عزمهم، ولكي تكون الآداب على ما هي عليه لا بد من أن يعمل على جوانب الجبل المقدس، مؤلفون مختلفون في ملكاتهم ومواهبهم وآمالهم وأعمالهم كل في مكان، رجال ظاهرو التفاوت في الصفات، رجال قد لا يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم، بل ولا أن يحتمل بعضهم بعضا، ومع ذلك يتعاونون في العمل على مجد الفن وتنمية الإدراك على تفاوت بينهم في الشهرة والتوفيق والمثابرة، وعندي انه من الخير أن يكون لكل هؤلاء الرجال الممتازين مكانهم في ضوء أبولون وألا يسعوا للمحافظة على هذا المكان فحسب، بل وأن يجملوه ويزيدوا فيه.

وأنا أمقت (التخير والتوفيق) وأميل إلى التسامح أحب عددا صغيرا من المؤلفات وأقدر الكثير منها، وأقبل أكثر من ذلك، ولكن ماذا، هكذا نحن خلقنا، فقوة حبنا لا بد من أن يصاحبها شيء من قوة البعض، هناك مؤلفات أمقتها، ومن المؤلفين من يلوح لي نشاطهم موجبا للأسف بل مستطير الشرر.

(مصالح مشتركة) قال زائري لا ريب أن لي مصالح مشتركة مع جميع من تقل الأرض من رجال، كما أن لي مصالح كثيرة مع الكتاب الذين أحترمهم وأقدرهم، ولكن هناك من الكتاب من لا تثير مصالحهم في نفسي أي اهتمام، وذلك لأننا نحس كلنا تقريبا، نحن ذوو الرؤوس الصلدة، بأن مصلحة الفن تسمو وتخلق فوق مصالح النقابة.

بل أننا على يقين من أن المصلحة الكلية للنقابة تتركز في عظمة الفن ومجده، ونحن مقتنعون إن حقا وإن باطلا بأن قضية الفن فننا تماشي قضية الروح، بل أنها تأتي مع قضية الإنسان، ولكي نقبل أو نرفض أولئك الذين يتقدمون كخدام لتلك القضية، ليس لنا أن نعتمد على أي أمارة خارقة، وإنما نعتمد على عقلنا فحسب، عقلنا الإرادي المعرض للخطأ، كما نعتمد بوجه خاص على ذوقنا الجموح المحتد المتقلب، وهو بلا ريب عقل غير عادل ولكنه لا يراض.

لقد اجتمع الصناع والتجار وأصحاب المعامل، وبالجملة كل من يزاولون الحرف المختلفة في جمعيات نقابية قوية. وبعد أصحاب الحرف اجتمع أصحاب المهن، كالمربين والأطباء، وهم يحدثونني عما أرى من أن الروح النقابية قد حطمت في كل مكان عدة عوائق، وأملت إرادة الجماعات وأنقذت مصالح الأفراد أثناء المنازعات، وأنا أرى أن الخير ما كان، الخير بوجه عام مع الاحتفاظ ببعض الاعتراضات.

ولكن إذا كان الأشخاص الذين يمارسون الفنون لم يتبعوا تلك الحركة الخارقة المتهللة بالنصر، فذلك على الراجح لأنه ليس لديهم، ولا يمكن أن يكون لديهم، فكرة بسيطة أو قابلة للتبسيط عما يسمى بالمصلحة المشتركة، ولأنه من المحتمل ألا يقبلوا أوامر التضامن الأعمى بغير مناقشة، وذلك لأنهم يصدرون في عملهم وفي رسالتهم عن فكرة أبية لا تسلس قيادها لنظم الجماعات.

وواجب الزمالة الذي هو ضرب حر من ضروب الواجبات النقابية كثيرا ما أؤديه بقلب كريم، ولكن على شرط ألا يلوح لي أنه يتعارض مع ما أعتبره بعد طول التفكير أثناء عزلة حارة، ومن واجباتي كفنان، ومعنى هذا أن الكاتب الحقيقي، ليس ولا يمكن أن يكون، في نظر الروح النقابية (مندمجا) أو بعبارة أخرى حرا من كل المشاغل الخارجة عن الروح النقابية.

فأما أن تلك المشاغل تدل على تمرد الفردية، فذلك ما يرجح وهو من حسن التوفيق وأما أنها لا يمكن أن تبرر في غير عالم الآداب الخاص وعالم الفنون؛ فذلك ما

لست منه على ثقة، وإنه لمن الممكن في بعض الجماعات ألا تبلغ المصلحة العليا للحرفة ذاتها من التجريد مبلغا يكفي لأن يحيد بالأعضاء عن إطاعة أوامر النقابة طاعة عمياء.

وإن صح ذلك فلن أقبله إلا آسفا، إذ يلوح لي أنني لو كنت صانع أقفال، وهذا الفرض لا عيب فيه، فقد زاولت عدة حرف وزاولتها دائما في حماسة، إذن لتمثلت المصلحة العليا لصناعة الأقفال في قوة تكفي لأن تحملني على الإحساس بضعف تضامني مع صانع أقفال لا يجيد عمله أو يثير فيه القلاقل والاضطراب.

وأنا أعلم أن أفكارا كهذه لا بد أن تغشى عقول الصناع المهرة، وأن تقلق أحيانا إطمئنانهم إلى الروح النقابية، ولكن الضرورات الملحة تخمد عادة كل ما يهب في قلوبهم من حب، كما أن فن الحرب الاجتماعية قد اضطر إلى أن يضحي بميول الأفراد وأهوائهم وأذواقهم الفردية لكي ينال مزايا ملموسة، وفي النهاية أعلم أيضا أنه كلما دنونا من الأعمال العقلية البحتة ازدادت صعوبة تميز ما أسميه مصلحة العمال العليا، ومن ثم: هل تقدم مصلحة عامل الطرق على مصحلة الطريق المعتبر فنا؟.

لست على ثقة من ذلك إذ تنهض فورا تلك الفكرة القديمة العامة الانتشار فكرة العمل كإله يبجل لذاته بين الآلهة، إن مصلحة عامل الطرق الردئ تقوم في سبيل مصلحة العمل العليا. إنه وإن يكن قد بعد العهد بيننا وبين (أولاد سليمان) والرفقة واختبارات الأستاذية؛ فإن المذهب النقابي لا يزال يذكر النبل المهني، وهو يسعى إلى أن يحتفظ للأخلاق النقابية بسموها، بل إنه قد فكر في المحاكم الداخلية وفي الجزاءات وفي بعض الحالات كالطب تمنح النقابات نفسها الحق في أن توبخ بل تهين من أعضائها من ترى أنه قد خرج على الواجبات أو ارتكب خطأ ضد نزاهة المهنة أو شرف الطب، ومن الواضح أنه كلما سمونا نحو الروحية ازداد دور النقابة خطرا، وهذا هو السبب في أن الروح النقابية إذا حاولت أن تصل إلى الآداب، لن تلبث أن تصطدم بعقبات لا تذلل.

ولنتصور نقابة أدبية تبلغ من الجرأة أن ترتفع إلى ما وراء المسائل الزمنية فتحكم على المؤلفين باسم اللغة والبداهة والذوق والأخلاق والفن، بين أي أيد ستسقط عن قريب أو بعيد أمثال تلك الهيئة، وفي أي اتجاه ستوجه سلطتها الحقيقية، إنني لا أجرؤ أن أتصور ذلك، إذن لرأيت بودلير يطرد من حضن النقابة، ورومبو توصد في وجهه الأبواب وفرلين يصيبه اللوم، وملرميه ينهك بالدعوات القوية إلى النظام.

لا.. لا.. إن الروح النقابية التي قلبت أوضاع العالم لتتردد عند مدخل إمبراطوريتنا وهي إذا اتجهت ببصرها إلى أسفل لم نكن في حاجة إليها، وإذا رفعته إلى أعلى رفضناها لساعتنا.. ألا فلتنسنا ولنتجنبها لتتركنا إلى ما قدر لنا فمزاياها لن توازي شيئا إلى جانب مطالبها، ونحن آخر الفرديين في العالم، فلنقاوم في خنادقنا.

٨

التوقيعات والاحتجاجات

كثيرا ما تتلخص الأفكار الاجتماعية خلال الزمن بخط بياني متموج، فبعض تلك الأفكار يولد ويحيا ويموت موتا نهائيا، والبعض الآخر في عناد بحيث تتكون حياته من إقبال وإدبار يعقب أحدهما الآخر.

وفكرة الجمعيات التي سيطرت على القرون الوسطى كانت قد فقدت قوتها أثناء زمن طويل، ثم عادت فاستردتها إذ تحكمت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وفي مستقبل الأيام لن يفنيها بلا ريب إلا فرط نجاحها نفسه.

وفي الحق أني لست خصما لكل صيغ روح الاجتماع في المهن العليا التي ما نزال نسميها ولو إلى حين، بالمهن الحرة، أقول إلى حين وأنا أفكر في مطامح مذهب تدخل الدولة واعتداءاته، ومع ذلك فأنا أرى كما بينت فيما سبق أن روح الاجتماع في العلوم والآداب والفنون يجب أن تترك للأفراد حرية تامة، وأن تحصر عملها في مسائل المصالح الزمنية وفي واجبات المهنة وفي الدفاع عن بعض الأفكار العامة الكبيرة التي

لا يجوز أن يولد الاشتراك فيها أي خصومة، وفيما عدا ذلك فليحتفظ الفرد باتجاهه وخطاه وطرق استجابته الأصيلة وبالجملة بسيادته.

وقوة الروح لا تزال كبيرة حتى في هيئة اجتماعية قد أسرفت في وقف نفسها على مأمون، والزمنيون يعرفون جيدا أنه لكي يثبتوا من سلطانهم لا بد لهم أحيانا من أن يستوثقوا من موافقة الروحيين، فإن لم يكن، فمن تجنب أذاهم، فإن لم يكن هذا أيضا، كان عليهم أن يحيطوا بهم وأن يحطموهم، ولا ينبغي فيما يتعلق بقوة الروحيين، ولست أقول قوة الروح، وإلى هذا ألفت النظر، لا ينبغي أن نستسلم إلى الأوهام كما لا ينبغي أن نستسلم إلى اليأس، فإن تلك القوة مازالت تتدخل في حساب الحاسبين.

ولقد كانت تلك الحقيقة.. حقيقة وجود تلك القوة وانشغال الحاسبين بها، سببا للرغبة في إخضاعها لقواعد علم الحساب، إذ ظن بعض الناس – ويظنون وسيظنون زمنا طويلا – أن القوة الروحية لعشرة رجال ذوي قيمة تساوي عشرة أمثال كل واحد منهم، وها نحن بذلك من جديد إزاء المشكلة البرجسونية على الامتداد والعمق.

عندما تهز العالم أحداث جسيمة، يجب أن يؤدي الشهادة أولئك الذين يستطيعون أن يحكموا على تلك الحوادث، إما لأنهم شاهدوها أو لأن لديهم عنها بعض المعلومات، أو لما بعثته فيهم من النفور والسخط. فالكتاب الذين اشتركوا في الحرب مثلا، كانوا على حق كامل في أن يدلوا بشهادتهم، أي أن يقصوا ذكرياتهم ويصوروا الأشخاص ويعلقوا على الحادثة، وأخيرا أن يشهدوا ضمير العالم.

وهكذا بصوت جهوري تدعو كبرى محاكمات التاريخ (الروحيين) إلى التدخل والعمل، وعندما نرى رجلا يقذف بنفوذه في شجاعة وسط الخصومة، بعد أن يكون قد استنار في حكمه الاستنارة الكافية، فيرفع صوته ويطالب بإجراء عادل أو رحيم، أي يتقدم كمحام متطوع في قضية صعبة خطرة، عند ذلك يجب أن ننصت إليه في احترام وأن نحييه دائما، وأن نساعده قدر طاقتنا.

وتوقيع أحد هؤلاء الرجال الذين أسميهم (روحيين) ليس كما يدل اللفظ، وقع:

نفس وخلق وعبقرية أو موهبة فحسب، بل هو أيضا حياة بأكملها وعمل بأكمله لهما رأس مال من الثقة والتقدير والإعجاب الناتج عن الاعتراف بالجميل، رأس مال جمعته في بطء تلك الحياة وذلك العمل.

ومثل هذا التوقيع – ولو كان متهورا أو مسرفا – يستوقفني دائما ويؤثر فيّ ويدعوني إلى التفكر ويميل بي إلى الرحمة، كما يسلحني للمعركة، ولكن التوقيعات لا تجمع، وهي تفلت من دقة قواعد الحساب وسذاجتها، وأنا أقرر ذلك في قوة بعد تجارب لا عدد لها.

لقد أسيء في كل البلاد استخدام الاحتجاجات المتعددة التوقيعات في الخمس والعشرين سنة الاخيرة، ولقد وقعت أنا نفسي الكثير منها، ومن ثم فلديّ معلومات جمة عن تلك الظاهرة التي أستطيع أن أتحدث عنها في حرية، وعدد من تلك الاحتجاجات التي قصد بها استنكار بعض مظاهر التخلي عن العدل تلوح لي مشرفة كل الشرف، فأنا لا أنتقد موضوعها ولا عباراتها، وإنما قيمتها وأثرها هما اللذان يلوحان لي عرضة للمناقشة.

والذين أسميهم (روحيين) بالمقابلة مع (الزمنيين) كلهم لحسن الحظ – مع بعض الاستثناء – أحيانا فرديون حقيقيون فرأي أحدهم لا يطابق قط رأي غيره مطابقة تامة، ولو كان ذلك الغير أخاهم أو زوجهم أو أعز أصدقائهم، وهم يعلمون ذلك ويعلنونه، ولديهم فوق هذا قلم في خدمة مشاعرهم وولعهم وإيمانهم، كما لديهم إحساس واضح بأن توقيعهم يعبر عن نفس، إن لم تكن منعزلة فهي فريدة أو على الأقل لا يمكن ردها إلى غيرها ردا تاما.

وذلك التوقيع الذي يطلب إليهم، يحتفظون به عادة لتمييز تلك المؤلفات التي يخلقونها وسط الآلام ويزنونها خيطا، يطلب إليهم ذلك التوقيع لتأييد نص رأته نفس أخرى وحررته، يطلب إليهم فيعطونه.. لماذا؟

أولا: لأن النص المقترح في بعض أجزائه على الأقل مع شعور الشخص الذي

طلب إليه التوقيع، وفي الغالب لا يكون الاتفاق تاما، فصاحب التوقيع إذا استطاع، وكان لديه الوقت والرغبة، ولا أقول الحق وإلا تعقدت الخصومة، يود أن يصحح بعض الفقرات وأن يغير بعض الألفاظ، وأن يعيد توزيع الأفكار والحجج، ولكنه لا يملك الوقت بل ولا يحس بالرغبة وليس لديه في الغالب الوسائل لذلك، تراه يرفع كتفيه وينفض رأسه، ثم يوقع في تردد أو بدون تردد، وفي الغالب الأغلب يثيره الاحتجاج ويؤثر فيه ويهزه، بل ويوقد انفعاله وهو بلا ريب قد يفضل صياغة أخرى، ولكن لا علينا من ذلك ها هو القلم، وها هو المداد، وإلى البريد.

والتوقيع لا يعطى دائما في حماسة، بل أغلب الأحيان في استسلام لقد قدم الاحتجاج صديق، ولقد يحدث أن يقدمه خصم نريد أن نلعب معه دور الكرم النفسي، كما يتفق أن تعمل المجاراة والمباغتة عملهما في مناسبات كثيرة، ثم أن أسبابا أخرى قد تتدخل: الخوف من ألا نعمل كما يعمل الغير أو أن نغضب غضبا حزبا كبيرا دائم الحركة، وأحيانا ذاك النوع من الجبن الذي يسببه الخوف من أن نظهر بمظهر الجبان.

وأنا أظن أنه من بين من يوقعون احتجاجا ما نفر ذلك، لضعف أو عدم مبالاة أو جهل أو تساهل أو مجاملة أو لياقة، أو ليريحوا أنفسهم أو ليسايروا التيار، وبالجملة لآلاف من الأسباب التي ينكرها العقل. ولنتفاهم جيدا، فالمسألة ليست أصلا أن يتخلى (الروحيون) عن سلطتهم، عن رسالتهم، عن امتيازاتهم، ولهم قلم وجمهور ونفوذ. فليستخدموا قوتهم منفردين عندما يرون داعيا إلى ذلك ما داموا رجال عزلة بحكم استعدادهم وضرورة عملهم، فليكتبوا آراءهم وليوقعوها في كبرياء، ولكن ليحذروا التوقيعات الجماعية.

والكثيرون منهم يدركون بعد فوات الوقت أنهم قد تعهدوا بما يخالف أفكارهم العميقة، والكثيرون منهم لا بد لهم من أن يعدلوا عما وقعوا كما فعل عدد كبير ممن يسميهم إخواننا السويسريون: الثلاثة والتسعين مفكرا، والكثيرون منهم سيفهمون

أنهم بتخيلهم عن وحدة الرأي الذي لا يتجزأ سيضعفون من سلطة الروح، بل ويعرضونها للخطر، فتلك الروح التي أرادوا بالذات خدمتها، لا تتفق مع الجمعيات المغامرة ولا مع ما يسمونه في جهة أخرى بمظاهرات الكتلة الشعبية.

ولقد يعترض عليّ بأن الاحتجاجات تسمح في بعض الظروف لأنصار رأي ما بأن يحصوا أنفسهم علنا، وهذه وجهة نظر مبسطة، فالنفوس لا تعد كقوالب الحجارة أو كالتفاح، وأضيف إلى ذلك أن هذه الإحصائيات التحكمية تنمي الفوضى، وتوقد الحزازات.

يجب أن نحذر من المغامرة بالعهود، وأنا لا أؤكد أنني لن أوقع في المستقبل احتجاجات جماعية، ولكنني على الأقل منعقد العزم على أن أعبر عن أفكاري بنفسي ومنفردا عندما أرى ضرورة لذلك كما فعلت قبل اليوم مائة مرة، وإنه ليلوح لي أنه من الخير أن أقول عندما يستسلم الناس لكل هذه الأنواع من الهذيان الجماعي: إن الفرد وحده يستحق حركة إيمان.

٩

عن وظيفة الكاتب الاجتماعية

الوظيفة الاجتماعية من بين الوظائف التي يستطيع الإنسان أن يؤديها هي تلك التي تلاقي حاجة من حاجات الهيئة الاجتماعية، ومعظم المواطنين في هيئة اجتماعية عادية تشغلهم مهام عملهم الشخصي وأعبائه عن أن يجدوا المقدرة والوقت اللازمين لمعرفة العالم بالمعنى الفلسفي والشعري للكلمة، وأن يعبروا في لغة لبقة عن خلاصة ما يكتشفون، وهم يكلون ذلك إلى الرجل المختص أي إلى الكاتب الذي يناط به في حدود ما يتمتع به من ثقة أن يزاول أعمال المعرفة. فالكاتب إذن يؤد في نظري وظيفة اجتماعية عندما يعيننا على فهم الإنسان والعالم فهما أصح وعندما يأخذ في (نقل المجهول إلى المعلوم) كما يقول كلوديل، أي عندما يكون مكتشفا حقيقيا ومخترعا

ومنقبا، سواء كان ذلك بطريق مباشر، بأن تتناول تلك المقدرة على التنقيب الكائنات والحوادث والظواهر، أو كان بالواسطة بأن تعمل في أفكار ومؤلفات أحد الرجال أو الشعوب أو الحضارات.

وهذه الوظيفة التي يلوح منذ بدء الزمن أن لا غنى عنها لنمو كل هيئة اجتماعية نموا منسجما لا يمكن أن تؤدى بتوفيق، أي بثمرة، ما لم تعززها حرية عادلة، وليست هناك حرية لا تعرف الحدود، ومهما أكن عميق الفردية فلست أنسى أنني أعيش في هيئة اجتماعية.

ولهذا أقبل في الحكم على الحرية التي أمنح أن أتنازل في كرم نفسي عن مواضعاتي الخاصة، وأنا أعتبر الحرية كافية عادلة حكيمة عندما يبدو لي أن كبار الشعراء والفلاسفة الذين نحيي فيهم أساتذتنا يستطيعون أن يؤلفوا عيون كتبهم بعيدا عن كل ضغط، وحينما يغل بالسلاسل جيتة وهيجو، ودانتي ومونتين وشكسبير وسرفنتيس وسبينوزا مثلا، أقول أنني لست حرا، هذا هو مقياسي.

وقيود الحرية لم تمنع الكتاب دائما من أن يخلقوا، ولكنها أفسدت العلاقة بين الكتاب والهيئة الاجتماعية إفسادا بينا، وبعبارة أخرى أدت إلى اضطراب الكتاب في تأدية وظيفتهم الاجتماعية الحقيقية.

كل كلمة يكثر استعمالها تأخذ معان جديدة متميزة عن معناها الأصلي تميزا يتراوح بعدا وقربا، ومن ثم كان من الواجب أن ننظر في المعنى الأصلي، بل وأن نحدده عندما نريد أن نتابع تفكيرا أو نأخذ في مناقشة. ووظيفة الكاتب الاجتماعية كما عرفتها لا تترك مجالا لجدل كبير، ولكن الموقف يتغير بلا ريب أذا أعطيت لكلمة (اجتماعي) نبرتها الحديثة. ولعبارة (الوظيفة الاجتماعية) في آذاني المعنى البسيط الذي رأيته فيما سبق، ولكن من الواجب أن أضيف اليوم أن كلمة اجتماعي أصبح لها في نفوس كثيرة معنى سياسيا، فالوظيفة الاجتماعية للكاتب يمكن أن تفيد إذن الوظيفة المحتملة للكاتب في السياسة الاجتماعية.

ومن الممكن إذا تمسكنا بدقة الألفاظ أن نجهض المناقشة، فالكاتب ليس له ولا يمكن أن تكون له وظيفة فيما نسميه السياسة الاجتماعية. ومن المنتظر في هيئة اجتماعية محكمة البناء، أن يوكل الاجتماع والسياسة إلى عناية أخصائيين أكفاء يختارون في حذر من بين من أنضجتهم التجارب، نعم إنه من الممكن أن يرى الكاتب أن عليه واجبات في هذا الميدان بل أن يقبل بعض الأعباء، ولكن وظيفته الحقيقية ليست في هذا.

وبعد هذا الايضاح الذي قصدت منه إلى تجنب إساءة الفهم في مدلولات الألفاظ، أضيف أنه من العبث أن نترك جانبا مشكلة تعرض لتفكيرنا كل يوم، وهذه المشكلة ليست حديثة، ولكن سير الحوادث يجعلها اليوم أكثر إلحاحاً مما كانت في أي وقت مضى، يجب إذن أن نتناولها وجها لوجه، وفي رأيي أنها تعرض على النحو الآتي: هل على الكاتب أن يشترك اشتراكا فعليا في المعارك السياسية، وبخاصة في المنازعات التي تشتبك فيها طبقات الهيئة الاجتماعية.

يجيبنا التاريخ فورًا بعدة إجابات؛ فعدد من الكتاب الذين كانوا كتابا كبارا، كتابا مجيدين، لم يخشوا أن يشتركوا في الجهاد السياسي، لم يخشوا أن يضعوا في خدمة الأحزاب قيمتهم الإنسانية فحسب. بل ونفوذهم الذي اكتسبوه بفضل مواهبم الأدبية، تدخل بعض في الحوادث مدفوعا بشهوات نفسه، وتدخل آخرون لحبهم للقتال أو السلطة، كما تدخل نفر ثالث مجرد عن كل هوى استجابة لصوت ضميرهم، وكل هذه وكثير غيرها، بواعث يمكن أن تلوح موجبة في نظر هذا الشخص أو ذاك، وكل كاتب هو الحكم الوحيد فيما يختار من موقف، ومع هذا فمن واجبنا ونحن نفكر في الوقائع أن نبحث عن عناصر رأي نستقر عليه.

وأنصار التدخل يستمدون حججا ثقيلة الوزن من الأمثلة الشهيرة، التي خلفها التاريخ، وهم يقولون أنه ما دام الكاتب يعطي نفسه الحق في أن يكون شاهدا وحكما، فإنه يسيء إلى مهنته ذاتها إذا لم يضع موهبته ونفوذه، بل وشخصه في خدمة

القضايا العادلة، في خدمة المظلوم ضد الظالم، وبوجه عام في خدمة الإنسانية.

ومن الكتاب من لا يؤثر فيه هذا الجدل البسيط، وهم يرون أن معظم الكتاب لديهم إحساس عميق بمسئوليتهم ما داموا قد وهبوا هبات ممتازة، وما داموا يستطيعون أن يصلوا إلى الحقائق الكامنة خلف الظواهر، وأن يعبروا عنها في عبارات ترفع القلوب، وهم لا يريدون إذا كانوا فاعلين أو شهودا في حادثة ما، أن يعملوا بقصصهم لها عملا فنيا فحسب.

بل أن يدلوا بشهادة، والشهادة عمل فعلي، وإذا لم تكن لهم معرفة مباشرة ببعض الوقائع احتفظوا لأنفسهم بحق الحكم فيها بموجب الوثائق ونشر هذا الحكم، وهذا الموقف الكريم الذي لا يخلو من أخطار يذهب بالتفضيل، فالمحرر الذي يرفض أن يتدخل لا يبدو ساميا حرا في تجرده، بل عقيما، أسيرا لأنانيته.

على هذا النحو تقريبا كانت تعرض المسألة لبني عمومتنا السالفين في أيام الرومانتيزم مثلا، ولكنها قد تعقدت منذ ذلك الحين تعقدا خطيرا. لقد بذلت الأحزاب المشتبكة في الجهاد السياسي، وبخاصة منذ أوائل القرن العشرين أكبر المجهودات لتحمل العلماء والفنانين والكتاب بوجه خاص على الاشتراك في العمل.

وذلك لأن أعضاء الأحزاب يقدرون النفوذ الحقيقي الذي يتمتع به الكتاب عند الرأي العام حق قدره، ومن ثم يعملون كل ما في وسعهم لكي يضموا إلى جانبهم قوى فعالة كهذه، ويرى الكتاب أنفسهم موضع الرجاء في كل يوم، وبخاصة من الأحزاب المتطرفة.

وكثيرا ما تكون لديهم أسباب شديدة الملاءمة للسقوط كما أشرت من قبل، فالبعض ينطلق في حماسة، والبعض يسلم لصداقة، والبعض الآخر ينحني لضعف، ومنهم من يدفعهم الكبرياء حين يرجون أن يرفعوا الصوت، وقد انعقدت بهم الآمال، فينهضون ولا يتراجعون أو يصل صوتهم إلى الآذان. ورجال السياسة الذين تشجعهم حالات النجاح الكثيرة، بل المدوية أحيانا لا يحجمون عن أن يسيئوا في استهتار استخدام ما في نفوس الكتاب من كرم، وهؤلاء الرجال قوم ليس لدى معظمهم أي

سبب يحملهم على احترام الروح وخدام الروح.

ففي كل يوم، بل وفي اليوم الواحد أكثر من مرة يطلب إلى الكتاب أن يعلنوا آراءهم في مشاكل أو مواقف لا يكادون يعلمون عنها أي شيء، أو في أشخاص لا يعرفونهم إلا بالإشارة عن بعد، ولقد يكون الطلب أمراً، بل قد يكون تهديدا. وفي هذه الظاهرة ما يمس قضية الروح والأدب مسا قوياً فهي بميلها إلى الانتشار تعرض الكتاب لخطر فقدان نفوذهم الذي اكتسبوه بجهدهم الطويل، وذلك في غير نفع لأحد، وإنه لمن الممكن أن ينتهي فرط الاعتماد على قوة جماعتنا ونفوذها إلى الذهاب بما لها من حسن الصيت ولئن حدث ذلك لكانت فيه محنة كبيرة. ولكن هل معنى هذا أنه يتعين على الكاتب الحريص على أول واجباته، أن يلجأ إلى المقاطعة بسبب تلك الظروف الشاذة، شذوذاً يبلغ الأسف له أقصاه طبعا هذا ليس رأيي.

كما يطيل شجر الند التفكير سنين طويلة قبل أن يدفع بزهره إلى الضياء، كذلك يجب على الكاتب أن يصبر على تجربة طويلة ليبلو القضية التي يريد أن يفصل فيها، يجب أن يستجم وقتا طويلا قبل أن يتناول الحديث كما يجب ألا يتناوله في غير الوقت الملائم، وألا يقول غير الضروري، وهو بذلك قد يوفق في استخدام قوته وتغليبها.

وللنهوض بعمل شائك كهذا والنجاح فيه يجب على الكاتب أن يصم أذنيه عن إلحاح رجال الأحزاب والعصب، يجب ألا يقبل قط تنفيذ أمر كما يجب أن يعرض عن مقتضيات المجاملة.

قال فني: (أد رسالتك وحيداً حراً)، ولست أرى اليوم موجبا لتغيير تلك الحكمة،

وأضاف الشاعر: (لا قداسة في غير الوحدة) لا فليهد هذا القول الجميل من بيننا أولئك الذين لا يقبلون أن يبحروا مغامرين على غير بينة، أولئك الذين يدرسون كل يوم موقفهم ويسترشدون بالنجوم ويجددون مكانهم على خريطة العالم.

١٠

الكتابات السياسية

كنا لا نزال شبانا صغارا عندما دوَّت في آذاننا لأول مرة هذه الصيحة (السياسة أولا) ولربما كانت تلك العبارة عندئذ كلمة العهد، ولربما كانت مجرد ملاحظة، ولربما كانت نبؤة وهل يجب أن أقول أنها ملأتنا ذعراً؟.. كنا في بدء القرن العشرين، ولم تكن فرنسا طبعا بعيدة عن السياسة، فلقد كانت تهتز بالمسألة، وكان قانون الفصل قد أثار شهوات صاخبة حتى في أقصى الريف، وكانت البلاد خارجة من مغامراتها الاستعمارية قلقة، وإن تكن ثملة، كما أن قنابل العديد من الروس كانت توقظ كل أسبوع أصداء جديدة في أعماق كل الشعوب وشعبنا بنوع خاص، وكانت الروح النقابية تعدد من تجاربها ومظاهرات أحزابها، ولم يكن فرنسي تلك السنين منصرفا بلا ريب عن المسائل العامة، ولكنه لم يكن يخضع لها في غير تحفظ كل أفكاره وكل أعماله، لقد كان لا يزال يعرف الدفاع عن نفسه.

كنا في زمن يستخدم فيه الشبان الذين كانوا يترددون على المعامل كل ملكاتهم في مناقشة آراء لدنتيك ودستر وريشيه، وكان اسم برجسون عند صبيان الفلاسفة من تلك الكلمات الفعالة التي تكفي لتحمل على العرب كل الأفكار الطفيلية، أما نحن التلاميذ الكتاب فكنا نستخدم خير ما نملك من حرارة في تقديس الأساتذة الذين اخترناهم تقديسا حقيقيا، وما يستطيع المرء أن يذكر في غير أسف تلك الحماسة الروحية الجميلة الخصبة، حماسة شبيبة كانت تعرف كيف تتحدث في الفلسفة والفن والشعر والأخلاق، متجنبة الخطابة الانتخابية وأسلوب المجتمعات العامة البغيض بوحي من غريزتهم.

كان زمنا أعطى فيه المجمع الفرنسي إذ كان لا بد من ضرب مثل جائزته الكبرى عن طيب خاطر لمؤلف (جان كريستوف) الذي قبلها في سرور، ومع ذلك أكرر أننا كنا عقب المسألة مباشرة، وعلى أبواب الحرب العالمية، ولكن الروح في نشاطها

وأعمالها كانت لا تزال تعرف كيف تفلت من هوس السياسة فتسجنها داخل ذلك الفلك المقدس، الذي أعطانا ديكارت أنموذجا محكما له.

لقد تغيرت الامور تغيرا كبيرا، فعبارة (السياسة أولا) إذا صح أنها كانت في الأصل برنامجا، فإنها قد أصبحت الآن حقيقة واضحة وحقيقة مؤلمة، ففي كل النفوس تقريبا تشغل مهام السياسة المكان الأول، وأنا أسلم بأن مهام السياسة تزداد كل يوم إلحاحا وإيلاما واستئثارا بنا، ولكنها لن تلبث أن تحتل مكان كل المهام الأخرى وتنحيها وتفنيها إن لم يكن ذلك قد تم بالفعل، وعندما أفكر في امتيازات الروح، وفي واجباتها أقول أنها حقا لمحنة كبيرة.

في كل يوم أتسلم عددا من الكتب ككل زملائي من الكتاب، وذلك علاوة على الخطابات والجرائد والمجلات وأكداس الأوراق المتعددة الألوان. ومن الممكن أن يكون النقاد المحترفون أوفر حظا مني، وأنهم يجنون محصولا أكبر من محصولي، ولكني أجد أن نصيبي لا بأس به، ففيه القصص والروايات والتاريخ الجاف والتاريخ الروائي والأساطير والشعر والأبحاث والعلم والفلسفة، وأنا أختار من بين هذا الحشد كل ما يمكن أن يغذيني، ولست أحس بداع إلى الشكوى، وأنا لا أعمل إحصائيات وما بي ميل إليها ولا لي قدرة عليها، ومع ذلك أدرك في الجملة، تبعا لوفرة أو ندرة هذا النوع من الكتب أو ذاك مقدار الحظوة أو الإعراض الذي يذهب به كل نوع، وفقا للأزمنة والفصول.

والذي يسترعي انتباهي الآن هو كثرة الكتب ذات اللون السياسي، وفي الحق أن السياسة مجال رحب يمتد من الاقتصاد إلى الأخلاق، وللسياسة كل الأوجه وكل الأقنعة، لها قناع الفلسفة البالغة في عبوس الجد، كما أن لها قناع التشهير الفاضح والسباب المخزي، ولا علينا من ذلك فحتى الملاحظ الذي لا يترك لتخبط الحوادث المعاصرة سبيلا إلى التأثير في حكمه، يرى أن الكتب ذات اللون السياسي تحتل بين كتلة المطبوعات في الوقت الحاضر مكانا مسرفا، ومن ثم غير عادي.

ولقد اتفق لي في الشتاء الماضي أن تسلمت في يوم واحد ثلاث أو أربع

نشرات، تعرض علي كل منها خطة كاملة للإصلاح أو لتدعيم النظام القومي أو النظام الاجتماعي إن لم يكن نظام العالم كله، وهذه الكتب الصغيرة التي أشير إليها لا تشبه في شيء المذكرات والبيانات التي ينشرها ويوزعها في سخاء صناعي دعاة بعض الأحزاب السياسية، لا بكل تأكيد، فمعظم تلك الموسوعات أو البرامج التي أشرت إليها فيما سبق من وضع أفراد منعزلين. وبعضها مطبوع بواسطة جماعات حديثة التكوين ليست لها علاقات محسوسة بالطوائف البرلمانية، ومن السهل أن نتوقع وأن نفهم أن بعض الافراد قد ضحوا تضحية شخصية حقيقية، لكي ينشروا مشروعهم أو وثيقتهم أو مذهبهم، وأنهم قد استنفدوا مدخرهم وجازفوا بكل ما لديهم، وهذا لا يخلو من بطولة، وفي الكثير من هذه الكتابات نرى حبا حارا للصالح العام يظهر بل يتفجر رغبة مخلصة في النهوض والنظام والسلامة، وليس للانتقاد أو الهجاء غالبا في تلك الكتابات وجود، وإنما هو مجهود لا يبذل في أغلب الأحيان للتشنيع أو للتدمير بل لإقامة التوازن والبناء.

ولقد يتفق أن تدل بعض العبارات على سذاجة فتلقى غير بعيد من الملاحظات الماهرة: أمانٍ صبيانية وجملا شديدة الشبه بتلك التي أصدر فيها العالم حكمه، فالمحرر يقترح مثلا (أن ننهض بفرنسا في جو من الثقة) أو (أن نقيم نظاما أساسه العدل) أو (أن نصلح النظام المالي إصلاحا يقوم على التبسيط، وتحقيق العدل) وهذا ما لا يريد أحد في فرنسا أن يعارض فيه، وأقول بعيدا عن كل رغبة في الانتقاد أن هذا الازدهار العجيب للكتابات السياسية أمارة من أشد الأمارات خطورة.

وأنا أعلم أن الفرنسيين يحبون السياسة، بل السياسة الخالصة، والسياسة والحب في فرنسا هما لذتا الفقير، اللذتان المجانيتان حقا، والطلب في القهوة الصغيرة يكلف فرنكات وسنتيمات، أما السياسة فلا تكلف شيئا، وهي تثمل وتثير انفعالات وتخبئ مفاجأت، وهي تسوط غرائزنا، وتهيئ لنا انتظارات حارة، كما تهيئ بعض السنات، وهي تتغذى بكل الشهوات وخاصة بأحطها، فهي غنيمة طيبة للنفس الخاوية التي تبرأ من كل قراءة بعد أن تنفد الجريمة.. نعم إن الفرنسيين ساسة كبار بلا ريب حتى في الأيام الهادئة من تاريخهم.

ولكن عندما تأخذ شهوة السياسة الاتجاه الذي نراها قد اتخذته اليوم، وعندما نرى أن الحمى السياسية قد وصلت إلى أناس كان من الواجب أن يظلوا بعيدين عنها بحكم أذواقهم وأخلاقهم وطبيعة أعمالهم، وعندما لا يستطيع أي مواطن في أوقات فراغه وأرقه أن يمنع نفسه من أن يعيد بخياله خلق الدولة في حنق ويأس، أقول عندما يحدث كل ذلك تدل تلك الظاهرة في نظر الطبيب، بل في نظر الملاحظ العادي على اختلال عميق في حياتنا الاجتماعية.

وانا أسلم راضيا بأن تصبح السياسة عندنا حرفة، كما هي في كل مكان، وأسلم بأن توضع في يد المحترفين، في هيئة اجتماعية قائمة على التخصص، وتقسيم العمل تقسيما قد بلغ أقصاه، ولكن على هؤلاء، إذ يضطلعون بهذه الوظيفة أن يحررونا على الأقل من كل مهامها.

ودليل الصحة في نظر الطب الصحيح هي ألا يفكر الفرد في جسمه، فهو يتخذ كل يوم بعض الاحتياطات الأولية، وبذا تتم عنايته به، فيأكل ويشرب، ويغتسل ويعدو إلى أعماله. فهل تراه من ساعة إلى ساعة ومن دقيقة إلى أخرى يتساءل في لهفة عن حرقة بنكرياسه أو غدده، أبداً بل أن هناك مجالا للأمل في أن يجهل حتى اسمها وحتى موضعها في الجسم، فإذا أحس بمعدته دل ذلك على أن هذه المعدة ليست في حالة جيدة، وإذا استمر الاضطراب كان من الخير أن نخبر به الأخصائي، أي الطبيب، وأن نسأله رأيه، وأنه لمن الخير بنوع خاص أن نثق بهذا الأخصائي وأن نقدر على الاستسلام لقراراته.

ولكن عندما يأخذ المريض في الرجوع بنفسه إلى كتب الطب ودوائر المعارف الشعبية، وعندما يشرع وقد أخذته اللهفة واليأس ولربما الثورة في أن يضع لنفسه نظاما للتغذية، وأن يبحث عن أدوية وأن يتخيل عمليات جراحية عندما يحدث كل ذلك، أقول أن الحالة سيئة وأن المستقبل مفزع.

في هيئة اجتماعية محكمة البناء سديدة الإدارة، لا يجوز أن يخصص الرجل

العادي من وقته للسياسة أكثر مما يخصص للبس ملابسه في الصباح، ماذا أقول؟ بل أقل من ذلك بكثير، لسرعان ما استرعى انتباهي أثناء إقامتي في روسيا منذ سنة ١٩٢٧ ما يجب أن نسميه بالفهم السياسي؛ فالمواطن الذي كان يريد أن يشبع واجباته الأولية أقول (كان يريد) لأنه من الممكن أن تكون الأحوال قد تغيرت، إذ كل شيء يسير حثيثا في روسيا.. هذا المواطن كان عليه أن يخصص عدة ساعات من كل يوم لما سماه جاك رفيير (ظاهرة السوفييت) أي الاجتماع والمداولة، وأنا واثق من أن الصالح العام يتطلب مجهودا أقل من هذا بكثير.

الرجل المختص في عمله والموظف في وظيفته والمواطن في بلد حسن الإدارة يجب أن ينسى السياسة في كل يوم تقريبا، فإذا لم ينسها وإذا فكر فيها بعناء، وإذا فكر فيها بألم كان الداء مخيفا وكان الدواء عاجزاً.

ولقد جاهدت فرنسا زمنا طويلا ضد هذه العدوى المميتة، ولكنها انتهت بالسقوط فيها، والنادر من النفوس المستقلة التي لم تيأس بعد من أن تحدث معاصريها، إن لم يكن عن المسائل الخالدة، فعلى الأقل عن المشاكل الكبرى في العلم والفن والأدب والفلسفة، تلك النفوس لن تلبث أن تحس بأن هذه الأمور الأساسية لم تعد تهم أحداً، فالسياسة كالثوم، بل بلغ من القوة أن خير الأطعمة تبدو بدونه ولا طعم لها.

إن الشعب الذي يضطر راضيا أو كارها إلى أن يخصص خير وقته وخير ما في نفسه لمسائل السياسة ليلوح لي في حالة انحلال، وذلك لأنه على فرض احتفاظه بمكانته وثروته وقوته الزمنية، مقضي عليه قضاء يكاد يكون حتمياً، بألا يعود فينتج تلك العبقريات الكبيرة الخارقة التي يجب لكي تنمو وتثمر أن تظل طليقة من استرقاق القطيع ومن تحكم المعتقدات والأوامر العامة، والشعب لا يعتبر عظيما حقا إلا أذا أنتج رجالا عظماء.

١١

السلطة الزمنية

لست أتحدث إلا عن الأدب، ولكن القضايا التي سأصوغها تنطبق على كل المهن التي يمكن أن تظهر فيها المقدرة على الخلق. وإنما أسمي بالسلطة الزمنية كل سلطة خارجة عن الإنسان، كل سلطة تضاف إلى قيمة الإنسان الذاتية، وتغير بطبيعتها من نفوذه وتأثيره واستجاباته، ولقد تستند سلطة كهذه إلى بعض المواهب الروحية كما يمكن أن تخفي نقصا في تلك المواهب كبير الوضوح أو قليله.

وأنا أقول عن كاتب ما أنه يملك نوعا من السلطة الزمنية إذا كان يدير جريدة أو مجلة، أو كان يرأس أو يوجه داراً من دور النشر، أو مجموعة كتب وكذلك عندما يكون مشرفا على باب مهم من أبواب جريدة منتشرة، أو شاغلا لمركز في بعض الإدارات أو اللجان أو عضوا في المجامع أو الهيئات الفنية النشيطة، وأخيراً إذا كان يتمتع بتلك الميزة الواضحة المخيفة ميزة الحظوة بالمال عن ميراث أو نسب.

وأنا أترك اليوم جانبا، مشكلة المال والثروة الشخصية، فهي تستحق أن ننظر فيها نظرا خاصا، وهي علاوة على ذلك مشكلة يمكن أن تمحى في الغد، ولو على نحو وقتي، وسط الاضطرابات الاجتماعية والسياسية. وأما عن مشكلة النفوذ الخارجي للسلطة الزمنية المستمدة من المراكز والوظائف فمن الممكن أن ننظر فيها على مهل فهي مشكلة خالدة.

ولو أن أحد أبنائي مال إلى الاشتغال بالأدب، وهذا ما لا أتمناه أصلا وما لا أرى في الساعة الراهنة أي دليل عليه، إذن لحدثته بما لاحظته وما أعمله. ولقلت له أن حياة الكاتب، حياة الفنان، حياة الرجل الذي يسعى إلى خلق قيم ومؤلفات هي قبل كل شيء تجربة، وإن شئت فقل محنة، وأهم مشكلة بالنسبة لك ليست أن نترك مواهبك تنمو، وأن تقسو عليها وتهيئ لها ميدانا، ونحدد لها اتجاها فحسب، بل أيضا أن تعرفها لتحسن استخدامها، فكل عمل غاية ووسيلة. نعم غاية ووسيلة فاصغ إلى هذا، وسيلة إلى أن تنهض

يوما بعمل آخر أسمى وأشق، وبالتالي أحسن، وإذا قبلت مبادئ على هذه البساطة، كان عليك أن تقود تجربتك، تجربة حياتك، بأكثر ما تستطيع من دقة وقسوة، وليست هذه مسألة أخلاقية بسيطة، فمصلحتك ذاتها منوطة بها، وإذا أردت أن تعرف قيمتك وأن تتميز ملكاتك، وأن تدرك مواضع نقصك، وأن تزن ثمار عملك في ميزان دقيق، فلتحذر كل ما يمكن أن يفسد حسابك ويثني من أحكامك.

لست غنيا ولا بد لك منذ الآن أو عما قريب من أن تعثر على قوتك، تعلم إذن حرفة وحاول أن تزاولها على نحو يضمن لك حياة شريفة دون أن تبدد فيها كل قواك مادمت تعد نفسك للأدب في خفايا قلبك، ومشكلة الحرفة الثانية قد حلها جميع الناس السديدو الرأي على نفس النحو.

افعل ما تشاء، افعل ما تريد، ولكن زاول حرفة تقوتك طوال الزمن اللازم، حتى لا تطلب إلى الأدب شيئاً قبل أن يحكم القضاء، ولتهرب بنوع خاص من الأعمال شبه الأدبية أو المجاورة للأدب التي ستفسد يدل وتستنفد ملكاتك وابتكارك وتحملك على ضروب من السخرة لم تخلق لها، وعندما تأتيك فكرة كتاب، وتجد في نفسك ميلا وفي وقتك متسعا لعمله، ألق بنفسك إليه بكل قواك، ولكن لا تنس أن تعيش أولا، ولدينا دائما بين العشرين والثلاثين من الوقت متسع لنكتب، عش بحرارة ثلاثة أشهر لتكتب ثلاثة أيام وتنتج ثلاث صفحات.

لربما لفتت الأنظار كتاباتك الأولى، بل لنفرض أن الحظ واتاك لتمسك بجناحه، حسن، حسن جدا، فكر عندئذ في السلطة الزمنية لأن الأغراء لن يلبث أن يأتي.

إني أسمعك، أيها الرجل الحكيم.. أسمعك أيها المحاسب الماهر تقول (لقد سرت قدما فالناس يتحدثون بنجاحي، لقد عرضوا علي مركزا أو وظيفة أو مهمة بل قد تكون رتبة، كل هذا يمكن أن يساعدني في عملي كفنان، كل هذا يمكن أن يزيد في نفوذي).

آه.. إنني لست على ثقة من ذلك، فحديث النفس الجيدة المعدن هو أن تقرأ، وأضيف لفوري أن تقرأ في ملابسات تامة الصفاء، وهذا ليس بالأمر الهين، فالكاتب

الذي ينطلق في تلك المهنة العجيبة يأمل أن يقرأه الجمهور الذي قصد إليه جمهوره المختار، الجمهور الممتاز الذي يكتب في الواقع من أجله رغم كل ما يمكن أن يقول، بل وما يمكن أن يكون له من رأي.

وكسب هذا الجمهور يحتاج إلى صبر، وأشق المهام هي أن يقرأنا الزملاء، نعم أن يقرأنا الكتاب الآخرون، وهذا أصعب الأمور وأبعدها عن اليقين، ومع هذا فهو الشرط الأساسي للانتصار يجب أن يقرأك زملاؤك، يجب أن يحكم عليك زملاؤك، إذا كنت حقا تريد أن تعرف قيمة مواهبك ومعنى مؤلفاتك فلا تطلب ولا تقبل، لزمن طويل وخلال كثير من السنين القاسية أي ذرة من السلطة الزمنية.

وهل تأمل أن يقضى فيك ببرودة وأنت تملك قوة غير قوة روحك أو نفوذاً غريبا عن شخصك، احذر الرجاء.. احذر الحقد، اعرض نفسك على القضاء عاريا عاريا هادئا وقد ملأت يديك بأعمالك، أعمالك فحسب.

قاوم لأنك ستغرى، وحافظ على هذا المسلك زمنا طويلا، أصغ، لاحظ وأحص كل يوم ما لديك، سل نفسك كل يوم عن معنى عملك وعن مجرى حياتك، وإذا ظلت تجربتك نقية فستعرف على وجه التحديد ماذا يزن المديح وماذا يساوى النقد، وستتخذ ما يلزم لكي لا يشلك أي واحد منهما، وستعمل أثناء الجزء الأكبر من حياتك في أمان جميل.

ولربما أتى يوم ترى فيه أنك تعرف شيئاً عن نفسك، وسيأتي حتما يوم تكون فيه قد استقيت من عملك تجربة قوية، وأملي أن يأتي يوم ثالث تصل فيه إلى الخمسين، عندئذ ستكون قد عملت كثيرًا وسيكون ظهرك مثقلا بحمل من المؤلفات الكبيرة، وستتمتع بنفوذ لن تدين به لغير ملكاتك وعملك، وعندما يحين ذلك الحين، إذا اعتقدت أنك تستطيع أن تستخدم ما تعلم لمصلحة الأدب وفي خدمة الآخرين، ففكر طويلا، طويلا جدا ثم لتقبل إذا وجدت في نفسك القوة على ذلك، شيئا من السلطة الزمنية، ولكن اعلم أن هذه دائما مغامرة مرة، وإذن فلتكن حريصا، كن حريصا.

١٢

مهنة الاختراع

تقول الأسطورة عن جل رنارد، أنه عندما كانت تضنيه مراقبة الصفحة البيضاء كان يأخذ في الضرب خلال الطرقات، طالبا العون إلى مشاهد العالم التي لا عداد لها، وأحيانا كنت تراه، وهو صائد الصور يصعد هنيهة عند راشيلد، وذلك إذا خشي أن يعود صفر اليدين، يصعد ليقبس شرارة ثم يعود وقد استجيبت دعواته.

ملكة الاختراع، ملكة خلق حكايات بأن تقبض على عناصر الحياة وتعيد توزيعها لكي تؤلف منها صورا جديدة، ثم القدرة على أن تجعل شخصيات مخترعة تعمل وتتحدث، وقد منحتها روحا واتجاها أي قيادة، هذه الملكة هي بلا ريب أشد الملكات جموحا، فالإنسان يستطيع أن يمرن على الصبر والشجاعة والقوة، بل على دقة الإحساس ذاتها، ولكنه لا يستطيع أن يثير القدرة على الاختراع، كما لا يستطيع أن يقهرها. وعلى من يحب شيئا من تلك الهبة الثمينة بين الهبات أن يعبد لها مجراها وأن يخصبها بالعمل ويؤججها بالبلاء، وأخيرا عليه أن يحققها فعلا مع حمايتها من الفساد الذي يستنفدها ويفنيها.

في فرنسا شبيبة شجاعة مثقفة متحمسة تلقي بنفسها إلى أنواع من الحتف في حرارة بل في انفعال قوي، وأنا أوافق راضيا على أن يطلب إليّ ذلك الحشد مقالات عن الأفكار أو الآراء أو النقد أو الأخبار أو الوصف، وأما الفصة من مائة سطر التي تنشرها كل يوم جميع صحف فرنسا تقريبا، فذلك ما أعلن في وضوح أنه أحد أخطاء صحفنا، وأن في ممارسته خطراً كبيراً على ملكات الاختراع عند شعب يعتبر رغم ذلك ماهرا في تلك المهنة السعيدة، مهنة اختراع القصص.

والأفكار أو الصور التي يمكن أن تكون مادة لعمل فني تحتاج دائما إلى نضوج بطئ فهي تولد فنيا كالديدان، وتبقى بلا حراك زمناً طويلاً، ثم نحس شيئاً فشيئاً أنها تتغذى وتأخذ في التكون، وأخيراً تبدأ في الحركة، ومع ذلك تمر الأعوام قبل أن يتهيأ

الكائن الوهمي للمجئ إلى الضوء فتبدأ عملية الوضع الشاقة، ونحن نستطيع أن نفسد كل شيء، ولكننا إذا انتظرنا إلى نهاية الحمل فستكون لدينا على الأقل فرصة لأن نخرج إلى العالم كائنا قابلا للحياة كاملا حسن التكوين. وكل من له خبرة بالآداب يعرف أنه قد انتظر أحيانا عشر سنين وأحيانا أكثر من ذلك قبل أن يترك هذا الشبح ينبعث أو تلك الصورة تنطلق، قبل أن يفسح الطريق لهذه الفكرة أو تلك الحكاية.

في رأيي أن القصة الصغيرة التي تتمتع اليوم بالحظوة لدى صحفنا اليومية كلها تقريباً، تمثل بالنسبة لروح الاختراع محنة عقيمة أكاد أؤكد أنها مميتة، فهي عقيمة لأنها لا تستطيع أن تثير أو أن تخصب المواهب التي في سبيل التكوين، وهي مميتة لأن هناك كل الاحتمالات في أن تنتهي بأن تقتل الفنان الذي يتعرض لها.

وأنا أرجو أن يشرفني القارئ فيعتقد أنني قد فكرت طويلا قبل أن أواجه هذه الخصومة التي ليست عديمة الأهمية بالنسبة للروح وبالنسبة لمستقبل آدابنا.

فن القصة الصغيرة فن شاق، وإن القارئ ليدهش عندما يفتح مجموعة أقاصيص لموباسان فيجد قصة طويلة ممتازة حسنة العرض في الغالب قد اتخذت عنوانا للمجموعة، ثم يكتشف مختفية خلفها، حكايات أخرى سقيمة تشتم منها بقوة رائحة (الجريدة) لقد أثم موباسان ضد المبادئ الأساسية لذلك الفن الذي برع فيه، إذ كان يدفعه الزمن إلى حصد قمحه عشباً. لقد نشر مئات من القصص مع أنه لم تكن لديه حيوية لغير ما يقرب من ثلاثين حكاية، وهذا قدر جليل، وأنا أقرر أن هذا المثل الشهير لا يجوز أن يحتذى، فحاجات الجرائد، على نحو ما نرى اليوم ستستنفد في غير نفع لأحد ملكة الاختراع عند جيل قوي ولكنه وجد نفسه خاضعا لنظام مدمر.

هذه الفكرة السعيدة القوية التي ازدهرت في رفق بحنايا روحنا، والتي قد تصبح بعد ثلاث أو أربع سنوت مادة لمؤلف كامل، هذه الفكرة التي نعزها ككنز من كنوزنا الخفية، لا نريد أن نضحي بها هي الأخرى على مذبح مولوخ.

ولكن الزمن يمر ولكن الزمن يدفعنا وعلينا أن نقدم إلى جريدتنا قصتين كل

شهر، لقد قرب الموعد، ها هو قد حان، لم يبق غير ساعات معدودة، ليس لدينا ما نقول أو نصف أو نقص.. هناك أيام لعينة يكون فيها المخ جافا صلداً، فلا أثر لحكاية ولا ظل لقصة ولا شبح على شاشة ذاكرتنا الملساء، هل نأخذ مضطرين خير مدخرنا، تلك القصة الجميلة التي داعبناها منذ زمن طويل، وا أسفاه، لا مفر من ذلك ما دام الزمن يدق بابنا، فلنلق مائة سطر في ذلك الموضوع العزيز الجميل الذي ربما كان يهبنا مؤلف حياتنا، غرة مؤلفاتنا.

أؤكد ان القصة اليومية هي إحدى قروح أدبنا الخفية، قرحة يسيل منها كثير من الدم الجميل الذكي ويضيع. ولقد يعترض على البعض في قوة بأن المواهب التي تقبل تلك المحنة اللعينة قد لا تستحق أن تنقذ، وهذا رأي كافر، فأنا أعرف وأستطيع أن أذكر كتابا سامبي المواهب قد جففتهم كتابة الأقاصيص وأضاعتهم.

ولقد يتفق لي فوق ذلك أن أقرأ إحدى تلك الأوراق التي يقذف بها إلى الهاوية كاتب محدود الشهرة، كاتب ما يزال شابا فأحس عندئذ بإحساس من يشاهد مأساة انتحار، ولكني أعترف أن هذا نادر فمن بين الألف أقصوصة التي تظهر في الصحف اليومية يستطيع الإنسان أن يؤكد أن ثلاثة منها تستحق أن تعاد قراءتها. ولقد نشرت كجميع الناس بعض الأقاصيص في الجرائد، فأنا أعرف الداء الذي أحاول وصفه بل مهاجمته، وأنا أعلم أن عددا لا يحصى من الكتاب في حاجة لكي يعيشوا ويعولوا ذويهم إلى المال الذي يكسبونه على هذا النحو بما يهدرون من دماء قلوبهم، وأنا أتصور بسهولة أن المشكلة ليست بسيطة، وإذا كنت أسمح لنفسي بالتدخل فيها فذلك لحرصي العميق على مصلحة الأدب والأدباء، وأنا أرى أن الإنسان يستطيع في غير خطر أن يكتب الكثير من المقالات عن الأفكار أو الوقائع أو الرجال أو المؤلفات، فالكاتب الذي يأخذ القلم ليناضل في المسائل التي تهمه لا خطر عليه من أن ينضب، بل العكس فهو يستثير نفسه ويجددها، وأما ذلك الذي يحس بأنه مرغم على أن يقص بأي ثمن أجنة من القصص، ذلك الرجل أحييه كفريسة وكشهيد.

هذا وفي تلك اللحظة التي تجري عليها الصحف اليومية ما يضلل ذوق الجمهور، فهي تغرس عند القراء الشاردي الانتباه عادة القناعة بحكاية نحيلة لا قوة في عصبها ولا أحكام في تأليفها، وذلك على الأقل في أغلب الأحيان، وإذن فأنا أرى في هذا ضرراً كبيراً بذوق الجماهير، وبملكة الخلق عند حشد من الكتاب.

١٣

عن الأصالة

كنا نتناول الغداء في الفندق، وكان اليوم مطيرا، وذلك بساوبولو المدينة الوحيدة ذات الزوائد التي خصصتها البرازيل الوديعة لآلهة الحضارة الحديثة النهمة، وكان جاري كاتباً ممتازاً لاح لي مشغولا بعبقرية مدينته الكبيرة، وقد أخذ يتحدث في حماسة عن المستقبل قائلا (إننا نريد ثقافة قوية حديثة أصيلة برازيلية بحتة) وإذ انطلق جاري في الحديث عن هذا الموضوع الحار ثارت به قوى الفصاحة توثباً، وكنت أصغي إليه بكل آذاني وإن لم أخل من دهشة.

وهذه اللهجة هذه الرغبة هذه الحاجة إلى ثقافة أصيلة كثيراً ما أحسست بها أثناء سياحت بأمريكا الجنوبية، فالأحاديث التي نظمت في بوينس آيرس بواسطة المعهد الدولي للتعاون الفكري قد دارت في صبر حول هذه المشكلة، ولقد اعترف كل الملاحظين الذين اجتمعوا لهذه المناقشة بأن الحضارة التي حملها الفاتحون الأوربيون الى أمريكا الجنوبية قد خضعت لتغيرات ملحوظة، ولكن القيم الثقافية في جملتها تلك القيم التي يعمل فيها ذكاء العالم الجديد، قد ظلت مع تجاوز بسيط، قيم أوروبا القديمة.

وعدد من مفكري أمريكا اللاتينية يقبل في شيء كثير من الحكمة تلك العلاقة التي ليست تبعية بالمعنى الدقيق، يقولون: وما علينا من أن يستعير العالم الحديث من العالم القديم قواعد تفكيره ومناهجه وقيمه، والشيء الأساسي هو أن يفكر العالم

الحديث وأن يعمل، وهذا ما لا ينكر أنه بسبيله. ويحكم آخرون في قسوة لا أرى أنها في موضعها على ثقافة ليست على حد اعترافهم أنفسهم إلا ظاهرة ثانوية. وهؤلاء يولون وجوههم عن عمد نحو أوربا التي يعتبرونها وطنهم العقلي الحقيقي، وهم ينتظرون منها كل شيء رغم محنها وأخطائها وتخبطاتها.

ونفر ثالث أحد أحلامه وقد يئس من تصرفات أوربا هو أن يسرح تلك الخليلة غير الحكيمة، وهم يعتقدون أن الوقت قد حان لتنطلق في كبرياء عبقرية الشعوب الحديثة إلى شوط بكر، وأن تخلق ما يسمونه ثقافة أصيلة، وعلى هذا النحو كان يفكر جاري في ساو باولو، وأنا لا أسجل شعوره دون أن أضيف ما لاح لي من أنهم في البرازيل يواجهون عادة تلك المشكلة الخطيرة بفلسفة أهدأ ما تكون، وأغلب المفكرين البرازيليين الذين واتتني فرصة الحديث معهم قد بدوا لي عاقدي العزم على أن يستمروا في أن يطلبوا إلى أوروبا رغم بعض الشكوك والنماذج والمناهج التي قدمتها لهم منذ زمن الغزو.

ولكن البرازيل ليست كل أمريكا الجنوبية، وهناك من الكتاب أمثال تيران من أعلن جهرة رغبته في أن يرى أمريكا الأيبيرية، وقد طلقت أوروبا وصفوة الأوروبيين لتسير إلى غايات جديدة، وهذا رأي يحس المرء أنه خليق أن يتلون في السنين القادمة بلهفة صوفية تغير تغيراً خطيراً من علاقات أوروبا بجمهوريات أمريكا الجنوبية الفتية.

وهبنا سلمنا بأن هذا الانفصال يمكن أن يكون كنتيجة لمجرد قرار، ثم لنتساءل كيف تبنى وتنمى الشعوب (المحررة) على هذا النحو تلك (الثقافة الأصيلة) التي تتجه إليها كل آمالها. سرعان ما يبدو أن الثقافة الأصيلة ليست ولا يمكن قط أن تكون نتيجة لمداولة أو قرار أو استفتاء.

الثقافة كالإيمان الذي لا يكفي أن نطلبه لنناله، فهي نتيجة لمجموعة من الملابسات التي لم يكشف لنا العلم بعد عن تكوينها الحقيقي، ومع ذلك فنحن نعرف على الأقل بعضا من عناصرها المكونة.

وهذه العناصر قد جمعتها شعوب أمريكا الجنوبية في ورع كامل رائع، فالأرجنتين وأورجواي والبرازيل، وأنا لا أذكر إلا البلاد التي لي عنها بعض المعلومات الشخصية وإن كان من الواجب أن نضيف الكثير غيرها، قد بنت مدارس عديدة كثير منها جميل، وفي تلك البلاد أساتذة ممتازون وجامعات ومعاهد معدة إعدادا مدهشاً، وسياسة الحرية التي يأخذون بها تسمح لكل المواهب بالظهور، ومن ثم يمكن أن يقال أن المهد قد أعد في تلك البلاد لتلقي ثقافة عظيمة، بل لقد حمل فعلا هذا العمل التمهيدي ثماره الجميلة، وستتلوها ثمار أجمل، متى؟ ذلك ما لا يعلمه أحد، يجب الانتظار في ورع، يجب الانتظار والابتهال أي العمل في حماسة وثقة.

ولكي تكون هناك حضارة أصيلة لا بد من مناهج أصيلة، تزدهر بفضلها مؤلفات أصيلة، والآن وقد توافرت الملابسات المادية، فإلى أي الأعمال يجب الانصراف، أجيب بلا أدنى ظل من التردد، إلى المحاكاة. إلى محاكاة النفوس الكبيرة وأمهات الكتب التي حكم لها الزمن، والمحاكاة حتى اليوم هي المدرسة الوحيدة للأصالة، ولا ضعة فيها لغير النفوس السيئة التركيب أو المغرورة.

لقد نشر لافونتين أشهر كتبه بعنوان (حكايات مختارة نظمها دي لافونتين) ومعنى هذا كما تقرر المقدمة (حكايات إيزوب مختارة الخ الخ) ومع ذلك هل هناك من يقول أو يظن أن لافونتين لم يضع كتابا أصيلاً؟ والنماذج الأخلاقية التي نسميها نماذج لابروير نشرها مؤلف بعنوان (نماذج تيوفراست) أخذ شكسبير موضوعات مسرحياته من بلوتارك، وجيرالدي سنتيو فهل من الواجب أن نعتقد أن لابروير نفس صغيرة، وأن شكسبير شاعر مسكين، الأمر واضح فما على الشعوب التي تريد أن تكون لنفسها ثقافة أصيلة، إلا أن تحذو حذو المؤلفات التي ظهرت في الثقافات القديمة الشهيرة، ولكن أليس هذا هو ما تفعله أمريكا اللاتينية منذ قرون، ثم أليس هذا هو عين الحكمة.

١٤

روح الخلط

لو أن الفوضى الأخلاقية التي نحن مضطرون إلى أن نعيش فيها لم تظهر كل يوم في عدد من الحودات المفجعة، لكان من الشيق أن نبحث عن أعراضها في بعض التغيرات والأمراض الوبائية التي تظهر في اللغة. وكل الناس متفقون على الاعتراف بأنه مادامت اللغة تعبر عن حركات الروح فإنها تعكس حتما محنها وعاهاتها ومواضع نقصها، وبعض تلك المحن بالنسبة إلى شعب ما خالدة، وهي إنسانية بحتة، بينما البعض الآخر وقتي، نسبة إلى ملابسات تاريخية، والرجل الذي يصغي بأذن منتبهة إلى مناقشات مواطنيه لا بد أن يسأل نفسه كل يوم عدة أسئلة يمكن أن نعثر لها على جواب بمساعدة المنطق مجتمعا إلى تلك الملكة البدهية التي نسميها باللفظ الفرنسي الصحيح: "العقل".

والنحويون ينعون منذ زمن ما انحلال صيغة الاستفهام واختفاءها، وهم يفسرون تلك الظاهرة بتفسيرات علمية لا توقفني طويلا، وإذا كانت صيغة الاستفهام قد اختفت فذلك على الأرجح لأن مرضا نفسيا قد سبب هذا الاختفاء، ولننظر أولا إلى الوقائع.

الاستفهام في اللغة الفرنسية الصحيحة تركيب خاص تختتمه في آخر الجملة علامته، والقارئ ليس بحاجة إلى أن يعدو إلى العلامة النهائية لينغم الجملة بالنغم المناسب. ومن الواضح أن رجل العامة في فرنسا يحتقر احتقارا صريحا هذا التركيب الضروري الدال، وأنا أسلم أن للكسل دخلا في هذا العيب وذلك الإهمال، فلكي ننطق (ماذا نقول) لا بد من نوع من الشجاعة الرياضية التي يحتفظ بها أغلب مواطنينا لمباريات البوكس أو السيارات أو الدراجات، وأسهل من هذا بكثير أن تقول (بتقول إيه) مع تلوين الصوت تلوينا استفهاميا خفيفاً، ولكني مع ذلك أعتقد أن الكسل لا يلعب في هذه المسألة الدور الأساسي، بل أن الداء لا شك أخطر وأخفى.

والغالبية العظمى من الأشخاص الذين يستخدمون الصيغة التقريرية أو صيغة

النفي بدلا من صيغة الاستفهام يظهروننا بذلك فيما أرى على رغبتهم في أن يخفوا جهلهم؛ فأنت تقدم مثلا نبيذا طيبا من بوروجونيا إلى شخص ليس من غواته بنوع خاص، ولكنه مع ذلك يحرص على ألا يظهر بظهر الغفل فيذوق السائل الثري مع كل التكشيرات المعهودة، ثم يجازف في هيئة مترفعة، ولكنها مفهومة بإحدى تلك الجمل:

- إنه من بورجيا؟
- إنه من بوردو؟
- إنه ليس من شاتونف؟

وقد نظم التنغيم في كل حالة بحيث يهيئ لكبرياء السائل ملجأ، وهكذا يستمر الحديث وفقا لعدة طرق:

- إنه من بورجونيا.
- نعم إنه من بورجونيا.
- وهذا بالضبط ما أحسست به.

أو.

- إنه من بوردو.
- لا. أنه من بورجونيا.
- طبعا– لقد توقعت ذلك.

أو.

- إنه ليس من شاتوف البابا.
- أو. لا.إنه من بورجونيا
- بكل تأكيد، إنه من بورجونيا.

وأما الرجل الذي لا يدعي أنه عالمي الاختصاص فيقول في تواضع

- ما هذا النبيذ؟

ولقد يضيف في بعض الأحوال:

- هل هو من بورجونيا؟

أو.

- أليس هو من بورجونيا؟

ولكنه من المفهوم بجلاء أن استعمال صيغة الاستفهام الصريحة أو المخففة معناه أن المتكلم يعترف بجهله ورغبته في المعرفة، ورجل القرن العشرين لا يكاد يعترف بجهله.

وهو من جهة أخرى يعرف أشياء أكثر مما يلزم ليظهر أقل رغبة في المعرفة، فهو بفضل الصحافة والتبسيط العلمي والأدبي، وبفضل الأفلام الثقافية ومحاضرات الراديو يعرف كل شيء، ويفضل في كل شيء، فما حاجته إذن لهذه الصيغة الاستفهامية التي تنم عن التفيقه في زعمه، والتي ليس من السهل النطق بها، كما يمكن اعتبارها أثرا من آثار عصور الظلام عندما كان جهل الناس بكل شيء يضطرهم إلى السؤال في غير خفر، عن كل شيء.

وليس هناك محل للشك في أننا على مقربة من ذلك الزمن الذي سنرى فيه رجل القرن العشرين وقد سمع سؤالا في صيغة الاستفهام الصحيحة يقول مشفقاً في صوت خافت: (هذا خطأ؟ طبعا لقد توقعت ذلك).

وتلك الروح، روح الغرور والفوضى والخلط تظهر أيضا في استعمال الكثير من التراكيب والألفاظ، وعدد من الكتاب يسرفون في استعمال بعض العبارات التي وان لم تكن بلا ريب خاطئة، إلا أنها تدل على نوع من فقد الاستعداد للتحديد الدقيق، فليس من الخطأ أن نكتب نوعا منه، ولكنه من القبح أن نكثر منه، ورجل الشارع لا يسرف في استعمال هذه العبارات فحسب، ولكنه يخطئ أيضا في استعمالها يقول

(نوعا من البله) والخطأ في اللغة من الصغائر المضحكات، والأخطر من ذلك بكثير فيما يلوح لي هو ذلك الداء العميق الذي يدفع إلى الإسراف في استعمال عبارة خاطئة كهذه، ولغة محكمة شهيرة سخية سخاء حقيقيا كاللغة الفرنسية تملك، فيما عدا استثناءات نادرة، لفظا دقيقا للعبارة على كل شيء يحدد تحديدا دقيقا.

وفي معظم الحالات التي يقول فيها المتكلم (نوعا من) يكون في ذلك اعتراف منه بالإهمال أو العجلة أو العجز عن العثور على الكلمة الدقيقة أو الخوف منها والرغبة في تخفيفها أو تحقيرها فهو ليس نوعا من الجبن، وإنما هو جبن. ورجل القرن العشرين يرهف من هذا العيب حتى لنراه في سبيل فقدان معاني الألفاظ، وهو لا يكتفي بأن يضعف تلك الألفاظ بل يتركها راضيا تهوي إلى النسيان، وهكذا تصبح كل الأشياء الموجودة في العالم (بتاعة شغل) وحاجة، وحتى الأشخاص قد اتحدوا فكل الرجال يسمون "بتاع" وكل النساء "بتاعة"، وفي هذا ما يلوح لي استعجالا مشئوما لخطى الزمن، ولا شك أن فرنسي القرن العشرين ينسى أن عمل الذكاء الأساسي وواجبه هو: أولا أن يحدد الأشياء، وثانيا أن يسميها بأسماء مميزة.

ونحن عندما نريد أن نحكم على إنسان وأن نتسقط أخلاقه نتبين بواعثه الخفية لا يكون لما يقوله من الأهمية قدر ما للطريقة التي يعبر بها. أنصت يوما إلى رجال أعمال يتحدثون، وكان لدي ما يحملني على الاعتقاد بأنهم يحاولون أن يخدع بعضهم البعض، وقد ظل ما يقولونه بغير دلالة تكشف عن نفوسهم، وإنما كانت الدلالة في طرق تعبيرهم، وهناك عدة طرق لترتيب الكلمات:

- أول مائة ألف فرنك كسبتها.
- المائة الأولى من آلاف الفرنكات التي كسبتها.
- المائة ألف فرنك التي كسبتها.

ولا شك ان خزينة الدولة توفق توفيقاً كبيرا لو أنها استخدمت في أبحاثها نحويين لهم بعض الدراية بعلم النفس، وبلا ريب لو استخدمت أيضا أطباء.

١٥

أخطاء الشهرة

كل الجزارين مرضى بالنقرس لأنهم يسرفون في أكل اللحم، على الأقل ذلك الذي لا يشتريه زبائنهم، ويذهب الكتاب الذين هم في الغالب صناع الشهرة ينفخون في بوقها، بنصيب وافر من تلك الوليمة النابحة، وإنه لمصدر للعجب أن نقارن مجد عالم شيخ، حتى عندما يكون مغطى بأمارات الشرف ومزينا بالأشرطة، بمجد روائي شاب نشر كتيبين جديدين يمثلان عمل ستة أشهر، وحظى بهما إحدى لجان التحكيم الأدبية، وإنه ليغضبني أحيانا أن أرى معاصرينا يجهلون، في استخفاف المنكر للجميل حتى أسماء شارل ريشيه وشارل نيكول وداستر ورينيه لريش، وليس في معرفتهم بأسماء أرفير وهيجيزيب مورو معرفة لا بأس بها، ما يعزيني إلا بعض العزاء. وإذا كان في عدم المساواة على هذا النحو ما يجري النفوس الخيرة فإني أود أن أقيم النظام، وربما العدل أيضاً، بأن أبوح ببعض الاعترافات.

شهرة الكتاب مشرقة متوثبة، ولكن ذلك لا يفيد أنها أكيد أمينة، لقد نشرت على الأقل خمسين مجلدا وأنا كل يوم في فرنسا وخارج فرنسا ألقى أشخاصا حسني النية، يقول لي أحدهم: (يا سيدي لقد قرأت كتبك) وأجيبه على الفور: (معنى هذا أنك قرأت منها أربعة، بل قد يكون اثنين وهذا فيما أرى قدر طيب)، وهكذا يبدأ الحديث.

الذاكرة ملكة يغبط عليها، والمربون المحدثون مخطئون خطأ كبيرا في إهمالها، على الأقل عند تلاميذهم، وعندما يأخذ القراء في الكلام عن كتبي اجدهم كما أعلم وأرى، مأخوذين بحماسة الأدب، ولكنهم لا يستخدمون دائما ذاكرة لا تلام، ولكم من مرة سمعت من يقول لي: لقد تذوقت بوجه خاص روايتك الجميلة، المتحضرون وأنا أمسك دائما عن مقاطعة مثل هذا الحديث. نعم إنني قد نشرت قديما كتابا باسم الحضارة، وأما المتحضرون فقد بنوا بحق مجد كلود فرير، والخطأ بعد جائز، فالمسألة مسألة مقاطع والمجاملة التي توجه تتناول في أغلب الأحيان (الصلبان الخشبية)، وفي

الخطأ دائما مصدر للحقيقة، فالصلبان الخشبية قد نشرت بين الشعب باسم (رولان دورجليس) ولقد نشرت أنا سنة ١٩١٧ كتابا عن الحرب بعنوان (حياة الشهداء) فعندما أهنأ من أجل الصلبان الخشبية أترجم ذلك إلى (حياة الشهداء) وبذا ولله الحمد يعود النظام إلى مكانه.

وأحيانا تكون المسألة أشق، كنت أتناول العشاء ذات مساء في الخارج عند أحد رجال السلك السياسي الذي لن أذكر طبعا اسمه، وإذا بربة البيت تصرح إلي فجأة في صوت رقيق: (يا سيدي لقد قرأت كل كتبك) والذي أفضله من بينها هو (حفلة رقص الكونت دورجوليس) وبعد لحظة تردد أقمت التسلسل على وجه لا بأس به (حياة الشهداء – الصلبان الخشبية – حفلة رقص الكونت دورجوليس) حسن، وأحيانا لا يتندر الخطأ في الألفاظ بل يغامر فيسلك السبيل إلى الموضوع.

في شهر يناير الماضي كان جاري على المائدة، في وليمة شبه رسمية، رجلا سياسيا شهيرا من بلد أجنبي، رأى من واجبه أن يقول لي: (يا سيدي، لقد قرأت كل كتبك، وأنا أحبها كلها طبعا) تحية بهزة رأس خفيفة، ولكن الذي أفضله من بينها هو (وكيل قضايا الهافر) معقول، لقد قضيت عدة سنوات أثناء الحرب في الهافر، وأضاف جاري في تنهد جملة أخرى تشبه (أتقدر) أوه لقد قدرت كل التقدير، وابتسمت في مرح، الكتاب المسمى (وكيل قضايا الهافر) لا دخل فيه للهافر. بينما كا نتحدث عن تلك الأخطاء فيما بيننا، نحن الكتاب والأصدقاء ذات مساء من العام الماضي في منزل أحد الإخوان أثناء سياحة، إذ جاءني من يخبرني أن شخصية سياسية كبيرة تريد أن أقدم إليها. وقد أجبت تلك الدعوة، وإذا برجل الدولة الذي وجدته في منتهى اللطف يقول بعد هنيهة: يا سيد.. لقد قرأت كل كتبك (انحناء راس خفيفة) والكتاب الذي أفضله هو المعنون (صلبان النار) ترجم حياة الشهداء الصلبان الخشبية صلبان النار.

وأنا إذ أذكر تلك الأشياء، أرجو مخلصا ألا يرى فيها أي ظل للسخرية أنه من الشاق أن نكون لطفاء، فالخطأ في كل مكان، الخطأ يهددنا ويفاجئنا من كل ناحية،

ولقد يحدث أن يخطئ الخطأ، وعندئذ تظهر الحقيقة، وإن يكن هذا استثناءً نادرا، ولكننا نعيش على المقاربات.

لقد حضرت مصادفة أثناء الحرب استجواب فرقة من المجندين، وهي لم تكن على التحقيق من زهرة الشبان، بل كانت مكونة من كل قادم، أخلاط من الناس جهموا من هنا وهناك في مشقة طبعا، ورأى الضابط أنه من الخير أن يؤدوا شيئا يشبه الامتحان فسألهم جميعا: من كان يحكم فرنسا عندما أعلنت حرب ١٨٧٠، فظل المساكين فاغري الأفواه حتى أصبح من الممكن أن يظن أن السؤال سيظل بغير جواب، وإذا بأكبر الإخوان سنا يقول في سرعة كبيرة وقد احمر وجهه: (بادنجيه) وبذا أنقذ التاريخ بعد أن ساورنا الخوف من أجله، وهكذا نرى أن للشهرة (مجيدة كانت أو ساخرة) حدودا نلقاها بكل سبيل.

وإنه ليسرني دائما أن أحيي إخطاء الخطأ، فمنذ بضع سنين قبل أن ألقى محاضرة قدمني إلى الجمهور أحد وزرائنا، ويجب أن أقول أنه أدى المهمة بإخلاص، وعندما انفضت الجموع قدمت لمقدمي شكرا خالصا قائلا: يا سيدي الوزير – ولم أفكر عندئذ في غير الوقائع – لقد كانت في العبارات الرقيقة التي تفضلت بإلقائها أخطاء قليلة جداً. وكنت أحسب أن في قولي هذا مدحا رائعا، ومع ذلك فهمت أن عبارتي لم تقدر كما حسبت، إننا لا نستطيع أن نرضي أحداً.

١٦

هواة الظلال

لقد رأيت جورج برنديس مرتين بين الأولى والثانية اثنتا عشر عاما، وفي المرتين تركت المقابلة في نفس ذكريات حية قوية مثيرة، ولست أستطيع أن أفكر في هذا دون أن أحس بضيق يكاد يكون بغضا، وإن انتهى الأمر كله بابتسامة، آه لقد مات الشيخ، وحان الحين لأن ننظر إلى صورته، ونشجبها بالحائط في غير ولع، ولكن أيضا في غير حقد.

وأنا أرجع أولى المقابلتين إلى شتاء ١٩١٢–١٩١٣ ولربما كان ذلك في سنة ١٩١٣، وباستطاعتي أن أبحث عن الخطابات وأؤرخ الحادثة تاريخا دقيقا لا فائدة فيه، وكل ما يجب أن نذكر لنلقي ضياء على الأوجه والنفوس هو أن ذلك كان قبل الحرب، وكنت إذ ذاك في الثامنة والعشرين من عمري، وكان أندريه أنتوان قد مثل في الأديون مسرحيتي الثانية (في ظلال التماثيل) وهي تعرض ابنا لرجل عبقري تلقي به عظمة أبيه إلى استرقاق لا يحتمل، وأثر موضوع هذا الكتاب في برنديس شارح ومؤرخ جيته، برنديس الذي طالما حلم، فيما أعتقد بمصير الطفل الذي كان لجيته من كرستين.

في تلك الأثناء جاء برنديس إلى باريس، وأبدى رغبته في أن يراني، وبالفعل إلى تناول الغذاء بواسطة مضيفة أندريه روفيير الرسام اللاذع الذي كانت لي به علاقات ودية مازلت أغتبط بقيامها حتى اليوم، ولم تعدم تلك المقابلة أن تهزني مقدما، كان برنديس في نظري من أكثر النفوس تفتحا في أوربا، نفس بلا شك خالقة، ولكنها ناقدة في قوة، باحثة إلى حد الإعجاز، رجل خالط إبسن وتولستوي، وجاب في توثب عالم النفس، جابه بذلك الذكاء اليهودي النهم الذي يلقف كل شيء في ثناياه البعيدة الغور.

بينما كنت أسير نحو شارع سوفلو تذكرت اعترافات الرجل الطيب فرهيرن وذهوله عندما استقبله يوما أمتع ما كان في ألمانيا إذ ذاك من مفكرين، وكان من سذاجته أن أدلى بملاحظة ودية، رغم كل شيء عما كان يسميه (مسألة اليهود) وإذا ببرنديس يستجوبه في تلك الألفاظ المفاجئة (وهل لم تلاحظ بعد، أيها الفير هيرن أنك هنا الوحيد الذي ليس يهودياً).

وإذا فقد مازج الانفعال والقلق ما كان بنفسي كشاب في ذلك اليوم، من حب الاستطلاع وكان برنديس قد ناهز فيما أظن السبعين، فتوقعت أن ألقى شيخاً، وكان روفيير قد ثبت في نفسي هذا الظن إذ أخبرني برنديس يتعب بسرعة، وأنه يفضل لذلك الغذاء على العشاء.

وبالرغم من أنني لم أكن بعد قادرا على تمييز دقائق السن، فإن برنديس أدهشني عندما رأيته، لم يكن طويل القامة، ولكنه كان معتدلها، وكان نشيطا في كل حركاته، وكان شعره ولحيته وما إليها لم يكد يخطها الشيب، وأما عيناه فكانتا دائبتي الحركة، أجلسني، ثم أخذ يلقي علي ألف سؤال، وسأعود إلى هذه الأسئلة، ولكن ثمة إحدى التفاصيل الصغيرة، لقد كان حاضرا معنا، أعني مضيفنا، وبرنديس وأنا في تلك الوجبة الصغيرة المحدودة، بول فور أيضا. والرجال المشهورون لا يمكن أن يكونوا إلى حد ما ثرثارين، وكيف لا يثرثرون مع كل أولئك الأشخاص الذين يمدون آذانهم كالوطاب.

وفي الحق أن ثرثرة برنديس حيرت لبي حيرة تامة، فهي لم تكن ذلك الحديث الجليل الذي ينفرد به دون الحضور بعض الأساتذة، ولا تلك الأسهم النارية اللبقة التي يرسلها المختصون بالنكات، ولا تلك الغمزات والدعابات والمراوغات والردود التي يتقنها محترفو اللباقة، وإنما كانت أقاويل تدب كالنمل، ولا يشبع لها نهم.

كانت كمهاترة البوابات من النساء اللاتي يعملن عند الطبقة الراقية، تراهن يلكن بألسنتهن كل ما دق وأحرج (هل رأيت مدام دي س، إنها جميلة فيما يقولون، هل تنام مع المسيو س، أما تعلم هذا حقا هل تتردد على مدام، لقد حدثت أنها لا تكره صغار الشبان، ولكن زوجها يسرقهم منها، إني لا أكاد أصدق ذلك، أتصدقه أنت، وظننت أول الأمر بعد هذا الامتحان، وذلك أنني أحسست إحساسا منفرا بأني أجتاز امتحانا، وأنني غير موفق في اجتيازه، ظننت أن الشيخ سيهم فجأة بحركة يطرد بها هذه الأشباح التافهة. وأنه سيستسلم لذكرياته إلى شياطينه العظيمة إلى أفكاره الكثيرة؛ فيخطط فلسفة الفن أو صورة لروسيا المفكرة، أو تاريخا للقرن التاسع عشر.

ولكن أبدا أبدا، لقد كانت كل هذه أحلام طفل، فشيخنا المجيد لم يحرك حصى، بل ترابا، واستمر بعين حادة، وصوت ملح ينقب عن الفضائح: (يقولون أن س الشاب يتناول المخدرات هل ترددت على ح التردد الكافي لتستطيع أن تكون رأيا ثابتا عن ميوله، لا، طبعا.

واستمر الحديث ثلاث ساعات تركني بعدها كسيحا، وبعد ذلك بعدة أيام أرسل إلي برنديس عند مغادرته لفرنسا ورقة غامضة، إذ كان قد أحس بما أصابني من ضيق فحاول في خبث أن يلقي تبعة اتجاه الحديث على بول فور، ولكني أسارع فأقول أن هذا من وجهة نظر المؤرخ لا يمكن أن يُقبل أو يُبرر.

وأتت الحرب فلم أجد مشقة في أن أترك صورة برنديس تهوي إلى النسيان، وإن كنت قد أخذت في حمل نفسي إذ ذاك على الاعتقاد بأنها صورة غير ناجحة أُخذت صدفة واتفاقا. ولم تؤثر في نفسي بخير ولا شر منازعات برنديس مع كليمنصو، فبرنديس لا يدين بمجده لفرنسا، ومن ثم كان من سوء التقدير أن نلومه على اعترافه بالجميل لألمانيا، أتت الحرب إذن ثم مرت، وفي سنة ١٩٢٥ بينما كنت في كوبنهاجن علمت أن برنديس يريد أن يراني، وأن أحد أصدقائه يوجه إلى دعوة لهذا الغرض، وكانت الدعوة للعشاء، وكنت قد نسيت تقريبا المقابلة الأولى، وكان برنديس قد وصل على الأرجح إلى سن جيته وهيجو، وسرت إلى هذه المقابلة الجديدة بإدراك أنضج، وإن كان حب استطلاعي وتفتح نفسي لم يتغيرا، لقد هزت العالم أحداث كبيرة، وفي هذا موضوع جميل لحديث شاهد شيخ رأي الجماعات والقرون.

لن أنسى قط هيئة برنديس عندما دخل في ذلك المساء، دخل متقلصا أحمر الجلد، أبيض الشعر، ودمعة برد تقطر من جفنه، وكان لا يزال جميل المنظر، قال وهو يتجسس بعينه وإصبعه (أين إذن ديهاميل) فتقدمت وأجلسني إلى جواره على كنبة، لقد كنت منفعلا ولست أدري أي أقوال جليلة كنت أنتظر.

وفي الحال عاودت الصوت العجوز حرارته ليأخذ في تلك الثرثرة التي لا تنقضي: هل تعرف مدام ز؟.. لا يا للخسارة، إنها سيدة مدهشة، كنا نلقى عندها الكونت دلاي م.. لم تره قط؟ هل هذا ممكن؟

لقد كنت أعرف هذا النطع الشهير الذي عناه المعرفة الكافية، الأكثر من الكافية ولكني أجبت كاظما شفتي: لا لست أعرفه، وكان الشيخ قد استأنف هل

تتردد عند ج ربة المنزل سيدة مدهشة جداً. ولم لا تذهب عندهم، هناك تستطيع أن تسمع خير الأحاديث التي يمكن أن تعثر بها في باريس، اللهم إلا أن نستثني صالون مدام دي س. طبعا أنت تذهب إليه، لا، هلا تعرف مدام دي س...

نفضت رأسي في غيظ، ولو أن برنديس سألني عند هذه المرحلة من الحديث هل أعرف أمي لأجبته على نفس النحو نافضا رأس، وقائلاً: لا..

واستمر رجلنا ساعتين أو ثلاثا في هذا الهرف الممتع الذي كان بروست يستطيع فيما أظن أن يتخذ منه مقصفاً، وأخيراً قال في صوت كالشبح وهو يجفف جفنه: إذن أنت لا تعرف أحداً. وكنت قد تجمعت، وتأهبت لأن أعض ولكني أحترم الشيوخ، حتى ولو كانوا جليلي التفاهة، نفضت رأسي وأجبت (لا أحد، لا، لا شيء).

وبعد ذلك بعدة أشهر انطفأ برنديس، وأنا أفكر فيه أحيانا وفي المساء، بعد يوم عزله، صائد الظلال، آه، جامع الضباب.

١٧

الأسماء

منذ بضع سنين خطر لأحد زملائي أن يسمي أحد أشخاص رواية له (ديهاميل) ولقد دهشت في أول الأمر، فزميلنا لم يكن يستطيعه أن يزعم أنه يجهل وجودي، وقد كان يعد إذ ذاك، أو كان قد نشر بالفعل، كتابا صغيرا في النقد عن كتبي وعني، وكانت بيننا علاقات طيبة ودية، دهشت إذن ولا شيء أكثر من ذلك، وعند التفكير انمحت دهشتي، ومع هذا لكي لا أترك لتلك الدهشة أية حجة للعودة، فيما لو جعل رفيقنا الشاب (ديهاميل) شخصية منفرة مثلا، امتنعت عن أن اقرأ من الكتاب غير الصفحات الأولى، وهكذا بعيدا عن كل انفعال احتفظت بالمزاج الخفيف الذي نرجو أن يظهر في خصومات الأسماء.

اسمي اسم فرنسي قديم ظل محتفظا بصيغته دون تغيير منذ القرون الوسطى، وهو

من أسماء شمالي فرنسا، وهم يسمون في الجهات الأخرى ديبور، ديما، ديمازير، ديميزون، وما يشبه ذلك، ولو أنك ناديت ألف فرنسي لتقدم منهم على الأقل واحد ديهاميل، ونحن فيما أظن أربعة أو خمسة بدائرة معارف لاروس، ولربما كنا مائة أو أكثر في دفتر باريس.

وإن كنت لم أبحث فيه، ومن اسمهم اسمي كثيرون، وكلهم فيما أعلم لطفاء وأحيانا بالغو الظرف، وأحدهم يستلم خطأ جانبا كبيرا من مراسلاتي، ويحيلها إلي منذ سنين في صبر يستحق الثناء بحيث لا أدري بأي لسان أشكره، وهو أحيانا يرد إل ثانية خطاباتي إليه، ولكنه مع ذلك مشكور. وهذا الاسم البسيط الدال يمكن أن يسارع إلى خاطر روائي أو مؤلف مسرحي ولا يكون في ذلك إلا أمر طبيعي جداً، ولقد ورد أثناء الحديث في الغربان لبك ذكر رجل من رجال الأعمال مشكوك في سلوكه كان يسمى (ديهاميل)، وأقول (كان يسمى) لأنه منذ أن مثلت تلك المسرحية بدار موليير عرضت لممثلين تلك الفكرة اللطيفة، وذلك من تلقاء أنفسهم تماما، فكرة أن يجنبوني هذا الفصل، وذلك بأن غيروا اسم الرجل، وهم محقون فيما رأوه، ما دام الأمر لا يتعلق بشخصية أساسية في الدراما بل بكلمة تقذف عرضاً.

والاسم يمكن أن يعتبر في بعض الملابسات رغم انتشاره لا أقول محتكرا بل موجها وملونا أو إذا أردت مضاء بشخص حي، وهو بذلك يفلت من عموميته الإنسانية ومن عدم تخصصه الطبعي – إن جاز لي أن أقول ذلك – وهل لي كي أنقي حكمي أن أحمل الخصومة بعيدا عني، فاسم كلوديل مثلا محمل بمعنى من الوضوح والإشراق، بحيث لا يكون من الحكمة بصرف النظر عن الجهل أو انعدام اللياقة أن نسمي بهذا الاسم الفرنسي القديم إحدى شخصيات مسرحية أو رواية، وإلا كنا عرضة لأن نثني من انتباه القارئ، وأن نثير في نفسه أصداء آمرة يشق الخلاص منها.

وإذن فكل ما على القصاص اليقظ هو أن يميل بشخصيته الروائية منذ البدء إلى تغيير اسمها، وأنا أسلم أن هذا ليس بالأمر الهين، إذ أننا لا ننال من أبطال الروايات

إلا ما يتفضلون بقبوله. ولهذا كتبت في حذر (يميل بشخصيته)، إذ لا بد من الإغراء.

سألني ذات مرة سائل متطفل، رباه، إنهم جميعا كذلك، كيف أختار أسماء شخصياتي فأجبته في نفس واحد (هه، أنا لا أختار لهم أسماء وإنما هم الذين يظهرون ويسمون أنفسهم) وأنا أسلم بأن بعضهم يتباطأ طويلا على نحو ما يفعلون في الحياة تماما، فهذا الشاب الذي ألمحه كل عام عند أصدقاء لي لست أعرف اسمه بعد، وهو يعرفني وأعرفه جيداً، ونحن نتحادث بكل سرور، ألم يقدم إلي؟ أكنت مذهلا؟ أنسيت؟.. لا علينا من ذلك.

سأسأله عن اسمه في المرة القادمة إذا تذكرت أو إذا راق لي، أو إذا أحسست بأقل حاجة إلى ذلك، وهكذا الأمر في عالم الأحلام؛ فنحن نكتشف أولا شخصياتنا ونمسك بها، ثم يأتي يوم يعلنون اسمهم، أو يتمتمون به، وهذا الاسم ليس لنا نحن إلا أن نأخذه، وهو يدهشنا أحيانا، ويحزننا أحيانا أخرى، كما يحدث أن يملأنا غبطة، بل لربما قلنا في سخرية كما قال هيجو (لم أكن آمل كل ذلك).

وتغيير اسم بطل عمل خطر يمكن ألا ينجح، أعني أن يتخذ اتجاها مخطئا، وأن يفسد حركة مخلوقاتنا، وسير قصتنا، وأنا أذكر كتابا قيما جيد الأسلوب جيد التأليف غير اسم الشخصية الأساسية فيه، بلا شك عن آخر لحظة عند تصحيح الغلطات المطبعية النهائية، وقد تمت هذه العملية التعسة في عجلة مسرفة أو على الأصح بغير إتقان، وقد أفلت الاسم الأول من المصحح، فظل يحملق هنا وهناك على نحو غير مفهوم في ثنايا الحكاية. ونتج عن ذلك إحساس لدى القارئ بالضيق والخداع وعدم الاطمئنان، وبخاصة بعدم التمشي مع المعقول، وحياة مخلوقات الخيال كثيرا ما تعدو في عمقها الروحي حياة الكائنات الحية لحماً ودماً، ولكن ذلك يرجع إلى سحر تلك القوانين الخفية القاسية التي لا يمكن تخطيها، غلطة صغيرة من هذا النوع، وإذا بالأشباح تتبدد بخاراً.

لقد أبديت في إحدى الصفحات السابقة أسفي لرؤية القضاة يستمعون إلى

أولئك المشاكسين المسعورين، الذين يرون أنفسهم، بوحي الغريزة في كل صورة هزلية، وأنا أخشى أن نرى الخصومات حول الأسماء تذهب هي الأخرى أكثر مما يجب إلى المحاكم التي ستحسن صنعا برفضها دعاوى الشاكين.

وقد نزل الكتاب على مقتضيات الواقعية الدقيقة فعدلوا عن أن يعطوا شخصياتهم أسماء وهمية بحتة، فمن النبو عن الزمن ومن التفيقه إلى حد بعيد أن يسموا أبطالهم اليوم، بينما تمر حوادث القصة أمام برج إيفيل بين مونمرتر ومونوروج، وإذن فأسماء حية تنبعث كالصيحات من الجمهور الفطري، أسماء حقيقية تنتزع من تاريخ الشعب نفسه ومن اللغة. وفي ذلك يسر وانطلاق وحرية واسعة قاسطة لا تبغي أذى لأحد، ولا يمكن أن تنال من أحد، وأما إذا رمى الفنان – وهنا أعود إلى نقطة البدء – إلى أن يسمي شخصياته بـ هونيجير أو هريو أو جيرودو فإنه يخطئ ويسلم نفسه فريسة إلى السخرية ويفسد كتابه، ولكن لنترك الحكم على أي حال إلى الرأي العام.

وهناك فيما أظن اثنان اسمهما جوريو في دفتر التليفون.. نعم اثنان، وواحد اسمه راكان، واثنان جرانديه ودسته فوترات، وستة أو سبعة برجريه، وربع المائة من بونس وبلا من بيكوشيه ثمانية بوفار تقريباً، فهل من الضروري أن نعطي هؤلاء الأشخاص المحترمين شهادة بعدم المبالاة والتسامح والتسليم لأنهم لم يضرموا بعد النار بموافقة القضاة في أمجد صفوف مكتبتنا.

١٨

أسرار المواهب

الكلمات متاع شعب بأكمله، وكنزه الواثق منه غير المنازع فيه، ليأخذها من يريد، ليستخدمها كل من يجرؤ على ذلك، فهي دائما في المتناول، مثل ذلك الهواء الذي تحتاج إليه الكلمات لتجري فيها حياة الأنغام. يأخذ الرجل الكلمة وإذا بها ملك له، بعد كانت للجميع، فبطريقة نطقه وتحركات عضلاته، وبحجم أنفاسه ونسبة

تصريفه لها، وبرنة صوته وتنغيمه، بل وبالظواهر الإضافية من تغييرات وجهة إلى دلالة عينية إلى حركة يده وأعضائه وجسمه كله، بكل هذه الوسائل يضع الإنسان طابعه الخاص على الكلمة التي يفوه بها، طابعه الذي ينم عن عاداته وشهياته، وشهواته ومواضع نقصه وندمه وآلامه.

يقول نبيذ – على بساطه الكلمة – فندرك جميعا هل هو يحب النبيذ أن يخشاه، وهل هو في عطش أم روي، وهل هو من الخبراء فيه أم الدخلاء عليه؟ ويقول حب؛ فيقلقنا بنطقه لهذا المقطع أو يؤثر فينا أو يثيرنا أو يحملنا على الابتسام، وبذا تصبح الكلمة التي هي للجميع كلمة شخص واحد ومتاعه وإمارته وملكه.

يلوح أن الطباعة تجرد الكلمات من تلك الصفة العارضة الخاصة وترجعها إلى معناها الخالد العام، يلوح ذلك، ولكنه غير مقطوع به، فعند القارئ المرهف تغير الكلمة من نبرتها وصداها وتقريبا من معناها حسبما يكون من استخدمها شاعرا أو ناثراً، أستاذا أو صبيا خجولا، أو شخصا عنيفا، رقيقا أو قاسيا.

ولمزايا الأسلوب دخل في الموضوع، ولكنها ليست الوحيدة في هذا الصدد، وأنا أستطيع أن أعدد الكتاب الذين يملكون أن يجعلوني أشعر بالجوع، فلقد يتحدث بعضهم عن كل أنواع الطعام والولائم، ولقد يصفون الصيد واللحوم والمفرومات والفواكه ذات العصير والصلصات ذات النكهة، ولكنهم لا يملكون إلا في النادر موهبة تحريك أعصاب معدتي وإثارة غددها.

وعلى العكس من ذلك ديكنز، فهو مدهش في هذه المسألة يكتب وجبة متواضعة ومع ذلك لست أدري ماذا يعمل لكي يسيل لعابي، فهو ليس بحاجة إلى أي احتيال، إنه يملك الموهبة، فالكلمات حتى ولو بردت بالترجمة أو الطباعة لها عنده طعم مغر، يكتب: جمبون وبيرة وتوست ولا شيء غير هذا، ومع ذلك يلوح ممتعاً، ونفس الكلمات يكتبها كاتب عبوس سقيم الصحة فأعاف الطعام.

وكوليت التي كان لي سرور الغداء والعشاء معها مرات كثيرة لم تبد لي أكولة

بوجه خاص، إنها تقدر الأشياء الطيبة تأخذ منها وتلحظها عن بينة، وهي عندما تذكر أمامي اسم المأكولات لا تحرك خيالي تحريكا غير عادي، ولكنها تكتب أقل ما يمكن من الألفاظ التي يستدعيها المقام: خبز أبيض طماطم وثوم وزيت زيتون، وها هي شهيتي قد حضرت، حقا أن هذا أمر لا يفهم، ولكنه أمر لا شك فيه، فالكلمة الواحدة يطبعها جيرودو، وتطبعها كوليت ومع ذلك لا يكون لها عندهما نفس الطعم حتى لكأنها قد غيرت صلصتها الحسية هبة وهبة متعددة المظاهر.

والعربدة لا يستطيعها كل من يريد، إذ لا بد من طبع وبوجه خاص من براءة، وخير من ذلك من سذاجة، يقولون لقد لاقى أونيزيم أكبر نجاح في سوق الحسان، لم يكن يظهر حتى تخر النساء على الركبتين، لقد كان حقيقيا، ولا يزال شبه أخصائي بارع بهلوان، وهو يكتب في ذلك بكل ارتياح وبقلم مسرف الحرية ولكن كتبه لا تأثير لها، على الأقل بالنسبة لهذا الباب. فهو خليق بأن يحمل اليافعين على التثاؤب رغم ما بهم من ظمأ إلى الحب، كما يحمل الشيوخ المسرفين، وكلمات الاستهتار عندما تمر بقلمه تفقد كل لونها وكل تموجاتها لن يكون أونيزيم إلا مؤلفا مملا ومستهترا فاترا.

إيزيب ذو موهبة كبيرة فهو كاتب ممتاز، وقد قرر في يوم ما أن يكون شاعر الحب الكبير، وهو يقصد الى الحب الجسمي، ومن فوره أخذ في العمل فهو يقيم تمثالا شهوانيا لآلهة اللذة الحسية. صوره مشكوفة وفنه مرهف، ولكن من عجب أنها لا تحرك أحداً، فهي تعليمية مدهشة البرودة، إنها فلسفة الحب المدرسية، حتى لنحسب أننا نقرأ كتابا للتلاميذ ومن وضع مستهتر ممتاز، أو أحيانا موجزا في الغرام للتعليم العالي، ولكن الأيم الشابة التي يتفق لها أن تقرا كتبه المقلقة تنتهي بأن تنام نوما هادئا لا حلم فيه، لا لا ليس حسيا من يريد.

وعلى العكس من ذلك بوفارى الشهيرة فتهتكها مخيف إن أشرطة صدريتها ستصفر زمنا طويلا في آذان القضاة الشهوانيين. وبلزاك بإشارات قليلة يحرك خيال فينس بأكملها في الحق أن هذا لأكثر مما يجب ديان دي موفرينيز تلبس في سرعة،

ولكن القارئ يلمح في ثانية جسمها الأبيض خلال ضباب صاف من التيل، وتربط السيدة ثدييها بصدريتها المرتجلة التي تشجب من الأمام، وأميليه كميزو التي تعينها على شد جواربها تقبل بغتة ركبتها في دفعة حماسية، الصورة هروب متقنة ولكنها أبلغ في الدلالة من موسوعة علمية في شهوات الحب.

الموهبة وحدها هي التي تعطي الألفاظ قوتها الحية ومعناها والمواهب أسرار غامضة، فمورياك يستطيع إذا أراد أن يصف إلى حد الإعجاز الشمس المحرقة في جاسكونيا مسقط رأسه، وهي شمس مخيفة، وما نكاد نلمحها حتى نحس لفورنا بعرق عاصف يتساقط لؤلؤا على عارضيه، وفي الحق أنها لشمس لهفة تشرق لتضئ الهوات ولتظهرنا على بؤسنا، وعبثا يكتب موريك (كان الجو صحوا) فإنني أحس بروائح الصنوبر وعطور البراري والزنابق، ولكني أشعر بأن أنفاسي لا تزال مختنقة، فزرقة السماء مضطربة مؤلمة، وماذا يستطيع ضوء النهار ضد ظلمات الإنسان؟.

وهكذا ندأب وقد تحكمت فينا مواهبنا التي إذا حاولنا أن نعبث بها ونخضعها ونقهرها لم تلبث أن تفتقر، وإذا قبلناها في غير جدل أصبحنا لها عبيدا، وأما القواعد فليس ثمة إلا تلك القاعدة الريفية: (لا تحاول قط أن تظهر بمظهر من لا تستطيع أن تكونه)، وليست هذه الحكمة – رغم ما يبدو– بالنصيحة السهلة الاتباع.

مذكرات في فن القصص

لا يجد النقاد حرجا في أن يحصوا اثنتي عشر نوعا من أنواع الأدب الروائي، ولكني في الحق لا أرى غير اثنين: الرواية التي تنسينا حياتنا، والرواية التي تثير لنا تلك الحياة وتساعدنا على فهمها، وما أريد أن أجازف فأفضل إحداهما على الأخرى، فدومنيك رواية جميلة ونموذج شهير، ولكن جزيرة الكنز هي الأخرى كتاب رائع يستحق أن يتخذ مكانه في كل مكتبة.

لو جاز أن نصدق فقهاء اللغة لانطبقت الصفة (روائي) على ما يمكن أن يرد بالروايات من أشخاص أو أحداث توصف لذلك بأنها وهمية خارقة، وكذلك الأمر لو استعملت هذه الكلمة اسما فقلنا (الروائية) إذ تفيد عندئذ معنى مماثلاً.

ولما كانت الرواية قد حلت في تقدير الشعب محل الملحة، فإنها تقصد إلى أن تشبع لدى القارئ حاجة طبيعية ملحة، هي الحاجة إلى خوارق الأمور. وعلى هذا التحديد يلوح أن كلمة روائية لا تتفق في غير مشقة مع كلمة مألوف إذ كيف يمكن أن يصبح المألوف خارقاً، ومع ذلك فتلك هي المعجزة، فما في المألوف من روائية لا يلبث أن يرينا كيف يصبح العادي خارقا والحادث اليومي شاذا.

والإنسان بحاجة إلى من يسليه، إلى من يصرفه عن نفسه بالمعنى الذي يقصد إليه باسكال، وذلك بأن يقص عليه أو يعرض حوادث تستطيع أن تسترعي انتباهه فتستهوي لبه وتلهمه النسيان، أي تثمله، وعلى إشباع تلك الحاجة توفرت تباعا الملاحم والمسرحيات والروايات، ثم السينما في أيامنا هذه.

وفي الشرق لم تمت الملاحم، إذ لا تزال تلعب هنالك نفس الدور الذي كان يلعبه هوميروس عند اليونان، وهي تعتمد لكي تثير الاهتمام وتسحر الأفئدة، على الموسيقى ووقع الأوزان، كما تتخذ من حكاية الحوادث الخارقة مادة لها مما يدهش أبطأ الأخيلة وأضيقها أفقاً.

وعلى هذا النحو كانت الرواية عند نشأتها، فمثلا روايات الفروسية التي حطم عليها (ميشيل دي سرفنتيس) أكثر من رمح، كانت قصصا لحوادث خارقة كثيرا ما كانت معجزة بطبيعتها. وحوش وعمالقة وسحرة، تلك كانت عادة أشخاص تلك القصائد الروائية التي كان يلتمس فيها القارئ سلوى خالصة، والتي لم يكن مؤلفوها يحرصون في كتابتها أقل حرص على أن يضيفوا شيئا جديدا إلى معرفتنا بالنفس الإنسانية، ورغم الثورة التي أحدثها الأدب الواقعي لا يزال هذا التقليد الأدبي قائما إلى اليوم، لا في أدب الأطفال فحسب، بل في طائفة كبيرة من الروايات التي تقص خوارق الحوادث.

فروايات المغامرات التي اشتهر فيها أكثر من كاتب مجيد، والروايات التاريخية وروايات البطولة ذات القوس والروح، والروايات التي تتنبأ بالمستقبل على نحو ما كتب (جول فرن) كلها وليدة لذلك النوع القديم من روايات الخوارق واستمرارا له. وهذا التقليد الأدبي لم يمح وإن كانت الروايات الواقعية وما أصابت من نجاح قد أضعفت من قوته، ولقد ملأت تلك الروايات القرن التاسع عشر، حتى لتمثل في تاريخ الآداب الواقعية.

ولولا الإسراف في تلك الواقعية لاطرد نجاحها إلى غير حد، فإن بعض الغلاة لكي يضمنوا انتباه القارئ ويشبعوا لذاته، قد رأوا أنه لا غنى لهم عن أن يستبدلوا بما عهدت الروايات القديمة من حوادث خارقة وأمور معجزة وسحرة وبطولة وفروسية، ما نحمل الحياة الواقعية من غرائب الأمور بل مخيفها يغلون في وصفه، وهنا نلمس عنف (الطبيعيين) ووحشية كتاباتهم وجموح عباراتهم، وتلك تجارب لم تنته بعد، وما

أعرض لهذا بقدح وقد أفدنا منها الكثير، وعن كل تلك المحاولات ضد قصص المألوف إذ أيقن القصصيون أنه ليس من الضروري لكي نثير انتباه القارئ ونحتفظ به أن نلجأ إلى إدخال السحرة والساحرات في الرواية.

فإن تصوير الواقع كفيل بأن يأسر القارئ، كما أنه من الممكن بل من الواجب أن نتجنب ذلك النوع الجديد من اللا واقعية الذي ولدته وحشية المذهب الطبيعي، وقد فطنا إلى أن المهم هو أن ندرك ما نراه كل يوم دون أن نلقي إليه بالا، ومنه يتكون نسيج حياتنا اليومية العجيبة لو تأملنا، ونحن بذلك نضيف إلى معرفتنا بالإنسان وتصورنا له أشياء جوهرية، ولبيان كل ما أقصد إليه اقترحت استعمال العبارة المتواضعة الدقيقة عبارة (روائية المألوف).

ولقد حل هذا الفن (فن قصص المألوف) الكثير من معضلاته كما حدد مناهجه بفضل ما أفاد من محاولات الروايات الواقعية والطبيعية؛ فأثر البيئة الذي تحكم خلال نصف قرن في أدبنا الروائي قد احتفظ بقيمته، ولكنها أصبحت قيمة نسبية إذ تغير فن القصص تغيرا كثيراً، فانصرف الروائي الحديث عن ذلك الوصف الطويل الذي كان يملأ أربعين صفحة عند من سبقنا ومن تتلمذنا له من أساتذة هذا الفن الذين كانوا يؤمنون بضرورة هذا الإسهاب في الوصف.

كذلك لا ينكر أحد أهمية فكرة الوراثة التي اعتقد الطبيعيون أنهم قد اكتشفوها فعلت بالحديث عنها أصواتهم، فهي إلى اليوم لا تزال تسيطر على ما نكتب، ولكن دون أن نثقله، ولا أدل على إسراف مذهب (الطبيعيين) في فن القصص من أنني لا أعرف عن أصدقائي وأبنائي وزوجي، بل وعن نفسى من أمر الوراثة العضوية قدر ما يرى هؤلاء الكتاب ضرورة لجمعه عن أقل أشخاص رواياتهم شأنا.

في الرواية الحديثة لا بد من الاعتدال حتى تتزن وتتعادل العناصر التي تتكون منها. وأخيرا لا بد للروائي الحديث ليتمكن من فنه من أن يعرض في إلحاح وصلابة لتلك المشكلة القديمة المحيرة، مشكلة الموضوع. كلمة موضوع من تلك الكلمات

العديدة التي تحتمل في اللغة الفرنسية معان مختلفة، وإنه لمن الشاق أن نحدد معاني أمثال تلك الألفاظ، فمعانيها الاشتقاقية في أغلب الأحيان ضيقة للغاية إذ أنها تدل على الكثير، ولكن كثيرها قليل، ومع ذلك عندما نتحدث عن موضوع قطعة موسيقية أو لوحة زيتية أو تمثال منحو أو قصيدة من الشعر، ندرك على وجه التحديد معنى هذا اللفظ، ولكن كم من مرة نتحدث عن موضوع أوبرا أو قصيدة أو صورة حتى إذا حاولنا الوصول إلى تعريفه تعريفا دقيقا اصطدمنا بصعوبات لا يكفي لحلها أن نقول أن كلمة موضوع ترادف كلمة الغرض إذ لا يمكن لإحداهما أن تحل محل الأخرى، وكذلك الأمر لو استبدلنا بها كلمة موضوع البحث، أو الباعث، واللفظ الأخير بنوع خاص لا يمكن أن يستعمل عند الحديث عن المجسمات والأوضاع كما هو الحال في فني النحت والتصوير.

ونحن بعد لا نستطيع أن نستعمل لفظ موضوعه إلا على حذر فاغتصاب السابينيات لوحة لها موضوع، بينما صورة (مدام شلجران) لا موضوع لها، فقد اتخذ المصور أنموذجا لصورته، ولكنه لم يعن بما نسميه موضوعا، وعلى العكس من ذلك نجد أن (لصبى الساحر) لـ (بول ديكاس) موضوعا كما أن (للسمفونية الريفية) موضوعا بينما (كونسرتو باخ) المكتوب لتعزفه كمانان لا موضوع له.

وأما (لوكون) وهيجولان فتستطيع كل الفنون أن تتخذ منها موضوعا، ومناظر الطبيعة التي يصورها شردان هي دائما لوحات لا موضوع لها. ولذلك أسمى موضوعنا الحادث التاريخي أو الأسطورة أو الفكرة الفلسفية أو القصة الحقيقية، بل وأحيانا أي مجموعة من عناصر قصصية متباينة يمكن أن تتخذ أساسا أو محركا لعمل فني، فالموضوع إذن كما يدل عليه معنى اللفظ الاشتقاقي هي ما يرقد تحت المظاهر، هو الحقيقة الجوهرية التي تحدد الأوضاع الخارجية وتنظمها.

والموضوع لا غنى عنه في بعض المؤلفات الأدبية، وهو مقبول في البعض الآخر، ولكن هنالك من المؤلفات ما يجب عليها أن نتجنبه، فالأقصوصة الفلسفية لا بد لها

من موضوع يتخذ أحيانا شكل المغزى، والقصة قد تكون أحيانا لوحة، وأحيانا صورة شخص، كما قد تكون كتابا ذا موضوع، والقصيدة يمكن أن يكون لها موضوع وإن كانت تشقى في بعض الأحيان.

وأما الرواية الحقة فأمر الموضوع فيها أمر عسير لعل من الخير أن نلقي عليه فيضا من الضياء، فالكثير من الحكايات الرائعة نحس أنها قد صدرت عن فكرة لمحها الروائي فساق حكايته ليستغلها بكل ما تحمل من نتائج بعيدة. فرواية (جلد الأحزان) لنموذج لهذا النوع، والكل يعلم موضوع هذا الكتاب، رجل يملك جلد أحزان علقت به قوة سحرية تمكنه من تحقيق كل ما تحس نفسه من رغبات، ولكن الجلد أخذ يتقلص إلى أن استنفد مالكه كل رغباته فاستنفد حياته، مغزى تلك الحكاية ظاهر لا يحتاج إلى إيضاح، وهل نحن بحاجة إلى أن نضيف أن (جلد الأحزان) هي في الواقع أقصوصة فلسفية اكثر منها رواية بمعنى الكلمة، لقد كانت لبلزاك عبقرية من القوة بحيث تستطيع أن تلهو بكل شيء.

(وصورة دوريان جراي) من هذا النوع، ولنلخص في كلمات ما أذكر عن موضوعها، رسم مصور صورة لشاب جميل أغدقت عليه كل المواهب، وارتكب الشاب أخطاء وخطايا، ولكنه ظل محتفظا بجماله الخارق، بينما أخذت تظهر على الصورة التي أخفاها بإحكام أمارات القبح والضعف الواحدة تلو الأخرى كلما ارتكب الشاب إثما من الآثام، وامتد به العمر على تلك الحال حتى كان يوم ثارت فيه ثائرته، فانقض على الصورة يبغي تحطيمها ليفلت من قسوتها، وإذا به يخر صعقا، فرفعوه مثقلا بأوزار حياته الذميمة أمام صورة نضرة تشع الضياء كأول عهدها، يكفي أن نقص تلك الحكاية التي تكتنفها تلك الخوارق لنفهم أن (وايلد) قد كتب أقصوصة أخلاقية بل نستطيع أن نقول أقصوصة وعظ. وكانديد فولتير من الجودة بحيث تضمن المجد لكاتبها، وهذه الرواية الصغيرة ليست رواية، وإنما هي أقصوصة فلسفية بل أنموذج لهذا النوع من الأقاصيص.

لقد ذكرت ما اتفق من كتب ولا أرى ضرورة للإكثار من ذلك إذ بجانب تلك المؤلفات التي تسمى روايات، والتي هي في الحقيقة أقاصيص فلسفية، لدينا عدد من الحكايات التي تتوافر لها شروط الرواية بما تحوي من تصوير جميل للشخصيات أو للأخلاق، ولكنها رغم ذلك تحمل موضوعا، إذ تنمي فكرة أو تنتهي إلى التدليل أو البرهنة على أمر ما، ومن هذا النوع الكثير من روايات الطبيعيين، وبخاصة روايات إميل زولا.

وإنه لجدير بالملاحظة أن نذكر أن الروايات أو الحكايات ذات الموضوع يمكن أن تقص أو تلخص في سهولة، إذ تظهر مرامي المؤلف الخفية في كل جزء من أجزاء الكتاب، فالمؤلف الذي لا يعرض فلسفة الأقصوصة يعهد بها عادة إلى أشخاص الرواية الذين يلعبون دور المعقب في الكوميديا. فقارئ الروايات إذا أراد أن يلخص كتابا من هذا النوع يقول من فوره: (رجل يجد نفسه في هذا الموقف أو ذاك فيضطر إلى أن يفعل كذا وكذا مما يدل على..)

وموضوع الخطر في هذا النوع هو أنه إذا لم يكن المؤلف كاتبا قديرا يستطيع أن ينحو في كتابه منحى الأقصوصة الخلقية البحتة، فإن الشخصيات لا تلبث أن تمحى خلف الموضوع حتى لكأنه أمام معادلة جبرية: موقف معين يؤدي إلى نتائج معينة، فعلى الشخصيات سواء أرادت أم لم ترد أن تمر بمراحل مرسومة من قبل.

نعم إن الروائي القدير يستطيع أن يعالج بلباقة أي موضوع يستهويه، ولا يمنعه ذلك من أن ينفث الحياة في شخصياته، ولو قيدته بل ولو استعبدته قواعد الفن الذي يكتب فيه، ولكنه كثيرا ما يقاسي، وتقاسي معه الحقيقة من تعارض التدليل على الموضوع مع تصوير الشخصيات، حتى لتتعرض هذه للاختناق كلما تقدم المؤلف من واقعة إلى أخرى في حكايته.

أتنصت يوما إلى قصة كانت تتلى عليّ بصوت مرتفع، فأثارت الفكرة المتبادرة منها اهتمامي، ثم استمرت القراءة فإذا بي أحس بهذا الاهتمام يتناقص شيئا فشيئاً، لقد تمتمت بادئ الأمر:(ما أجمله موضوعا) ولكن بالمرور من حادثة إلى أخرى في

القصة أخذت أشعر بأنني أستمع إلى حكاية مصطنعة بعيدة عن الحياة، ومن ثم جاءت كاذبة مملة.

ثم جعلت أبحث عن أسباب هذا الفتور الذي اعتراني، وإذا بها تظهر لي فجأة مجتمعة في أن الموضوع كان جميلاً وأن علاجه كان محكما.. لقد كانت كل فصول الكتاب كتدليل على نظرية، حتى لكنت أتوقع من سطر إلى سطر تلك الرموز الدقيقة القاسية: س.ص.ح.د.

لقد اتخذت كلمة مفكر وكلمة فكرة في أيامنا معنى سيئاً، وأصبح الجمهور يقابل في احتقار بينهما وبين كلمات أخرى مثل واقعي وواقعية، وفي هذا لا شك تبسيط مسرف، إذ يجب أن نقر بأن خطر الأفكار إنما يتهددنا بأن يحجب عنا رؤية الحقائق، فيسلبنا ما تحمل من معنى.

وفي اعتقادي أن الكاتب الروائي لا ينبغي له أن يذهب إلى أحد الطرفين فيطرح كل موضوع، إذ هناك روايات يتحتم أن يكون لها موضوع، وكم في هذا النوع من تحف أدبية، بل تحف رائعة. ومع ذلك أرى أن الرواية الحقة تتميز عن الأقصوصة الأخلاقية أو الفلسفية بأنه لا موضوع لها، الرواية الحقة في جوهرها صورة أو معرض صور، ولكنها ليست صورا ساكنة إذ سرعان ما تأخذ في الحركة أو الحركات تأتي بها لذاتها لا لتجتمع للتدليل على فكرة.

فشخصيات الرواية عندما تحيا حياة حقيقية تولد بنفسها الحوادث، وتحدد المواقف التي أن حدث أن دلت على شيء أو اتضح أنها تحمل درسا فإنما يكون هذا اتفاقا لم يقصد إليه المؤلف، ولا حرص على أدائه، والرواية الحقة التي يندر أن تحمل درسا أخلاقيا كالحياة، من الشاق أن نقصها أو أن نلخصها، بل أن نفهمها بحيث أنني عندما أرى النقاد يتعثرون في ذكر الحكاية التي يحتويها كتاب ما، أحس بانتباهي يستيقظ لساعته إذ الحياة بدورها تلك الحياة التي نتخذها أنموذجا لنا، من الصعب أن نقصها.

لابد للمؤلف من كثير من التضحية وإنكار الذات، ليتخلى عن الموضوع عندما

يكتب رواية ما، ولكم من مرة سمعت روائيين جديرين بالاحترام يحاولون تفسير كتبهم، فيقول أحدهم: أنها مشكلة الوحدة والتعدد لا أقل ولا أكثر، ويصيح الآخر أنه النزاع بين الشرق والغرب معالجا في شكل روائي، ومنهم من يرمون في قصص جيدة إلى التحدث عما يلي الحرب من مشاكل أو عن تلك المعضلة الخطيرة معضلة مسئولية الآباء، وأما قصة رجل أو قصة أسرة، فذلك ما يتنازل القليلون إلى ذكره، وأرهفهم نفسا لا يستطيع الثبات لإغراء الفكرة فلا يقول أنها قصة رجل أو امرأة بل أنها قصة الرجل أو المرأة.

إنى ولا ريب أقدر وأجل الطموح، ولكني في الحق لا أحب إلا طموحا يتحقق بل يجب أن ننفذ الوعود التي لم نقطعها. إنه من الشاق أن نصمد لأولئك الذين يدفعهم حب الاستطلاع إلى السؤال، ولقد يتفق لي أحيانا أن يعنيني لزوم الصمت فأستسلم وأفسر كتبي، فأقول أني اتحدث عن مسائل كبيرة، عن محاكمات أو عن أفكار أساسية، أني لا أعرف لم لا يدفعني إلى أمثال تلك المرافعات ما يستحق من عرفان بالجميل.

لا تأتي الشخصية الروائية أنموذجا بمجرد خلقها، ولكنها قد تصبح كذلك، لا بد للمؤلف من شيء كبير من السذاجة ليخلق شخصية نموذجية، والروائي الحق لا يقول سأصور فرنسيا متواضع التعليم من فرنسيي القرن العشرين، وإنما يصور رجلا على الفطرة، ثم يتفق أنه يمثل هذا الرجل أصدق تمثيل الفرنسى في أوائل القرن العشرين، بل وإن يكن هذا أكثر ندرة، قد يمثل الإنسان في ذاته إنسان كل زمان وكل مكان، ولكن تلك الصور لا ترسم وفقا لخطة سابقة.

الشخصية النموذجية صورة ساذجة يصورها فنان كبير، يرسمها هو أولا ثم تصبح بعد ذلك صورة لشعب أو لجنس أو لعالم بأكمله، إذ يحاكي العالم كله تلك الشخصية على غير قصد منه، حتى ولو كانت مضحكة، وفي النادر إذا كانت سامية.

خلق الشخصية النموذجية هو الذي يحدد فيما بعد فكرتها عند المؤلف أحيانا وعند الآخرين في كل حين، فثلاثة قرون من النقد هي التي سكبت في (هاملت)

أفكارا ومذاهب وفلسفات أكثر مما كان يستطيع شكسبير نفسه أن يتصور.

إنه وإن يكن التاريخ مصدر خلق مستمر لوقائع جديدة، فإن الموضوعات محصورة، ولقد حرروا قائمة بالمواقف التمثيلية كما يمكن أن نعدد أغراض الشعر، وكذلك الأمر في موضوعات الروايات إذ يمكن إحصاؤها، وكل جيل يتناولها فيعالجها فيستنفدها حتى أصبح من الخير أن نطرحها كلية أو أن نردها إلى خطوط لا أهمية لفن البناء فيها، وأنه لمن الخير (لروائية المألوف) أن تبسط بعيدة عن كل موضوع، وتلك روائية صريحة حرة من كل فكرة سابقة، وفي هذه الخاصية ميزتها كما فيها خطرها، وهي إذا لم تحاك منطق الحياة لن تستعيض عنه بذلك المنطق المرسوم للأقاصيص الأخلاقية.

والكاتب الروائي الذي يستغل موضوعا يحاول أغلب الأحيان أن يستخلص نخاعه إذ يسير وراء فكرته إلى النهاية حتى ولو انتهى به المسير إلى ما لا يعقل ولا يشاكل الحياة، وفي مصاحبة الأفكار ما يبعث الدوار، ولو أن فلوبير استطاع أن يتم (بوفار وبيكوشيه) التي نعرف مشروعها لترك لنا أنموذجا للرواية ذات الخطة، ولكن الموت قد ترفق به.

وليس أخلب للب الكاتب من رواية ذات موضوع عندما تثب فكرتها لأول مرة إلى نفسه، إذ تراها كقطعة أثاث تامة التركيب، ليس عليه إلا أن يملأ أدراجها، وعندما يصبح الموضوع مفضوح المعالم، تأتي الراوية المبتذلة لا أصالة فيها، ولكم ذهب الموضوع، ولو كان أجمل الموضوعات وأجدها، بقيمة الروايات.

كثيرا ما يفخر رجال السياسة الذين تعودوا صدم العقول بالعبارات الخاوية الطنانة (بأنهم يسايرون فكرتهم إلى النهاية) وهم لا شك مخطئون فالجراح الماهر (لا يساير قط فكرته إلى النهاية) إذ يعمل مبضعه في اللحم الحي فيحس أنه مسئول، ولهذا يعرف كيف يقف عند الوقت الملائم فيغير من مناهجه، أو يعود أدراجه.

والروائي الحق يساير شخصياته إلى النهاية، ولكنه لا يحرص على أن يساير آراءه

إلى النهاية، لا آراءه هو ولا آراء كائن من كان. فاسترقاق الفكرة للكاتب ليس استرقاقا حقيقيا بل تيسيرا، والفن لا يحيا بغير جهد القيود، والتيسير يقتله.

فن القصص عندما يتخلص من الأفكار والموضوعات والصناعة الآلية يظل مثقلا بالقيود والصعوبات، وما من كاتب لا ينتهي مرة كل يوم إلى حدود قدرته، وهو غالبا لا يصل إلى تلك الحدود بمكتبة أمام الصحيفة البيضاء، إذ لا يأخذ في الكتابة إلا بعد أن تكون المواد الاولية قد اجتمعت لديه ورتبت منذ زمن طويل، وإنما يصل إليها غالبا في الحياة نفسها، فهناك يحس بمدى قدرته ومدى عجزه.

وكم من مرة استمع إلي رجال أو نساء يتحدثون وسط الجموع في عربة قطار أو أثناء وجبة طعام؛ فتحدثني نفسي كل مرة (هنا قد وقعت على صفة نفسية، أو تسقطت علاقة، أو لمحت دافعا خفيا، ولكني عاجز عن أن أصوغ ما اكتشفت ألفاظا، ربما أستطيع فيما بعد أن أصور ما أحسست به، أما الآن فلا، وأنا أعلم أني إذا أصبت التوفيق فسيأتي من بعدي غيري يفيد من تجاربنا وتساعده عبقريته فينجح في العبارة عما لمحناه نحن مجرد لمح....

لقد كان فنانو القرون الماضية فنانين كبارا، وفي كتبهم ما يثبط من هممنا، ولكنه من الخطر أن نظن أنهم قد قالوا كل شيء، وأننا قد أتينا إلى العالم متأخرين، وما أظن أن أحدا قد تأخر في المجيء. فصورة الإنسان لن تكمل أبداً، ألا طوبى لمن يستطيع أن يضيف إلى قسماتها قسمة، لقد استطاع (جيل رنار) الكاتب الصغير أن يرى ويثبت خطوطا ربما لم يحلم بها العملاق بلزاك نفسه، والمناهج دائمة التقدم، دائمة التمشي مع الجديد، إن الواقع لا ينفد.

إنني أعرف ما أريد أن أعمل، ولكني لا أستطيع دائما أن أعمله، كما أعرف ما لا يجب أن أعمل، ولكني لا أستطيع دائما ألا أعمله.

الواقع لا ينفد، ولكن ذلك لا يفيد أنه سهل الإدراك. لقد كثر الهذر حول ما يسمونه (الواقع المصور بالعدسة) أي (الواقع الفوتوغرافي)، وفي الحق لا شيء أكثر

نزوات وأعمق إنسانية وأقل اعتدالا من تلك الآلات المصورة، وأبسطها تصبح طورا شاعرة وطورا جافة حمقاء، بل قد لا ترى شيئا على الإطلاق.

وبوجه عام أحسب أن آلة التصوير اليوم تتجه اتجاها مقلقا، إذ تجمل المناظر إن لم تجمل الرجال، ولست أبغض تلك الآلة ولكني أرفض غالبا أن أقبلها حكما أو شاهدا إذ أنها تفسر أن ما نسميه خطأ بالواقع الفوتوغرافي ليس في الحقيقة إلا واقعا مبتذلا غليظا سهل المنال، أو أن شئت فقل واقعا غير مفسر أو مفسرا تفسيرا مختصراً.

ونحن لا نستطيع أن نفوه بكلمة (الواقع) في تعليق على الروح الروائية دون أن نبعث طائفة من الخصومات القديمة، أولاها واقعية اللغة في الحوار. ولو أنه طلب إلي أن أدل على كتاب واضح الواقعية في تصوير شخصياته وفي محاوراته لذكرت (ابن أخي رامو) وشخصية (ابن الأخ) هذه التي يسميها (ديدرو) (هو) لا تدع فرصة تمر دون أن تقضي في نفسها، ولذا يقول: (إنني جاهل، مغفل، كسلان) ومع ذلك نرى هذا الجاهل يتحدث عن أصابعه التي لا تحذق الموسيقى بقوله: (لقد انتهت تلك الأصابع الحمقاء، رغم ما نزل بها، إلى التعود على أن تستقر على معازف البيان وأن ترف فوق الأوتار)

هذا و(ابن أخي رامو) تحفة أدبية، وأنموذج للواقعية الحية لا نستطيع أن ننقد منه سطرا واحداً. وفي رأيي أن هذا المثل يفصل في مشكلة الحقيقة المسماة بالفوتوغرافية في الحوار الروائي. ولكني في الحقيقة أجنح إلى الاعتقاد بأن استعمال تراكيب اللغة الدارجة، وأخطاؤها باطراد في الحوار، نظرة صبيانية. وأن الكاتب الماهر هو من يستطيع أن يطعم اللغة بخصائص لغة الأفراد أو المقاطعات على أن يدخلها في روح اللغة العامة.

ومعنى هذا هو أن روح اللغة – أعني خصائصها المميزة – يجب أن تحترم حتى في الحوار الواقعي نفسه، والواقعية الحقيقية ليست في الألفاظ، وإنما هي في الآراء.

يجب على الكاتب الروائي في القرن العشرين – إن كان ممن يعترفون بالجميل –

أن يشكر ويبارك كل يوم إميل زولا، ذلك الرجل العبقري الذي تناولته بالسوء ألسنة قوم لم يقرءوه قط، وقد قام من أجلها بالكثير من التجارب التي سخر فيها حياته، وما أقصد بذلك إلى تقسيمه العظيم للطوائف الاجتماعية فحسب، بل إلى محاولاته الجريئة في ميدان واقعية اللغة، ثم إلى غرامه المفرط بأن يصف كل شيء، وأن يقول كل شيء، وأن يلقي على كل شيء ضياءً يعشي الأبصار، ضياء يكاد لا يبقي من الأسرار حتى على الشبح.

وثمة خصومة أخرى لم يفرغ منها بعد، وهي واقعية الآراء، وأعني بذلك إمكان أن تبدي بالفعل هذه الشخصية، أو تلك ما ننسب إليها من آراء إذا وجدت في ظروف اجتماعية معينة. لقد أخذنا ننتصر على نقد العوام، وإن كنا قد لاقينا في ذلك جهدا كبيراً، ولكم سألنا أشد القراء محبة لنا: (إنك تصور موظفا كتابيا، ولكن هل أنت على ثقة من أن موظفا كتابيا يستطيع أن يبدي آراء كتلك التي تنسبها إليه).. وإذا كانت هناك واقعية حمقاء فهي تلك التي سممت فلسفتها الجمهور، فحملته على إلقاء أسئلة كهذه.

"نعم إني أصور موظفا كتابيا، نعم إني نسبت إليه هذه الآراء". ولكن المهم ليس أن يكون قد رأى بالفعل آراء كهذه، وإنما المهم هو أن يقر هذه الآراء إذا اكتشفها في نفسه، المهم هو أن يجسم المؤلف الروائي تلك الآراء الغامضة التي تستبد في الخفاء بنفوس لا عدد لها، وأن ينفث فيها الحياة.

إن الرجال حتى البسطاء والبسطاء بوجه خاص، لا يضنيهم عدم القدرة على تكوين آراء لهم، وإنما يضنيهم الإحساس بتلك الآراء إحساسا ناقصا، يضنيهم أن يعجزوا عن أن يحددوا بالألفاظ آراءهم الخفية التي هم أشد ما يكونون تعلقا بها، وأن ينفثوا فيها الحياة بفضل تلك الألفاظ. فالمؤلف الروائي الذي يقتصر في تصوير شخصياته على الآراء الواضحة التي تبدى عادة، لا يؤدي رسالته، إذ من واجبه أن يمد يداً جريئة تفتح الأبواب وتشق الحجب.

كثيرا ما يضيف أولئك الذين يلقون أمثال السؤال السابق تعليقا على سؤالهم (أستطيع أنا المحامي، أو أنا صاحب المصنع.. أن أرى آراء كهذه، ولكن الموظف الكتابي، لقد ملأتني دهشة) ولقد روح عن نفسي دائما ما في أمثال هذا الاعتراض من سذاجة وغرور، فالمهم هو أن تقر وتقبل الآراء التي توضح.

وأما عن نفسي، فقد لخصت رأيي في هذه الخصومة المدرسية بسطرين في أوائل (رجلين) أوضح آراء رجل يعيش، ثم أختتم بهذه الكلمات: (لقد فكر في هذه الأشياء وفي آلاف غيرها، ولكنه لم يكن يعلم أنه يفكر فيها) إذا كانت أعين الناس على معرفة ما يفكرون فيه، فيما علمي إذن في هذا العالم؟؟

****

قواعد الأدب الكلاسيكي في فرنسا تحظر الخلط بين الأنواع، فتقول بوجوب فصل الكوميديا عن التراجيديا على المسرح، وتلك القواعد مخطئة مضرة بالأدب الروائي، ومن ثم لا يمكن تطبيقها عليه، فقد يمكن أن تتطلب الروايات ذات الموضوع نوعا من الضياء لا يتغير، فبعضها دراما خالصة وبعضها مهزلة صريحة، أما الرواية الحقيقية فمثها مثل الحياة، نسيجها خيوط من الضياء والظلمة، فلست أتصور رواية كبيرة تخلو من روح الفكاهة.. نعم إن بعض الروايات التاريخية مثل سلامبو قد تكون في غنى عن تلك الأرواح، أما الروايات التي تصور الرجال – الرجال المعاصرين– فيكف لا تستخدم تلك الأداة النفسية القيمة التي نجدها في روح الفكاهة؟؟؟

إن تلك الروح قوية عنيفة بل غليظة أحيانا عند بلزاك، ولكنها أداة نفسية في يد هذا المؤلف الطموح، ولو أن هذه الكلمة لم تكن موجودة لوجب خلقها لدكنز، كما أنها تكون جزءا كبيرا من عبقرية ستندال.. أما دوستيوفسكي فيمزج ألوان المآسي بروح الفكاهة الصقلبية، تلك الروح التي أعطانا منها في قصصه نماذج صافية دالة، فتملك إعجابنا. وهاردي مؤلف كبير محروم على ما يظهر من تلك الروح، ولكن مؤلفاته غارقة في الشعر، ولو أن روح الفكاهة اختفت واختفى معها الشعر لما أمكن أن يعوضهما شيء.

وجلزورثي كاتب مجيد ومصور أمين للبيئة الاجتماعية، ولكنه لا يملك روح الفكاهة ولا وهب ملكة الشعر. وبول بورجيه لم يعرف روح الفكاهة، ولا عرف الشعر في تصوير المشاعر والشهوات فجاءت فلسفته النفسية فلسفة تعليمية..

لقد حلت الكلمة الإنجليزية محل كلمتنا القديمة المتعددة المعاني، لنقبل إذن لفظة كما هي عن بينة ولنحاول تحديد معناها. تختلف روح الفكاهة عن الهزل الحقيقي، فالهزل يرمي إلى إثارة الضحك، كما أن له أسلوبا خاصا ولغة خاصة ومعجما خاصا، بحيث يصعب أن يجاور المآسي، وهي تتميز عن المرح الخالص الذي هو حالة نفسية عارضة يطول أو يقصر دوامها، وليست لها قدرة على الكشف عن حقائق النفس.

روح الفكاهة نوع من التغيير في الضياء يمكننا من أن نرى الشيء في كافة مظاهره، ولقد يكون بين بعض تلك المظاهر تناقض، بفضله تكتسب تلك المظاهر دلالتها، أن في روح الفكاهة نوعا من الخفر والتحفظ وتملك النفس لا يعرفه الهزل الصريح، ولكنها إن أصبحت مذهبا يصطنعه انحرفت عن سبيلها وأخطأت هدفها، إذ لا يجوز أن تظهر إلا تحت ضغط الملابسات، والهزل عزمه منعقد منذ البدء على إثارة الضحك، بينما الفكاهة لا تضحك دائما، وإن أضحكت فذلك لأنها لا تستطيع أن تتجنب هذا الضحك. روح الفكاهة استعداد طبيعي في نفس صادقة لا تصدف عن أن تعرف كل ما ترى، وأن تقول كل ما تعرف.

لقد شبت قديما خصومة حول لغة المؤلفين الروائيين، فقال البعض بوجوب صقل تلك اللغة صقلا دقيقا وفقا لأصول فن الكتابة، وأكد آخرون أن الغاية من الرواية هي أن تخلق شخصيات، وأن تنفث فيها الحياة، وأما العناية بالأسلوب فأمر ثانوي.

يخيل إلي أني أدرك أسباب الخصومة، فالأسلوب المسمى بالأسلوب الفني هو الذي دعت إليه جماعة (جونكور) قد أساء إلى النثر الروائي أكبر إساءة إذ أثقله بمحسنات متكلفة نأت به عن الأسلوب الطبيعي. أتريد مثلا لذلك؟.. خذ مدام جورفزيه واقرأ:

(هنالك وقد أحسست في دلال بالجهد من حمل رشاقة قدها – أكتاف مضناة وعنق طويل – أخذت تنصت برفق، وبلبها شرود حتى لكأنه لا ينصت منها غير ابتسامة وجهها إلى ذلك الحديث المهشم الذي كانت تتبادله تلك الحلقة الضيقة التي جلست على مقاعد كستها طنافس صورت عليها فصائل الدين)

وهذا ولا ريب مثل للأسلوب الذي أجج الخصومة التي أتحدث عنها، وتلك خصومة لم تخدم بعد، إذ لا يزال الكثير من المؤلفين يعتقدون أنه مادام هدفهم الأساسي هو أن يجذبونا فننساق في أعقاب حوادث رواياتهم، ونشارك شخصياتهم الوهمية في مصائرها ساعة من الزمن، فإنه من الخطر أن نتمهل لنتذوق لذة التفاصيل.

وحل المعضلة فيما أرجح سهل، فأما أن يجذبنا القصص فهذا ما أسلم به، ولكن على أن تكون تلك الجاذبية حقيقية وهذه قاعدة مطلقة، إذ يجب أن يكون في كل صفحة ما يحملنا على أن نعود إليها فنجد فيها من الجمال ما يبرر قراءتنا لها من جديد في تمهل، ولهذه القاعدة أصولها التاريخية، فتحف الأدب هي التي تمليها، عد مثلا إلى قراءة مطلع رواية (الأب جوريو) أو خاتمة (الأحمر والأسود) أو أي فصل من (مدام بوفاري) اقرأ من جديد (دون كيشوت) فإنك لن تلبث أن تقر ما أقول.

إنني أقول بلغة جديدة، لغة سليمة واضحة، غنية حية، كما أقول بلغة موسيقية، وذلك لأنه لما كانت راوئية المألوف تحذر شعر الألفاظ كما تحذر الواقعية الصاخبة، ولا تتمسك بغير الواقعية الحقيقية واقعية النفس، فإنه لا غنى لها، لكي تتضح فتثير اهتمام القارئ وتحتفظ به، من أن تستخدم الإيحاء الموسيقي تلتمسه في التأليف بين جرس الألفاظ الذي له سيطرة بالغة على حواسنا وأرواحنا.

من ذا الذي يقول – أو يجرؤ أن يقول – أن الأسلوب الروائي ضعيف الأثر، ونحن لا نقرأ الكثير من المؤلفين لا لشيء إلا لأن موسيقاهم لا تتفق وموسيقانا.

لقد كتب (سان سانس) يقول: من المستحيل أن نتحدث بغير أن نغني، لا في الشعر فحسب بل في النثر، وما أن ترفع صوتك، أو تستثيرك عاطفة قوية حتى تأخذ

في الإنشاد، وإذا بك ترتجل دون أن تشعر نشيدا تتخلله أجزاء من ألحانك. هذا عن موسيقى اللغة، فماذا نقول إذا كان الحديث عن الآراء.

الموسيقى تصحب كل آرائنا، باستطاعتي حتى وأنا أقرأ أو أكتب، أن أتمتع ببعض ألحان تتفق في اتساقها ونغماتها مع سير تفكيري، وأنا أتخير تلك الألحان بوحي غريزتي، ثم أتركها عندما تعود تلتئم وموسيقاي الداخلية، ولكنه من النادر أن ينشأ النشاز بمحض المصادفة، فمثلا قلما أستطيع أن أستمع إلى موسيقى تعزف وأنا أقرأ أو أكتب دون أن يؤلمني شيء من التناقض. إن موسيقى الأسلوب في نظري شرط لازم لسيطرته على النفوس.

نعم إن الروائي الحق هو الذي يعرف قبل كل شيء بعضا من أسرار الحياة، ولكنه أيضا رجل يلجأ في العبارة إلى موسيقى لفظية يستخدمها بطبيعته فيتميز بها كأمارة خفية لخصائص نفسه.

لا أكاد أجرؤ أن أقدم إلى الكتاب الناشئين أي نصيحة في هذا الميدان الشاق، ومع ذلك يتفق أن تدفعني الرغبة في خيرهم إلى أن أقول لهم: (ليكن اللحن في أول كتبكم رائعا، يجب أن تجذبوا القارئ في غير تعثر ولا مشقة، وهو لم يعرف بعد شخصياتكم الروائية، ولا تملكته وقائع قصتكم، أو قوة تصوركم، أو صدق نظركم النفيس، ليكن في موسيقى الأسلوب ما يسهل له الأخذ في المغامرة، أجيدوا الغناء كي تأسروا تلك النفوس الشاردة التي تريدون أن تستولوا عليها).

قلت: لغة سليمة، وأقصد بذلك لغة بسيطة، إذ من الهواة الذين ملوا كل شيء من يفضل التنقيب عن شواذ اللغة وشواذ التراكيب، واهما أن أصالة الكاتب في الألفاظ والتركيب، بينما الأصالة الحقيقية ليست في الصياغة وخصوصا عند الثائرين، وإنما هي صفة في النفس حتى ليذكرني هؤلاء القراء الفاسدون بأولئك النهمة المنحلين، الذين يحلمون بالأطعمة الخارقة فيودون أن يأكلوا (أوكار القطاة) أو (خراطيم الحلاليف) أو (أجنحة الزقا) وتلك نزوة ساعة، نزوة حقيرة.

إن غرائب الأسلوب ليست شيئا، وإنما العبرة كما قلت بتلك الموسيقى التي لا توصف، والتي ما هي إلا نغمات نفس.

قال بسكال: من الناس من يريد ألا يتحدث الكاتب عن أشياء سبق أن تحدث عنها الآخرون، وإلا رموه بأنه لم يقل شيئاً جديدا، وأنا أفضل عندئذ أن يتهموه باستخدام كلمات قديمة، إذ لن يصح في منطقهم أن تكون أفكار بذاتها حديثا جديدا بتغير وضعها على نحو ما تؤلف الألفاظ أفكارا مختلفة باختلاف الجمع بينها.

وعندي أن هذه الفقرة الرائعة تفصل في كل ذلك النزاع الذي يدور حول الصناعة والأصالة. أضف إلى ذلك أن الببغاوات تقلد بنجاح الكتاب الذين ترجع أصالتهم إلى شذوذ في الصناعة، بينما يشق تقليد أولئك الذين تصدر أصالتهم العميقة عن جوهر نفوسهم.

وأعود فأكرر، لغة جيدة واضحة، أي لغة سهلة سليمة، لغة نقية لا لغة يشلها التفيقه، فمن المتفيقهين من يكيل السباب لكتاب مجيدين من أجل أخطاء تافهة قد تكون مقصودة، وعندما يسمح كاتب ذو خبرة طويلة وعلم ثابت وموهبة ظاهرة لنفسه بأن يقول: أغلق عيني وأسلم له بما يقول، إذ أن لديه ما يبرر هذا الخطأ التافه.

لقد تحدث بول كلوديل، وهو الشاعر العظيم الواسع المعرفة باللغة، عن هذه المسألة أصدق الحديث.

***

وأقول في النهاية أنه عندما نريد الحكم على من يتخذون من كتابة القصص مهنة لهم، يكون المهم شيئاً واحداً، هو أنهم إذا كانوا قد أفادونا معرفة بالإنسان أي بأنفسنا، تقدمنا لهم في سخاء بشكل المقر بالجميل، فإذا لم يكن ذلك فليسلونا وليحملونا على أن ننسى أنهم وإن لم يقدموا لنا شيئا فقد أخذوا منا أشياء.

الجزء الرابع

كنيسة فرنسا الأدبية
واقتراحات في الإنسانية الحديثة

١

لجورج برنديس في كتاب (أصدقاء رومان رولان) صفحة تبدو ودية وإن تكن لاذعة، كتبها قبل موته بزمن قليل وفيها يقول: (إني أفضل الكتب التي تفقد الكثير من قيمتها إذا ترجمت) وهذا نص ألفاظ برنديس الذي أراد فيما يظهر أن يدلل بضرب المثل على أنه في كل لغة بشرية أشياء لا يمكن ترجمتها، ولقد كان برنديس عالما كبيرا يفهم عدة لغات ويتكلمها، ومن ثم يتضح ما في هذا الرأي الذي أورده عنه من ظلال الأثرة، فهو رأي رجل من هواة الذكاء، يرى في كل لغة سراً، وفي كل أدب معبدا مغلقا، لا ينفذ إلى قدس أقداسه إلا من يعرف (كلمة السر) ومن يؤدى طقوسة المقدسة الخفية.

والواقع أن في كل نتاج أدبي لشعب ما أو لرجل ما، جزء يمكن القول بأن العالم كله يستطيع أن يتمثله، فالكتاب الذي يترجم ترجمة جيدة يصبح جزءا من التراث العقلي لأمة أخرى، بل ويشغل منه أحيانا مكان الصدارة؛ فعيون أدب سويفت ودانييل ديفو لم تلبث أن اتخذت مكانها في المكتبات الفرنسية، وقد ظهرت كتبهما بفرنسا في زمن كان الناس يجيدون فيه فن الكتابة، وكانت التراجم التي نشر الكثير منها بدون أسماء مترجميها، نماذج للأسلوب الجيد والذوق السليم.

ولا ريب أن الأدب الفرنسي غني بالمؤلفات التي تسهل ترجمتها، ومع ذلك فإنه

لا يدين إلى التراجم بنفاذه إلى العالم، ولا بما أصاب من مجد حقيقي، فلقد رأيت في أحد مسارح (هلسنجفور) ممثلا فنلنديا عجوزا يمثل (البخيل) لموليير.. وقد ظل موليير برغم تنكره في لهجة (فينموينين) الغريبة العذبة هو (موليير) وإن نكن قد أحسسنا وأدركنا أن جزءا من تلك العبقرية الفذة لم ينفذ من المصفاة كما يقول الكيميائيون، وأن بعضا من خصائص هذه المسرحية الخالدة لا يمكن فصله عن لغتها الأصلية.

وإنه لمصير رائع ذلك الذي وفقت إليه الآداب الفرنسية إذ كسبت انتباه العالم المتحضر، لا بما قدمت إليه من مؤلفات ذات معنى إنساني عام فحسب، بل أيضا بما في لغتها الأصلية من جمال، إذ يحلو للعالم الأدبي أن يقرأ في الفرنسية مؤلفات الأدب الفرنسي.

ولقد رأينا عبقريات كبيرة رائعة كتولوستوى وديستويفسكي توجه الحديث إلى العالم كله دون أن تدفع الكثير من سامعيها إلى تعلم اللغة الروسية، بينما لا يخالجني شك في أن عددا من الأجانب قد تعلم الفرنسية ليقرأ مؤلفينا في لغتهم الأصلية.

واللغة الفرنسية ليست اليوم من اللغات المنتشرة في المعاملات التجارية، فالرجل الذي يريد أن يسافر وأن يعقد صفقات كبيرة يختار لذلك إحدى اللغتين الإنجليزية أو الألمانية، وهكذا أصابت هاتان اللغتان لأسباب زمنية انتشارا يمكن أن يقال أن الكتاب يستفيدون منه، أو على الأصح تستفيد منه قضية الروح، وأما نحن فأمرنا على خلاف ذلك إذ أن الأجانب يتعلمون لغتنا لا لدافع مادي، بل لأنهم يتذوقون كنوز فرنسا الروحية، فموليير وبلزاك وأناتول فرانس، هم الذين يشقون في هدوء الطرق التي يجدها تجارنا معبدة أمامهم، فيسلكونها دون إعجاب ولا اعتراف بالجميل.

وهذا وضع جدير بأن يدرس، إذ أن غنى الأدب الفرنسي وتنوعه على خطرهما لا يكفيان لتفسير تلك الظاهرة، والذي لا مرية فيه أن هذا الأدب يحمل إلى العالم رسالة يجب أن ننظر في مصدرها وطبيعتها.

***

ليس من شك في أن توحيد الحضارة يعتبر من أخلب الظواهر التي نستطيع نحن رجال القرن العشرين أن نلاحظها، وتلك الظاهرة التي يفسرها ما صارت إليه المعاملات بين الشعوب والأجناس من سهولة بالغة لا تزال في نمو مطرد، ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نتنبأ بما سيكون من نتائج، إلا أننا نعلم ونحس بقوة منذ اليوم أنه بعد سنوات قليلة وفيما عدا الظروف الخاصة بطبيعة الأجواء، لن يكون على سطح الأرض غير نظام واحد للحضارة الإنسانية نظام ممل مضطرب؛ ففي القرن الماضي – وحتى تلك الحمى الاستعمارية القوية، وتلك الثورة الاقتصادية التي شاهدها القرن الأخير، وبالرغم من قصص الرحالة وأعمال التجارة – كان العالم لا يزال موزعا بين عدة أنماط من الحضارات التي وإن لم تكن مغلقة كل الإغلاق دون كل تبادل، فقد كان كل منها يحتفظ بكنوزه بل وأسراره، فبين الحضارة الآسيوية بنوع خاص والحضارة المسماة أوروبية أو غربية لم يكن أحد يستطيع أن يتوقع تداخلا عميقا أو تهادنا أو تحالفا. نعم إن العقول البصيرة في الغرب كانت تعلم أن حضارات آسيا ليست خليقة بالاحتقار، ولكنه كان لدى هذه العقول دائما من الأسباب ما يحملها على الإعجاب بتلك الحضارة الغربية التي تتمتع بها.

تلك الحضارة التي اتحدت فيها منذ عشرة آلاف سنة عدة بؤر كانت في الأصل متباعدة، فمصر وبلاد المشرق واليونان وإيطاليا وشمال إفريقيا قد أنتجت تلك الحضارات التي وإن تكن مختلفة بل ومتباعدة أحيانا، فقد انتهت بالاجتماع في حضارة واحدة يمكن أن نسميها حضارة البحر الأبيض ثم ما لبثت أوروبا الخصبة بالعبقريات أن انضمت إليها بأسرها.

إنه من الشاق بالرغم مما بذلت من محاولات طول حياتي، أن نميز بين ما هو زمني وما هو روحي في تلك الحضارة، وإنما نستطيع أن نؤكد أنه في ذلك الجزء من العالم، الذي تغمر شواطئه مياه البحر الأبيض المتوسط والمحيط والبحار الشمالية، قد أخذ يتكون كنز روحي من التحف الفنية والمؤلفات الأدبية، وعلى وجه خاص من المناهج العقلية والتقاليد الأخلاقية، ثم من المذاهب الفلسفية والدينية.. نعم إنه لا

يجوز أن نعتقد أن هذه التجربة البشرية البطيئة المعجزة قد تتابعت في غير توقف ولا تردد ولا انقطاع، ولكنا نلاحظ أنه في أثناء أكثر أطوار التاريخ اضطرابا قد وجد دائما علماء خلصوا جوهر تراثنا الثمين فنسخوا الأصول الشهيرة وعلقوا عليها، وبذلك بعثوا تقاليدنا العقلية ومكنوا لها.

وفي الحق أني لأعرف نفوسا ممتازة ترى في حركة بعض العلم في فرنسا حدثا مستطير الشرر لولاه – فيما يزعمون – لنمت ببلادنا ثقافة أصيلة، ولكن هذا الزعم الباطل بالرغم مما فيه من بريق خلاب، يصرفنا بلا ريب عن أسلاب مجيدة ليسلمنا إلى الندم على شبح لا يكاد يدركه الخيال.

ومن الثابت أن كل كبار كتابنا وشعرائنا السابقين على النهضة أو أغلبيتهم الساحقة قد تغذوا تغذية تامة بالثقافة اليونانية اللاتينية، حتى أنهم ليعتبرون طلائع ذلك البعث، والدليل القاطع البين على وجوبه لا على أن نندم اليوم على حدوثه، وقد قضي الأمر وسار الزمن سيرته.

وكما يحدث في بعض أطوار التاريخ أن تعلن بقوة هذه المجموعة البشرية أو تلك رغبتها في أن تكون أمة، كذلك نادى الكتاب والشعراء الفرنسيون حوالي منتصف القرن السادس عشر برغبتهم في خلق أدب قوي وابتدوءا بالتقنين للغتهم، ثم انعقد عزمهم فجأة على الرجوع إلى تقاليد البحر الأبيض والمطالبة بتلك الحضارة الجليلة الفنية التي كانوا يعرفونها ويستطيعون فهمها دون سواها، ولقد تقدموا بتلك الحضارة، وفي سبيل ذلك تضافر شعب بأكمله.

وفي الحق أن أكبر حدث وقع في القرن الساس عشر كان في الميدان الروحي، وأعني به انعقاد العزم إذ ذاك انعقادا مفاجئا على الرجوع إلى التراث القديم، ولم يكن ذلك من أجدادنا تخليا عما تميزوا به من خصائص كمجموعة بشرية، بل إخضاعا لتلك الخصائص لنظام عقلي عريق مجيد، على نحو ما نرى في بعض الأسر أحد أبنائها يصدف عمله اعتزم من مشروعات خاصة ليستمر في عمل أبيه، وذلك لكي يحافظ

على ثروة الأسرة ومجدها.

وفي الحق أن كل شيء كان يدعو فرنسا إلى تلقي هذا التراث، فهي من بين الشعوب التي تسمى لاتينية، لطول ما خضعت لسيطرة روما وتأثرت بالثقافة اللاتينية، تشغل مركزا جغرافيا ممتازا، إذ تمتد إلى مسافات طويلة بين الشعوب الجرمانية والشعوب الأنجلوسكسونية.

ولقد قاومت فرنسا دائما وبكل قواها النفوذ الجرماني، وذلك بالرغم مما حملته إليها الغزوات الأجنبية، ولقد وجدت في الجهر بما أرادته من أن تظل بثقافتها من بلاد البحر الأبيض، وأن تكون الوارثة للحضارة اليونانية اللاتينية ما تستمد منه سلاحا روحيا قويا تقاوم به.

ثم أنها سبقت إسبانيا وإيطاليا إلى التمتع باستقلالها السياسي، فهي في القرن السادس عشر لم تكن كهذه (إيطاليا) موصولة المصير بالإمبراطورية النمساوية، ولا كتلك (إسبانيا) ممزقة الأوصال بشتى الخصومات الداخلية، ومن ثم كانت أقدر الشعوب اللاتينية على تلقي هذا التراث الجليل والعمل على تنميته.

يجب أن نكون من هواة الأوهام لنندم على ما كانت تستطيع فرنسا إنتاجه في عالمي الأدب والروح لو أنها أسلمت نفسها في عناد إلى عبقرية جنسها، فمن الممكن أن نتخيل هذا الشعب الخليط القائم على حافة القارة بأرض غنية حسنة الموقع، وقد أنتج أشخاصا ممتازين ومؤلفات رائعة، ولكنه من غير شك لم يكن لينتج شيئا مشابها لذلك النتاج الخارق في عالمنا الحديث، ألا وهو الأدب الفرنسي. وعلى من يريد أن يعرف معنى الأدب القرون الأخيرة لن يتصور الأدب الفرنسي كشخصية معنوية موحدة.

لست أجهل أن روح كل لغة وروح كل شعب يمكن إلى حد بعيد أن يقارن بالشخصية الشرية التي تولد وتدلف من الطفولة ثم تنمور وتصل إلى النضج فالقمة، ومنها إلى الانحدار فالموت، ومع هذا فكثيرا ما تكون حياة الشعوب فوضى ومصادفات، إذ نتبين الكثير من النشاز وعدم التناسب بين تلك الشخصيات الكبيرة

التي تنهض في تاريخها كمراحل متتابعة، كما أن هناك أطوار صمت طويل تبدو بالنسبة إلى شعب ما كفترات أفول لروحه..

ولكننا على العكس من ذلك ندهش عندما ننظر في تاريخ ذلك المفكر الكبير والكاتب المجيد الذي أسميه (الأدب الفرنسي) لما نراه من استمرار في الجهد واطراد جميل في التجارب ثم لانسجام تاريخه واتساق نموه.

قررت فرنسا إذن حوالى ١٥٤٨ أن تنهض بعمل جليل، وأن تخصص له قرونا، ولقد أدرك كل فرد من الفرنسيين الذين اشتركوا في هذا العمل الدور الذي كان عليه أن يلعبه وسط المجموع، كما قبل الخضوع لذلك النظام السامي الذي أملاه عليهم جلال الموقف، ولكن ما هو ذلك العمل الذي توافر عليه شعب بأكمله، ما هو ذلك الأثر الذي أراد الأدب الفرنسي أن يخلفه، أجيب لفوري أنه صورة للإنسان. لقد سعى الأدب الفرنسي في غير كلال إلى أن يصور الإنسان من أخمص قدميه: الإنسان في ذاته، والإنسان الاجتماعي، الإنسان الداخلي والإنسان الخارجي، الإنسان الظاهر والإنسان الخفي، والإنسان الذاتي والإنسان الموضوعي.

إن المرء ليأخذه العجب عندما يدرس المؤلفات وتسلسلها، فيرى أن العمل قد تم منذ أربعة قرون على درجات وبواسطة فرق متتابعة، فقد نالت المؤلفات والتجارب فيما يشبه حياة فردية حكيمة القيادة، لقد سار الأدب الفرنسي سيرة رجل مدهش يتقدم في حذر مواصلا السير في نفس الاتجاه.

لا بد للتفكير والكتابة من أداة دقيقة، من لغة محددة أمينة، ولهذا اتجهت جهود كبار فرنسيي القرن السادس عشر إلى إثراء اللغة والتقنين لها، وأنا لا أجهل أن لفظة تقنين قد تثير مخاوف بعض النفوس؛ فاللغة كائن حي لا يجوز – كالشعب الذي يتكلمها – أن يمسك عن الغذاء والتغير بل والحياة، ولكن اللغة الفرنسية استطاعت أن تحيا ولا تزال تحيا دون أن تتخلى عن تلك القواعد الآمرة الضامنة لكل إنتاج عقل بل وشرطه الأساسي.

لقد عيب على شعراء (البليارد الفرنسية) إدخالهم في اللغة لطائفة من الألفاظ الإغريقية الأصل الغريبة عن الخصائص الصوتية للغتنا، ولكنه عيب تافه، فهل احتفظنا من اللغة الغالية الأولى بأكثر من مائتي كلمة أو أصل، وفقهاء اللغات يؤكدون أننا لا نعرف حتى معنى كلمة نعم في لغة الغال. لقد تغذت اللغة الفرنسية بكمية كبيرة من العناصر المتباينة، واللغة اليونانية التي أخذنا منها الكثير من الأصول بطريقة مباشرة أو خلال اللغة اللاتينية من خير مصادرنا وبخاصة إذا ذكرنا ما تمتاز به تلك اللغة من إشراق وما في أصواتها من جرس غني.

وأنه لجدير بالنظر أن نلاحظ اهتمام الكتاب والشعراء والفلاسفة بأن يبلغوا بأداة تعبيرهم إلى مرتبة الكمال، وذلك بتثبيت قواعد النحو واستعمالاته وتنمية المعجم وتنقيته ثم ضبط الإملاء وتحديد الترقيم.

وإنها لدهشة سارة أن نرى كورني الكبير يقتتل مثلا لكي يرسم الحرفين برسمين مختلفين، وأنا لا أرى إسرافا فيما يبذل من جهد في هذا التنظيم والتقنين، فلقد وقعت بين يدي طبعات لملفيل وبنسراد رأيت فيها اسم الشاعر يكتب من صفحة إلى أخرى مع تغيير متعب في الرسم، وإنه لمن الشائق أن نرى الترقيم يقنن له شيئاً فشيئاً، فهو في الحق فقير عند البعض، غني مسرف في الدقة عند الآخرين من أمثال الأب سان ريال الذي كان يضع العلامة بعد كل لفظة، ولكم من عبرة في أن نرى المؤلفين ينتزعون من عمال الطباعة مهمة وضع الترقيم لينجو به عن التخبط كأداة ثانوية مهمة لازمة للغة والأسلوب.

ونحن في غنى عن أن نقول أن مثل هذه الأبحاث لا تشغل المكان الأول من اهتمام أصحاب تلك العقول الخالقة، الذين هم حقا بناة العبقرية الفرنسية، ولكن موضع العجب هو أن نلاحظ الطريقة الضمنية التي اصطلحت عليها الفرق المختلفة لتنجز في نظام ما صغر من هذا العمل وما جل.

***

وإذا كان من الضروري أن نبحث عن معنى عام لمجموع ما لدينا من مؤلفات وحقائق، فإنه من الواجب أن نحذر خطر إضعاف صفحة من التاريخ الإنساني في هذا الغنى بأن نقيم من ذلك المعنى مذهبا عاما. فإنه وإن يكن كتاب وشعراء العصر الكلاسيكي قد توافروا قبل كل شيء، على إيضاح عواطفنا الإنسانية، إلا أنهم لم يدخروا جهدا في أن يستعيدوا للفن الرفيع أصوله، وهي أصول أثبتت صلاحيتها تلك الحضارة القديمة التي أعجبوا بها وسعوا إلى متابعتها، وهكذا ردوا إلينا ما أحب أن أسميه قواعد الادخار والقسر.

وإذا كان رجال الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر قد نظروا أحيانا إلى شكسبير ذلك الشاعر المنقطع النظير، كأحد كبار البرابرة، فما ذلك إلا لأن أبحاثهم كانت قد نأت بهم بعيداً عن تلك العبقرية المغامرة، إذ أن اليونان واللاتين كانوا قد سحروا كبار كتابنا فلم يعودوا يفكرون في غير إثقال أنفسهم بالقيود، وهكذا نراهم يرجعون في مسرحياتهم إلى الوحدات الثلاث كما وضعوا لشعرهم عروضا محكماً. وأخيراً أخذوا العدة ليبرهنوا على أنهم قد استمدوا مبادئ الادخار والقسر في الخلق الفني من الطبيعة نفسها التي ليست حرة كما يهرف البعض، بل خاضعة لقوانين صارمة وضرورات سامية.

فالفن الكلاسيكي، فن راسين وموليير، يبدو عند النظرة الأولى مثقلا بالمواضعات حتى لكأنه غريب عن الطبيعة، ومع ذلك يحمل في نظامه القاسي مبادئ الحياة الحيوانية والنباتية، ذلك ما نرجحه بل ما نقطع به، فكل الكائنات الحية تأخذ بمبدأ الإدخار، وذلك لما تعرفه في غموض بحكم غرائزها، من أنه لكي تعيش وتصل إلى ما قدر لها من مصير وتنهض بأعمال تستطيع البقاء لا يجوز لها أن تنفق كل ما تملك، بل عليها أن تتبصر فتدخر.

والإنسان إنما يعيش على ما يسلب الحيوانات من دهن مدخر، والنباتات من سكر، والدهن والسكر من تلك المؤن المتواضعة التي تحرص عليها الحياة كي لا تفنى،

ولقد تعلم الفلاح من حياته وسط الحيوانات والنباتات خلق الاقتصاد الذي ركب في تلك الكائنات فأخذ بمبدأ الادخار، ولذا تراه يقيم مخازن للقمح ويحفر في الأرض المطامير كما يبني خزانات المياه، وهو لا ينفق قط كل ما يملك حتى ليتهمونه بالبخل، ولكنه في الحقيقة حكيم، منطقه منطق الطبيعة.

ولقد يبدو غريبا أن نقول أن القواعد الأساسية لفننا الكلاسيكي يجب أن تعتبر شاملة للفلاح الفرنسي، ذلك الفلاح الذي ربما رأينا العالم أجمع يوجه اللوم في عصرنا الحالي إلى خير ما يملك من فضائل؛ فالكاتب الكلاسيكي هو ذلك الذي لا ينفق كل ما يملك، ولا يقول كل ما يعلم، ولا يهم بأكثر مما يستطيع، كما لا يتكلم بأعلى مما يسمح له صوته. هو ذلك الذي يحتفظ دائما باحتياطي هو من يضبط نفسه ويضع لها القواعد التي يحافظ على اتباعها، وأما الرومانتيكى فهو على العكس، ذلك الذي ينفق كل ما لديه بل يبذر ويستدين.

إن هذه المقابلة لتحلو لي، وإن كنت أحس أنها قد تضر بقضيتي، إذ تستطيع أن توهم أن الرومانيزم قد حطمت عمل الكلاسيكيين في فرنسا أو نالت منه، والواقع أن هذا غير صحيح فقد احتفظت العبقرية الفرنسية حتى وسط ضلال الرومانتيكيين باحترامها العميق للقيم التقليدية، ولكل ما أثبت ماضي الإنسانية أنه كسب أكيد، ونحن نعلم أنه قد وجد دائما في فرنسا بعد أسوأ التصرفات الجنونية وأشد أنواع الزيغ خطراً، رجال قبضوا على الدفة وعادوا بالسفينة إلى وسط التيار

***

ليس الأدب الفرنسي عالما للتجارب التي لا تخضع للنظام، وإنما هو هيئة اجتماعية تحكمها قواعد صارمة، هو كنيسة لا تقبل الانقسام. ومعنى كلمة كنيسة، جماعة، وأنا في الواقع أعتبر الأدب الفرنسي كجماعة، ولكنها ليست عندي جماعة مختلطة تكونت اعتباطا أو بمحض الصدفة من طائفة من الرجال والشخصيات، وإنما هي مساهمة منسجمة من المؤلفات والعقول تضامت خلال الزمان والمكان في نظام

وخضوع لغاية ضخمة موحدة.

وأنا أعلم أن هؤلاء الرجال العظام ليسوا مجرد رجال، كما أعلم أن العقول الكبيرة لا تحسن الدعوة إلى احترام العقول الكبيرة، وأنها كثيرا ما تلوح خارجة على هذا النظام الجليل الذي أحاول هنا أن أكشف عنه، فلقد قسا بوسييه على موليير، وباسكال على مونتيني، كما أن مالرب لم يحترم رونسار، ولقد مزق روسو في كتابه إميل لافونتين في اغتباط وحشي. كما أظهر بلزاك في خطاباته أشد الاحتقار لفيكتور هيجو، ولكنهم كانوا كأبناء بيت واحد، يختصمون فيما بينهم ويمزق بعضهم بعضا، ومع ذلك يظلون متحدين في الاعتراف بدين جماعتهم والاحتفال بمبادئ أسرتهم، فكبار رجال أدبنا لم يخشوا أن يعلنوا خصوماتهم، ولكنهم يتحدون جميعا في الاحترام والطاعة واحترام اللغة التي يستخدمونها، والغاية التي يسعى إليها الأدب الذي هم من رجاله ثم الطاعة لتلك القواعد التي أقامتها قرون من الجهد.

ليست هناك كنيسة ولا جماعة حقيقية بغير قواعد جبرية وبغير التزامات، وإنه لمن الغريب أن نلاحظ أن تلك الوحدة الخارقة القائمة على الخضوع والنظام قد نشأت بين الشعب الفرنسي الذي اشتهر منذ زمن بعيد بحماسته الفردية، وبفضل هذا النظام استطاعت اللغة الفرنسية أن تظل لغة موحدة، لغة شعبية ولغة علمية، وبذلك أفلتت من المحن التي تسير إليها اليوم اللغة العربية الآفلة هي وغيرها من اللهجات، وبفضله أيضا ظلت تلك المؤلفات التي مضت عليها أربعة قرون سهلة الفهم للرجل العادي، أعني الرجل المتوسط الثقافة.

ولكن الكنائس مهما كانت مغلقة لا تستطيع دون خطر مميت أن ترفض قوانين الحياة أعني السير إلى الأمام والنمو، وهذا شأن الأدب الفرنسي، فإنه لم يقف قط عن النمو، وذلك بفضل ما استزاد من كسب جديد رائع لم ينقطع، ولئن كان قد خشي دائما المارقين وقاتلهم فإنه لم يعلن قط حربا صليبية أو أهلية، وذلك لأنه يلوح فيما لو استثنينا الشعراء الغنائيين، أولئك الأطفال المدللين الذين ذهبوا بمصائر خاصة

أن أولئك الذين أسميهم مارقين قد أخمدت دائما أنفاسهم بالإهمال والنسيان.

ولكن على من تطلق تلك الصفة الخطرة صفة المروق، أما عن النثر الفرنسي فالأمر واضح، إذ يعتبر مارقا كل من حاول أن ينصرف عن جادة السبيل الرحب على تحديده، السبيل الذي سلكته اللغة والروح الفرنسية، كل أولئك الذين حاولوا في سذاجة أن يتميزوا باتجاهات طائفية أو تجارب مسرفة، في استقلال قد يجيد بالروح والآداب الفرنسية عما قدر لها من مصير أو يخرجها عما اختطت من نهج.

وإنه لمن الشاق أن نحاول تأريخ تلك الطوائف التي لم تخلف واحدة منها تقريبا تاريخا إذ اختنقت في بويضتها، نعم لقد استطاعت عبقريات شاذة عجيبة أن تقوم على درج السلطة الآمرة، ولكنها لم تستطع قط أن تفلت منها، ولقد دخل جيلنا في عالم الأدب في وقت كانت تجرى فيه بعض تلك التجارب الطائفية، ولكنا نرى الآن أنه لم يكن ليومها غد.

فأسلوب بلدان، بل وفي استطاعتنا أن نقول وأسلوب بول آدم، ونفر غيره.. لم يجز قبول المجمع، كما أن مؤلفاتهم رغم ما فيها من ميزات لا شك فيها تلوح منذ اليوم محكوم عليها بالإقصاء. وأنا أدرك ما في مثل ملاحظتي هذه من صدم لروح الشباب الذين يأتون إلى الأدب برغبة قوية كريمة في التجديد، وأنا أعرف تلك الرغبة وأنظر إليها بقلب منفعل، إذ بدونها تفقد الحياة كل ضوء وتوثب، ولكني أعلم عن تجربة أن كنيسة فرنسا الأدبية قد أرغمت دائما كل العبقريات مهما كانت أصالتها على مراعاة القوانين واحترام التاريخ والتقاليد، ومن الغريب أن كبار كتابنا إنما وجدوا مصدر القوة والتأثير في ذلك الخضوع الذي انتهوا إلى قبوله عن رضى.

ولمن يريد أن يقدر مدى قسوة هذا القسر أن ينظر إلى ذلك النوع من التحفظ الذي لاقت به كنيستنا الأدبية كل محاولات الأدب الإقليمي، وتلك ظاهرة لا أصدر فيها حكما، وهي ليست وليدة الإرادة بل من عمل الغريزة، ومع ذلك فكل محاولات الأدب الإقليمي في فرنسا قد اضطرت لكي تقبل إلى استخدام طقوس الكنيسة،

وأعني بتلك الطقوس في تشبيهنا المستمر احترام اللغة الفرنسة الموحدة التي لا تتجزأ، وذلك فيما عدا تلك النزوات النادرة التي تظهر في الألفاظ أو التراكيب.

وما أن قدمت المؤلفات ذات القيمة فروض الطاعة على هذا النحو حتى رأيناها تنتزع فورا من التراث الإقليمي لتضاف إلى كنزنا القومي، فنرماندیا فلوبیر أو موباسان هي قبل كل شيء فرنسا، وجاسكونيا موریاك قد انتهت بالانضمام، والكتاب يعرفون هذه الحقيقة تمام المعرفة إذ يأتون إلى باريس ليطلبوا الإذن بالطبع.

والأدب الفرنسي يمتلك عدة مقاطعات خارج فرنسا، ولكنها هي الأخرى لا تفلت من هذا القانون العام، ولقد أنتجت تلك المقاطعات كتابا كباراً كما أدلت بمساهمات رائعة في الكنز المشترك، فلتخضع كما خضعنا، ولا تأملن في أن تكون ماذا أقول، أن تكون طائفة ذات بال، وإذا أرادت أن تفلت مما في قواعد الكنيسة من قسر فلتتخل أيضا عما تمنح من امتيازات، وذلك لأن هناك امتيازات كبيرة تعوض عن هذا الاسترقاق المحدود، وكل رجل يستخدم اللغة الفرنسية يحس بما في انتمائه إلى جماعة موحدة من قسر وفي نفس الوقت من متع، وعلى الكاتب بوجه خاص أن يفوق الآخرين في قوة استشعاره لما في مهنته من تواضع وكبرياء، فالكاتب الفرنسي الذي لا يحس عندما يأخذ بالقلم أنه يكتب تحت رقابة جمع من أجداده الأمجاد وإخوانه المبجلين، رقابة عطوف ساهرة قوامة قاسية، ذلك الكاتب يلوح لي وكأنه قد تخلى عن واجبات مهنته الأساسية وعن مميزاتها معاً.

لقد قبلت قاعدة الخضوع والنظام، قاعدة كنيسة فرنسا الأدبية تلك القاعدة التي خضعت لها كل هذه العقول الكبيرة بإخلاص المؤمنين، أقول: قبلت استثناء الشعر الغنائي. ذلك لأننا نجد دائما في أقسى الأسر نظاما وأحكمها قيادة طفلا عاصيا لا يحسن الخضوع للقانون العام، والأسرة تحبه في عطف وإن لم تفهمه دائماً، وهي تنتقد أخلاقه ولكنها تتسامح في نزواته وهرجه وإسرافه، وهذا شأن الشعر الغنائي في أسرة فرنسا الأدبية، فلقد كان ولا يزال في فرنسا الطفل المدلل، الطفل

المخيف الطفل السمح أحيانا الملعون أحيانا، وإن قوبل دائما بالعفو. ولقد أساء نفر من الأدباء وخصوصا من بين الأجانب فهم هذا الوضع غير المألوف، إذ أعشى ذلك البريق الخطابي الذي يشعه أدب توافر على فهم الإنسان والعالم، أدب يقوم على الاتساق والنظام، أعشى نفوسا كثيرة مسرفة السرعة في التأثر فقالوا وما يزالون يقولون أحياناً في الخارج أنه ليس لفرنسا شعراء غنائيون. وإن اللغة الفرنسية ليست بلا ريب كالانجليزية أو الألمانية لغة تلائم انطلاق المشاعر النفسية انطلاقا شعرياً حراً، وهذا رأي بعيد عن الحقيقة كل البعد، فموضوع الإعجاز هو أن اللغة الفرنسية رغم اتجاه جهودها الرائعة باستمرار نحو الوضوح والتحليل الرفيع، قد استجابت دائما لدعاء الشعراء، وكانت بين أيديهم أداة موسيقية متناهية المرونة.

ولقد رأينا خير العقول تعمل خلال قرون طويلة على أن تجعل من اللغة الفرنسية أداة نافذة للبحث عن حقائق النفوس وتحليلها وإيضاحها، ولكن ذلك لم يمنع الشعر الغنائي من أن ينمو نمواً مستقلا على هامش آدابنا. أقول على الهامش لأن المتن كان مشغولا في العصر الكلاسيكي بشعر خطابي رائع يؤاخي نثرنا الغنائي ويقاسمه مهامه وتبعاته، ومع ذلك لم يفقد الشعر الغنائي كل حقوقه، ولقد أظهرت في مقدمة لكتاب عن (مختارات من الشعر الغنائي في فرنسا) أن غموض الشعر الغنائي عندنا لم يكن نزوة مضطربة عارضة بل هو إحدى تقاليدنا الحقيقية المطردة، وأنه قد استمر في غير انقطاع منذ القرن الخامس عشر إلى يومنا هذا، وما شعراؤنا الرمزيون إلا استمرار للسلسلة. وإنه لجدير بالملاحظة أن نذكر أن الفرنسي النحوي المنطقي بطبعه قد أجاز للشعر حتى في تلك العصور التي تسمى بحق ضرورات الشعر، وأنه لمن العجب أن نرى أمثال تلك الإجازات نتاجا لفن يخضع من جهة أخرى لأضيق القواعد الإرادية بل وأحيانا أسخفها، ولكن الشعر الغنائي كما قلت هو ذلك الطفل المدلل المسرف، ذلك الكائن الخارق ذو القدرة وذو النزوات.

وهكذا عاش الشعر الغنائي في فرنسا حياة حرة في دواوين شعرائنا المرهفين أو في أدبنا الشعبي أي في كنز أغانينا، ولكم يدهشنا أن نرى موليير يحتفل بذلك الأدب

الشعبي على المسرح الفرنسي إبان عصر التقنين نفسه، عصر الفن الكلاسيكي، فهذا عدو البشر ينشد مقطوعات طالما تغنى بها إذ ذاك أفراد الشعب المتواضعون في منعرج الطرقات.

وهذا الانفصال الودي، انفصال الشعر ذلك الطفل المدلل المخيف عن الأسرة يلوح أن الرومانتزم قد قضت عليه، إذ نرى الشعر في ذلك العصر المدهش يعود إلى المنهج العام، بل لعل من الأصوب أن نقول أنه في ذلك العصر قد ضل المنهج العام ضلالا سخيا في حقول الشعر الغنائي، ولكنه لم يكد معين الرومانتيزم ينضب حتى عاد الانفصال كما كان، فلقد نشأت حركة الشعر الرمزي ونمت وسط الأسرار والظلال بعيداً عن التيارات الأدبية الكبيرة التي تركزت فيها تقاليد اللغة والروح الفرنسية.

وإذن فكنيسة فرنسا لا تعرف من المارقين غير الشعراء الغنائيين، وإنه لمن الخير أن تكون الأمور على هذا النحو، كما أنه من الخير أن يظل الشاعر حراً بعيداً بعض الشيء عن الكنيسة المجاهدة، وأن يجد فيها رغم ذلك من وقت إلى آخر ما هو في حاجة إليه من عون وحماية، فلتسخط عليه الكنيسة لتنتهي بتبجيله، وليكن هو ذلك الاستثناء المقدس الذي يقلقنا ويفدينا، نعم إنه لمن الخير أن يقذف هؤلاء الهذاة النبلاء بالاضطراب وسط تلك التجربة الطويلة، تجربة النظام، وليس أنفع من أن يخل هؤلاء الشعراء المجانين باستمرار، بتوازن السفينة، لأنهم بعملهم هذا يولدون الشعور وبذلك التوازن، بل وبالحاجة إليه حاجة ماسة.

وما توازن الكائن الحي إن لم يكن صراعا مستمرا لحفظ النسب بين القوات المتضادة، ولخلق ذلك التوافق الذي يزيده جمالا أن نراه باستمرار مقلقلا مهدداً.

لقد سمعت يوما رجلا يعرف فرنسا وأمريكا جيداً، يوصي مسافرين فرنسيين على وشك السفر إلى ما وراء البحار بألا يفوهوا قط بتلك الألفاظ التي يظهر أنهم يمقتونها هنالك أمثال (الاعتدال) و(الوضوح– النظام– التفكير الديكارتي) وأنا أدرك تمام

الإدراك كيف أنه من السهل أن يساء استعمال تلك الألفاظ اليسيرة التجريد استعمالا تعليمياً.

وإنه لمن الحمق البين بل أنه لمأساة حقة أن نعطي الأجانب صورة سيئة، بل وأحيانا صورة مضحكة عن خير فضائلنا، عن الوضوح مثلا، وفي عملنا هذا أخطر إهانة نوجهها إلى تلك الفضيلة. ولكن ما هو ذلك الوضوح الفرنسي الذي طالما أعجب به الناس والذي لا يستطيعون دون خطر أن يسخروا منه..

أذكر أنني ألقيت يوما أمام جمهور ألماني خطبة كنت قد أعددتها بعناية ورتبتها وفقا لقواعدنا الكلاسيكية، ولكني لم أكد أترك المنصة حتى جاءني أحد أساتذة الجامعة – وهو عالم من أكبر علمائهم – وقال: (إنك لفرنسي حقا فنحن لا نبتدئ، كما فعلت بتخطيط هيكل الموضوع وذكر أقسامه، بل بإلقاء شيء من الظلال حوله)

وفي هذه العبارة ما يذكرنا تماما بعبارة أخرى شهيرة لمالرميه، ولكن مالرميه كان شاعراً، وللشاعر في فرنسا امتيازات ملكية، وإنه لمن الممكن أن نقول أن كل كتاب فرنسا تقريبا قد استخدموا اللغة كأداة، خاصيتها الأولى تقسيم الأفكار والحالات النفسية وتقريبا إلى الفهم. وهذا أجمل الأعمال وأجهلها خطراً، وذلك لأنه لو سلمنا بأن الإنسان قد خلق منذ البدء ليعرف، وأنه ليس لديه خير من تلك المعرفة، لوجب أن نحيي أولئك الذين يبذلون جهداً منظما قاسيا عنيدا ليجيدوا معرفة ما يفكرون فيه، ثم معرفة ما يوحي به إليهم عالمنا الخارجي، وإذا لم يكن للمعرفة غنى عن الضوء، فليكن ذلك الضوء، ولنكن نحن مصدره.

ولكن هل من الممكن أن يكون في الوضوح المسرف ما يتنافى مع ما تتطلبه المعرفة الحقيقية، هذا ممكن إذ أن الضوء المسرف يغشي الأبصار، وهنا موضع الخطر على الروح الفرنسية، ولكنه خطر يعرف الفنانون الحقيقيون كيف يفلتون منه، بأن يسدلوا في الوقت المناسب حجابا أو يقيموا حاجزاً أو يثيروا سحابة، ومن الممكن ألا يقتصر الضوء المسرف على إعشاء البصر، بل يعدوه إلى إيلاء الأشياء التي تتعرض

لتأثيره وتحطيمها وروعي لونها ومادتها، وهذا ما يجب أن يعلمه سحرة الفن الماهرون، إذ من الواضح الذي لا يحتاج إلى تقرير أن العالم والفنان لا يستخدمان الضوء نفس الاستخدام، ومن ثم لا يستخدمان اللغة.

كثيراً ما يثير الوضوح في خير ما نملك من كنوز أدبنا القومي، وخصوصا بنفوس الأجانب إحساسا بالبخل والكزازة بالنظر إلى الموضوع الذي ينيره ذلك الوضوح. ولكن من الواجب ألا نجازف بالأحكام في هذا الموضوع الشاق؛ فوظيفة اللغة هي أن تذيب مهما كان الثمن لنستريح، بل ولو ذهب ذلك بلذتنا يجب أن تذيب بأي ثمن، لأن سلامة الإنسان معلقة بذلك، تذيب حتى ولو انتهى بنا الأمر عند الفراغ من تلك العملية بأن نصيح في شيء من خيبة الأمل: أهذا كل ما في الموضوع، أهذا كل ما خلصنا به؟..

ومن الواجب قبل أن نحكم على صفحة من كتاب فرنسي كبير بالإسراف في الوضوح أن نتأكد من أننا قد استوعبنا كل ما فيها واستخرجنا لبابه، ولكم نرى هواة الغموض يصفون بالجذب عالما لا يعرفون كيف يرون ما به، عالما لا يستطيعون تقدير ما يضم من استنضاء، فلقد ذهب علماء النفس كما ذهب الكتاب في فرنسا في معرفة الإنسان والطبيعة إلى أبعد ما يمكن أن يذهب إليه، وذلك في غير هوادة ولا لبس، وفي غير اعتماد على محاسن الصدفة أو الظلمات.

لقد تطوع عن طيب خاطر دعاة متحمسون لينشروا عن فرنسا أنها قبل كل شيء بلد الاعتدال حتى ليحسب من يسمعهم أنه ليس في العالم حقول غير حقول (الإيل دي فرانس والتورين) وأن مجرد رؤية هذه الحقول يكفي ليغرس في نفوس السكان معنى الاعتدال والمحافظة التي تشبه إلى حد ما قال تين، فتاريخ فرنسا يدل دلالة مسرفة مؤلمة على أن أرق العواطف التي تواجه بها طبيعة الأرض لا تكفي لحمل الناس على الأخذ بالحكمة السياسية والاجتماعية؛ فبلاد الاعتدال قد قامت بثورات أكثر مما قامت به بلاد أوروبا الأخرى، كما أنها لم تضرب دائما فيما أعلم المثل في

التبصر والاتزان، وفيها تحدث الشهوات والجرائم والآثام ما تحدثه بغيرها من بلاد العالم من اضطرابات، وإذا كانت فرنسا تفخر بوديان نورمانديا وآفاق براتو ففيها أيضا جبال عاتية وسهول محدبة كما أن بها سيولا وبطاحاً.

لا.. لا.. يجب أن نحذر من تلك البلاغة الحاوية الخداعة، ولكن لنعلم أن فرنسا بلغتها وآدابها وبفضل جهد مثقفيها المتصل قد استطاعت منذ قرون أن تسعى حقيقة إلى ذلك الاعتدال، ولكنها لسوء الحظ لم تصل بعد إلى أن تكون بلد الاعتدال، وإن تكن البلد الذي وفقت عقول كبار أبنائه في محاولاتها إلى أن تدعو بمؤلفاتها إلى تبجيل الاعتدال.

هل الأدب الفرنسي كما يقال أحيانا أدب أخلاقيين؟.. هذه مشكلة يجب بلا ريب أن تدرس فلقد كانوا قديما يقصدون بالأخلاقى ذلك الرجل الذي يلاحظ ويصعب الأخلاق، ثم تحول معنى اللفظ شيئاً فشيئاً دون أن يفقد دلالته الأولى إلى معنى الواعظ، فهل الأدب الفرنسي أدب أخلاقيين أم أدب وعاظ أيضاً؟...

لقد وصفت الجمهرة العظمى من الكتاب الفرنسيين كل أخلاق عصره، وذلك إلى جانب ما أولوه أكبر جهدهم، ألا وهو وصف حالات الإنسان الخالد في ذاته، ولقد حاولوا بهذا الوصف أن يعملوا على إصلاح الجنس البشري، بحيث تأخذ الألفاظ أخلاق ورجال أخلاق في مثل هذا الأدب الذي لم يخل من اتجاه أخلاقي، معاني أوسع وأكمل، فمن لافونتين إلى موليير إلى فولتير قد عزز كل الكتاب الذين سيطروا على آدابنا الاهتمام بإصلاح الأخلاق، وفي هذا المعنى يقول دتوش في سذاجة: أعتقد أن الفن المسرحي لا يستحق التقدير إلا إذا كانت غايته التربية مع التسلية، ولكن هذا الاهتمام لم يكن في الغال إلا لاحقا، فكبار أدبائنا لم يصدروا إلا ولعهم بأن يصوروا، ثم أنهم لكي يبرروا هذا الولع، قد ادعوا في إيمان أنهم إنما قصدوا إلى الوصول بالإنسان إلى مرتبة الكمال، ومن حقنا أن نشك في دعواهم هذه دون أن يكون في ذلك حط من أقدار هؤلاء الفنانين العبقريين، وأيا ما يكون الأمر فإن

دعواهم كانت لزمن طويل دعوى الأخلاق والإصلاح، وتلك حقيقة يجب أن نعيها لنستطيع أن نفهم موضوع اهتمام القرن الجديد.

ليس هناك كاتب جديد بهذا الاسم لا يرجو أن يكون ذا أثر، وليس هناك كاتب لا يعتقد أن أثره حسن، فالمستهترون أنفسهم عندما ينشرون ما يهذون به يؤكدون في سذاجة مؤثرة أن رغبتهم هي أن يعملوا لخير البشر، والمجانين الذين يحلمون بالفوضى والدمار لا شك مقتنعون في أعماق نفوسهم بأن العدم بالنسبة للإنسان حل مرغوب فيه، بل بوجه عام حل أخلاقي، والجمهرة العظمى من الكتاب لمجرد أنهم يتابعون عملا إن صالحا وإن طالحا يقررون شعورهم بالتفاؤل، ونحن مضطرون إلى أن نعتقد أنهم يرفضون الإيمان بالعدم، وأنهم يرددون مع سنانكور (الإنسان فان فليكن، ولكن لنفنى ونحن نقاوم).

وإذا كان العدم ينظرنا فلا يجوز أن نعمل على أن يكون هذا العدم قضاء عادلاً، وأنا لا أرى شرا في أن يبدء هؤلاء الكتاب مخلصين أو غير مخلصين رغبتهم في أن يقوموا الأخلاق أو يسموا بالإنسان. ومع ذلك يخيل إلي أن كتاب القرن العشرين أقل إعلانا لتلك الرغبة من سابقيهم، وأنا لا ألومهم على ذلك وأول سبب لهذا التطور هو ما طرأ على الأخلاق العامة من تغير، وأنا لا أعتقد أن الاخلاق قد أصبحت اليوم أكثر انحطاطاً مهما كانت، أو أن الاستهتار يقابل بتسامح أشمل، وإن كنت أعتقد كما يعتقد العالم أجمع أن حرية القلم على الأقل في فرنسا أوسع اليوم مما كانت، فمصور الأخلاق لم يعد في حاجة إلى أن يلتمس لنفسه حجة أو عذراً. فكرديلس دى لاكلو عندما يكتب في مقدمة (العلاقات الخطرة) قائلاً: يلوح لي أننا نؤدي على الأقل خدمة إلى الأخلاق عندما نكتشف عن الوسائل التي يستخدمها من لا خلاق لهم لإفساد ما عند الآخرين من أخلاق طيبة) إنما يلهو بعبث باطل، فلاكلو نفسه يسخر من أن يؤدي خدمة إلى الأخلاق، وكل همه هو أن يلاحظها وأن يصورها، وإني لا أتصوره أكثر اهتماما واستطلاعا ورضى كلما كان المنظر الذي يصوره أمعن في الاستهتار والقسوة، ولكنه أخذ بالأحوط فأثار العذر المعروف، وهو

مع ذلك يورده باستخفاف تام ومن باب اللياقة الشكلية.

ونحن اليوم في غنى عن هذا النفاق، أو ذلك الوهم، فلقد أخذت تلك الفكرة المحدودة القاسية النقية (فكرة المعرفة) تحل شيئاً فشيئاً محل فكرة تقويم الأخلاق؛ فكاتب القرن العشرين يصور الأخلاق لمجرد العلم بها، كشاهد يتقدم إلى ساحة الفضاء البشرية، وإذا استطاعت شهادته بعد ذلك أن نكون ذا أثر ما في حمل بعض الرجال على تقويم أنفسهم فإن الكاتب لا يرفض أن يكون له هذا الفضل.

فأما أن يكون لقصص الروائيين ومقالات الكتاب وصيحات أو أغاني الشعراء أثر طيب على الحياة الأخلاقية، فذلك ما نستطيع بل ما يجب أن نرجوه، ولكن علينا أن نبحث عن الطرق التي يمكن أن يسلكها ذلك الأثر؛ فأنا لا أعتقد أنه من الممكن أن نغير من العادات النفسية أو الأخلاقية لرجل ناضج، ولرجل كامل، نعم إننا نستطيع أن نقتنص انتباه رجل في عنفوان قواته، وأن نحمله على الشك في آرائه.

كما نستطيع أن نهز معتقداته، وأن نلقي الاضطرابات في هوايات فراغه بل ربما نستطيع أن نساعد على وجيبه إذا كانت الريح مواتية، وباستطاعتنا أيضا أن نرفه عنه وأن نغريه أو على العكس أن نثيره ونخدعه، ولكنيي لا أعتقد أصلا أنه من الممكن اللهم إلا إذا وجهنا علمنا في اتجاه قوى الغريزة والإحساس العاتي أن نغير رجلا مكتمل النضوج تغييرا تاما بقوة تفكيرنا أو وصفنا أو بلاغتنا أو بموسيقى ألفاظنا، بل ولا بتلك المسائل مجتمعة.

ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأرواح الناشئة المرنة القابلة لتلقي كل أثر والاحتفاظ به، فالتأثير الذي نستطيع أن نحدثه في نفوس الأطفال بنشر مؤلفاته، وإنما يحدثه غالباً على غير وعي منه في أجيال الأطفال الناهضة، خلال المدرسين والأساتذة، وأنا أعلم جيداً أنه لا بد له طبعاً من أن يكسب الأساتذة، وأن يصل إلى إحساسهم المدرك لكي يضمن وساطة تأثيرهم وتعاونهم معه، فالأساتذة دائما بحكم وظيفتهم في طليعة القراء، وهم يحتفظون حتى في نضجهم بنضرة وحيوية الشباب الذي يقومون على تربيته.

وبفضل عون هؤلاء الأساتذة يحب الكتاب بين طبقات الجمهور العميقة خير تلك الأصداء التي هي الكعبة الغائبة لكل كتاب، وهذا يفترض تعاونا وديا نشيطا بين الأدب العامل وأدب العلماء، بين عالم الأدب والجامعة، ومنذ ثلاثين سنة لم نكن نجرؤ أن نأمل وجود هذا التعاون، ولقد أهم الجامعة عندئذ إسراف الواقعية وكيمياء الرمزية؛ فأظهرت نحو الأدب الحب وأعني بذلك الفنانين الأحياء منتهى الحذر بل والتحفظ العابس حتى لكنت ترى كتب الأدب المدرسية لا تذكر بودلير الذي كان العالم يجله عندئذ كإله من آلهة فن الكلام، إلا بإشارة تافهة، وحتى كانت حياة الأدب تلوح في ذلك العهد وكأنها قد وقعت عند أوائل القرن التاسع عشر.

وفي اعتقادي أن هذه الحالة لم يكن من الممكن أن تستمر دون أن يكون في ذلك خطر، بل وأقول خطر على الكل، وهناك حقيقة شاذة جديرة بأن تثير حماسة الشبيبة القوية المثقفة وغضبها، وهي أن من المؤلفين الذين تصر الجامعة الفرنسية على تجاهلهم أو على النيل منهم من نراهم مدرجين ببرامج كل المعاهد الرومانية في الخارج، كما يجد فيهم طلبة جامعات أسكنديناوة وأمريكا موضعات لرسائلهم.

ولكنه لحسن حظ الآداب قد تغير الموقف فالجامعة في أيامنا قد ظهرت بفضل توجيه بعض العقول الكبيرة المتفتحة أن النقد يمكن لسلطانه وينهض بأسمى تبعاته، إذا تناول في شجاعة مؤلفات المعاصرين من الأدباء، ففي كل مراحل التعليم نرى كتائب من الأساتذة المثقفين قد تعهدوا نفث الضوء في تعليمهم بالمقارنة المستمرة بين القدماء والمحدثين، كما قبلوا أن يستعبنوا بذكاء المعاصرين عندما يعرضون لفهم العالم.

للكاتب أن يرجو أو يقبل أو يتظاهر بأن يحتقر أن يكون له دور الأستاذ والمربي، فله ثمة وظيفة لا يمكن مهما بلغ به الشك أن يفكر فيها دون أن يرق لها قلبه، بل ويحنو عليها، فكثير من الكتاب لا يريدون أن يلعبوا دور الهداة، بله دور رجال الأخلاق، ولكنهم كما يعلمون حق العلم أصدقاء ورسل عزاء، وأنا إذ أقول ذلك لا أسيء استعمال الألفاظ.

نعم إنه لا عزاء عن أكبر المحن، ومع ذلك فلنتصور كيف تكون الحياة بغير قراءة، ولنقدر مدى السيطرة المخيفة التي ستكون عندئذ للآلام والهموم والمتاعب والنكبات، فالفن حياة حتى في أغاني وداع الحياة، ليحملنا الفن على الاهتمام بالحياة فإنه بذلك يوشك أن يحملنا على محبتها، وليعنا على مجرد احتمالها فإنه عندئذ يستحق أيضاً عرفاننا بالجميل.

يظهر بوضوح أن الآداب الفرنسية لم تبعد في مغامراتها الحاضرة عن تقاليدنا المجيدة، فهي كلما تقدمت في نموها أصبح حديثها الخطر على الإنسان حديثاً من أجل الإنسان أيضاً بحكم الطبيعة، فجهود رجال الإنسانيات قد انتهت من قرن إلى قرن بأن استوت عملاً إنسانياً، فليثر ذلك الكنز وليربو، فتلك أمنية كل النفوس الطيبة، ولا ننسى أن تبعة هذا الكنز وديعة بين أيدينا، فلنحبه ولنمجده كأعز ما نملك من تراث.

***

اقتراحات في الإنسانية الحديثة

الإنسانيات الجامعة تلك الألفاظ قد استفادت على نحو عجيب في تاريخها الطويل مما يمكن أن نسميه جرس الأفكار، فكلمة جامعة التي كانت تدل في الأصل على جماعة أو رابطة، قد أصبحت توحي اليوم إيحاء لا يدفع بتلك المجموعة الجليلة من الآراء والمعارف والمناهج التي تكون كنوزنا، وما نكاد ننطق بها حتى تثب إلى نفوسنا فكرة الكل الجامع.

ولقد كانت كلمة الإنسانيات في الأصل تطلق على الدراسات الأدبية المسماة بالآداب الإنسانية، والتي كانت غالبية رجال الدين يدرسونها تمهيداً لدراسة الآداب الدينية، أي اللاهوت، ومنذ ذلك الحين لم يتغير جوهر تلك الإنسانيات، ولكن هذه اللفظة يزينها اليوم إشعاع من الضياء بحيث يتجه تفكيرنا رغما عنا عندما نستخدمها إلى أنبل مميزات الإنسان.

ومن تلك المميزات النبيلة التماس المتعة في أن نخلق أفكاراً أو أن نأتي بأعمال لا ترمي إلى غرض مادي من نفع مباشر أو عرض من أعراض الحياة أو أي أجر آخر محدود مفهوم، ونحن لا نستطيع أن نصف بذلك الآداب الإنسانية في أواخر القرون الوسطى وأوائل البحث العلمي، فلاتيني أيرازم كان أداة ممتازة للعلاقات الاجتماعية، إذ كان لغة أوروبية عامة يفهم منها العوام أنفسهم نتفاً، وبفضلها كان المثقفون يستطيعون أن يسافروا من بلد إلى بلد في غير مشقة. بل كان الإنسان يستطيع بخمسمائة كلمة لاتينية أن يقوم بسياحات وأن يعقد صفقات ويكون علاقات، ثم أن اللغات الأوروبية لم تكن قد استخدمت بعد أيام أيرازم العظيم في كتابات ممتازة تستطيع أن تثبت للمقارنة مع كتب القدماء، ومن ثم لم يكن بد لكل عقل يريد أن ينفذ إلى حقائق النفس البشرية من الرجوع إلى كتب اللاتين واليونان، ولهذا لم تكن الدراسات الإنسانية – فيما عدا اللاهوت – أهم الدراسات فحسب، بل كانت الدراسات الوحيدة الممكنة، بل والتامة التنظيم منذ عهد إيرازم.

وإذا كانت هناك اليوم أزمة ملحة في الإنسانيات عند كل الأمم المثقفة، فذلك لأن ملابسات الحياة قد تغيرت تغيرا محسوساً؛ فاللغة اللاتينية لم تعد لغة دولية، إذ فقد رجال القرن العشرين ما كان مألوفاً من استخدام تلك الأداة الطيبة، راضيين بأن يتفاهموا حسبما اتفق باستعمال إحدى اللغات الثلاث أو الأربع الأكثر شيوعاً في الغرب اليوم، وقد أنتجت شعوب الغرب في القرون الأخيرة من المؤلفات الأدبية والفلسفية الكثير مما يستحق بموضوعه وصياغته أن يتخذ مكانه إلى جوار أمهات الكتب القديمة. ثم أن تقدم العلوم لم يقف عند شغل العقول بها بعد أن كانت لا تحفل لها أيام البعث، بل جعل الإنسانية تجد في دراستها وسلية لتكوين الإدراك تستطيع أن تستغني بها عما كانت تلتمس في الدراسات الإنسانية من تنظيم للعقول.

لهذه الاسباب ولغيرها تميل اليوم شعوب الغرب إلى الاعتقاد بأن دراسة الإنسانيات قد لا تكون لازمة لتكوين الرجل المتحضر. ووضع الإشكال على هذا النحو يدعو فوراً إلى الحذر، إذ أن الآداب الإنسانية قد أثبتت كفايتها، فمنذ قرون لم

تقف في خلقها لعبقريات فذة بجميع بلاد الغرب تقريباً، فهل هيئتنا الاجتماعية في حاجة لأن تقوم بتجربة جديدة قد تستغرق قرناً، وقد تضحي بعدة أجيال، وهل نحن على ثقة من أن نخلق خيراً من ديكارت وبسكال وجيته وسرفنتيس، ثم أن عبقرية الغرب مهددة السلطان اليوم بتضافر شعوب العالم الأخرى، بل وبأخطائها هي وانقساماتها الداخلية، فهل تستطيع في لحظة كهذه أن تتخلى عن مناهج قدمت لها باستمرار، أجل الخدمات؟؟

على كل تلك الأسئلة أجيب في جزم بأن الغرب لا يجوز له ولا يمكنه أن يقوم بمثل هذه التجربة. لم يعد اللاتينى أداة للعلاقات الاجتماعية أو الدولية، ولكن ما فقدته الإنسانيات في ميدان الذرائع قد عوضته بسخاء في مجال الروح، لقد شهد القرن التاسع عشر انتصارات زمنية كبيرة، ولقد نمت تلك الانتصارات عند أنصاف المثقفين نزعة المنفعة أو قل فكرة المعارف المسماة مفيدة، وأغلب تلك المعارف علمية، فهي تتعلق بالظواهر التي لا يزال فهمنا لها ناقصاً، والتي تتعاقب الأجيال على النظر إليها في ضوء جديد وتحديدها برموز جديدة.

والمعلومات المسماة مفيدة بل نافعة هي قبل كل شيء معلومات فانية أو على الأقل معرضة للمراجعة، ولو أننا سلمنا بأنها تستطيع أن تنمي الملكات وتكون الإدراك، وهذا ما لا يزال يفتقر إلى دليل؛ لبقيت معلومات متغيرة متقلبة ومن ثم خادعة، لأنها لا تستطيع أن تضمن للنفوس أساساً ثابتاً.

ولقد أفاق القرن الجديد من سكرته، وأوشك أن يفيق من هذيان كبريائه، فعاد إلى أوراق الدعوى، والمهم هو أن نجعل النفس البشرية في حالة تستطيع معها أن تستخدم ملكاتها الأساسية، ولتحقيق ذلك لملك المعارف المسماة غير نافعة مقدرة عجيبة، إذ وسط فوضى الأفكار والأحداث يلوح أن تلك المعارف المعروفة بعدم نفعها هي وحدها المعارف المفيدة الفعالة المنتجة.

ولكن هل معنى هذا ان تظل الدراسات الإنسانية كما كانوا يعرفونها قديماً الوسيلة الوحيدة الثقافة الحديثة، لست أؤمن بشيء من هذا، وإلا لأنكرنا تلك القطوف الدانية التي تحملها الإنسانيات بمعناها الصحيح، إذ من واجب كل شعب أن يكلل (الإنسانيات الكلاسيكية) بما نستطيع أن نسميه (الإنسانيات الحديثة). إن كنز الإنسانيات في نمو مطرد، وما يجوز أن نفقد شيئاً منه، وأنا لا أرى مجازفة في أن أحل محل تعريف الإنسانيات القديم تعريفاً أوسع وأكثر مطابقة لحقيقة الواقع فأقول: (الإنسانيات الحديثة هي مجموعة الأفكار التي لا يطلب إليها نفع مباشر)

الفهرس